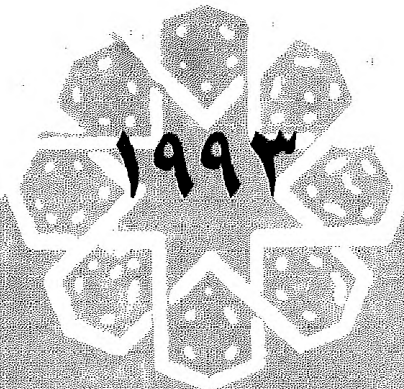


تاريخ الدولة العباسية

دكتورة
نبيلة حسن محمد
أستاذ التاريخ والضيافة الإسلامية المساعد
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية



دار المعرفة الجامعية
1- بن سويف - إسكندرية
٤٨٣-١٦٣ : ٤٤٠

تاريخ الدولة العباسية

ولكنرة
نقيلة حسن
كلية الآداب جامعة الإسكندرية

دار المعرفة الجامعية
٤٠ من سوي - استثنائية
٤٨٣٠١٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

"لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب"

مدق الله العظيم

قرآن كريم: سورة يوسف آية «١١١»

مقدمة
سمات الدولة العباسية

الدولة العباسية

سمات الدولة

دالت الدولة الأموية، التي حكمت الدولة العربية الإسلامية من الحاضرة دمشق، وقامت علي انقاضها دولة جديدة تنتمي الي بيت الرسول صلي الله عليه وسلم وهي الدولة العباسية، وارتفعت بنود العباسيين السوداء .

ويعتبر قيام الأسرة الجديدة نقطة تحول خطيرة في دولة الاسلام وذلك أن مبعغة الدولة أصبحت إسلامية عالمية بعد أن كانت عربية وأستمرت الدولة العباسية في الحكم حوالي خمسة قرون شهدت الدولة خلالها فترات من العظمة والسؤدد والأبهة، وتمتع الخلفاء اثناءها بكل مظاهر الترف والحضارة كما شهدوا ايضا فترات من الضعف والشدة والبؤس ذاقوا خلالها مرارة اللل والهوان .

والعصر العباسي الأول يشغل فترة القرون الأولى من هذه الفترة وخلال هذا القرن كان الفرس يحتلون مركز الصدارة في الدولة ولهذا يطلق الكتاب علي هذه الفترة أسم العصر الفارسي أو دولة الفرس . وأعقبت فترة الازدهار والقوة هذه فترة انتاب فيها الخلفاء الضعف الشديد وتغلب عليهم قواد الجيش من الترك وامبح الأمر والنهي في الدولة لقائد الجيوش الذي عرف بلقب امير الأمراء . كذلك شهدت الدولة خلال هذه الفترة التفتت والانقسام السياسي الذي بنا أول

الأمر في المغرب والأندلس ثم أنتقل إلى المشرق الذي بدأ ينقسم بدوره عن الدولة .

هذه الفترة - أو المرحلة الثانية - يطلق عليها الكتاب اسم العصر التركي أو دولة الترك . وهذه الفترة تنقسم بدورها إلى فترات ساد المشرق فيها بعض العناصر التركية وغير التركية . ففي قبيل منتصف القرن الرابع الهجري فرضت أسرة البويهيين من الديلم وصايتها علي الخليفة في بغداد من سنة ٣٣٤هـ إلى منتصف القرن الخامس الهجري تقريبا وبني بويه هؤلاء كانوا يدينون بالمذهب الشيعي ورغم ذلك لم يحاولوا أن يقضوا علي الخلافة السنية بل حافظوا عليها . ولكن قيام دولتهم ساعد علي انتشار الأفكار الشيعية في المشرق . وكان ذلك ايلانا بتحول كل المشرق الإيراني إلى المذهب الشيعي .

وتلي الديلم دولة السلاجقة هم من الأتراك واستمر العنصر التركي يسود الدولة حتي نهاية بغداد علي أيدي المغول . وكان لسقوط بغداد حاضرة الخلافة العباسية أثره الخطير بالنسبة للدولة الإسلامية من الناحيتين الإسلامية والحضارية . فمن الناحية السياسية أنهت دولة الخلافة وتقسمت الدولة إلى ذلك العدد الكبير من الدول المعروفة في المغرب وفي المشرق وحاول الأتراك العثمانيون أن يعيدوا هذه الوحدة وقد نجحوا إلى حد ما .

أما من الناحية الحضارية فكان سقوط بغداد يعني توقف العلوم والحضارة العربية والإسلامية وتلي هنا التوقف فترة من التدهور

والاضمحلال استمرت الي وقت قريب عندما بدأ العرب المسلمون يفتقون من ثباتهم هذا في الوقت الذي كانت فيه أوربا تنهض من الناحيتين السياسية والحضارية فبدأت الفترة الحديثة الحالية في تاريخ الاسلام التي نسميها فترة النهضة .

أما عن السمات التي تميزت بها الدولة العباسية ففي مقدمتها أن الدولة اتخذت سياسة شرقية علي عكس الدولة الأموية التي كانت تتجه في سياستها العامة إتجاها غربيا والمثل لذلك هو أن بلاد المغرب كانت أول البلاد التي خرجت علي سلطان الخلافة العباسية وبدأت حركة المد الإسلامي في بلاد المغرب تفقد بعض قوتها، كما بدأ ينكمش أمام ضغط أوربا المتزايد .

وفيما يتعلق بخلفاء الدولة العباسية فقد اعتبروا أنفسهم ورثة النبي صلي الله عليه وسلم الذين يسرون بالجماعة الإسلامية في الطريق القويم المستقيم . وإذا ما تأملنا في كتب التاريخ نجد أن الكتاب يؤكدون حرمة وقداسة الخليفة العباسي سليل بيت النبوة بينما يظهرون خلفاء بني أمية بمظهر الزعماء غير المتدينين وبيبالغون في وصف رذائلهم . ويمكن أن نفسر ذلك بأن معظم الكتاب الذين كتبوا عن تاريخ الدولة الأموية انما دونوا مصنفاتهم تلك علي أيام العباسيين ولهذا السبب لانتوقع منهم ان يسجلوا امجاد اسرة أنمحت واندثرت . ومصورة الخليفة العباسي عند هؤلاء الكتاب أشبه ما تكون

بصورة كسري فارس فهو يتمتع بكثير من الأبهة والفخامة والرونق والعظمة، كما تحيط به مظاهر الترف والتحضر. فقد زعر بلاط الخليفة بأهل العلم والفقه ممن يتصفون بالورع والتقوى، الي جانب الأدباء والمغنين والشعراء والأطباء الأخيار، والقضاة، وكذلك المشعوذين والمنجمين. وشهدت كما يقول ديوموبين ليالي بغداد الساحرة محافل الخلفاء ومجالسهم، فبعد صلاة العشاء الورعة تنشد الأغاني وتدار كلوس الراح خلال ذلك. ويعطر الجو بأنسام عبقة تتصاعد من المبخرات يختلج علي رنين قطرات الينابيع ويهتز الجو طربا للأصوات القوية المفردة المبعثة عن أفواه المغنيات والغان الأعواد. وقد يعترض هذه الحفلات اليومية حادثة غير متوقعة فتكسبها طرافة كاستجواب سجين لبق ذي فصاحة منمحة او زيارة ناسك متسول ذي كبرياء ولفظاة وقد يحز رأس بينما تدور الاقتحاح وتقترب الليلة من نهايتها، فيثقل العمر قلوب الشاوي وتنهل السموع وقد ينشد شاعر قصيدة ينعي فيها العمر القصير. ولي الختام يبرز الفجر بأضوائه والتمهية فيؤدي صلاة الصبح أولئك الذين فيهم بقية من وعي بخشوع وتقوي. أنها حياة ملأى بالاحاسيس عذبة رقيقة. أنها حياة ملأى بالاحاسيس عذبة رقيقة معاً، تحفل باللفظاة ورقة الطبع في أن واحد نجد مثيلاً لها لكن بصورة أوضح واعنف، وذلك في عصر النهضة الأوروبية. وقد ورد وصف هذه الحياة الحافلة في ألف ليلة وليلة والأغاني، ومروج الذهب، وفي روايات المؤرخين وقصائد الشعراء. ولكن وراء هذا الوجه

الرومانيكي للحياة يعيش شعب بينهم من يفكر . . وقد شهد القرن الثالث الهجري [التاسع الميلادي] قمة جهود المسلمين لفهم ذات الله والانسان والحياة، والتوفيق بين العقل والنقل . وكان عصر ازدهار الادب العربي كذلك، وبداية احياء آخر للفن الاسلامي بصورة فعالة . وفي هذا العصر كذلك نجد كل امكانيات الازدهار العقلي والمادي قد تحققت بوضوح . وفي السنوات الأخيرة من هذا العصر بالذات آذنت الساعة بزوال وتفسخ هذا المجد [١] .

(١) انظر، جود فرواديهوبين، النظم الاسلامية، مترجمه الدكتور فيصل السامر، الدكتور هالح الشماخ، دار النشر للجامعيين، بيروت ١٩٦١، ص

الفصل الأول

التعريف ببعض المصادر

التعريف ببعض المصادر

ونتكلم الآن عن المصادر التي يرجع اليها لدراسة هذا العصر
نبدأ بالإشارة الي أن المصادر التي يرجع اليها لدراسة تاريخ العرب
والإسلام تنقسم الي قسمين كبيرين: الأول منهما هو المصادر التي
تتصف بالأصالة أو التي لا يتطرق اليها الشك وان تطرق فالي حد
محدود وهذه المصادر الأصلية تنقسم الي أنواع فالأول منها هو
الأوراق الرسمية او الأوراق الحكومية وهي التي تعرف باسم
الوثائق او الارشيف وهذه قليلة نادرة وما وصل اليها منها لا يكفي
لكتابة التاريخ الاسلامي، بشكل يمكن ان ترضي عنه وهذه هي نقطة
الضعف بالنسبة لمؤرخ التاريخ الاسلامي بوجه عام وذلك انه يضطر
الي الرجوع الي مصادر من الدرجة الثانية مثل: روايات المؤرخين
من معاصرين ومحدثين ويمكن أن نفسر ندرة الوثائق التي وصلتنا
من العصور الاسلامية ونرجعها الي عدة أسباب نشير منها الي قلة
الورق وغلاء ثمنه. فالمعروف ان الورق الذي استخدم في العصور
الأولي هو المصنوع من نبات البردي وكان يعرف باسم القراطيس او
القراطيس وذلك قبل ان تعرف صناعة الورق الرخيص المعتاد الذي
عرف باسم الكاغد والذي دخل بلاد الإسلام منذ منتصف القرن الثاني
الهجري [القرن الثامن الميلادي].

ومن هذه الاسباب ايضا عدم انتشار الكتابة بالشكل الذي آلت اليه في العصور الحديثة حتي أن الكثير من الأوامر الحكومية وكذلك المعاملات بين الأفراد كانت تتم شفاهة دون حاجة الي التسجيل . والي جانب هذا يمكن الإشارة الي الاضطرابات السياسية التي ألمت بالدولة الإسلامية والعداء المرير الذي كانت تكفه الأسر الحاكمة الجديدة للأسر السابقة عليها مما كان يدعوها الي العمل علي محو آثارها والقضاء علي مخلفاتها .

هذا كما يمكن الإشارة الي الظروف الاجتماعية في تلك العصور القديمة والتي لم تكن تعمل علي سلامة حفظ الأوراق الرسمية التي كانت تذهب ضحية للاهمال وعدم الرعاية ، الي جانب الكوارث مثل الحريق وغامة بسبب استخدام الشموع والموافد الزيتية من اجل الاضاءة او القراءة ليلا .

النقود

بعد ذلك نشير الي النقود وهي تعتبر ايضا من الوثائق الأصلية وذلك بسبب النقوش التي تحملها والتي تتمثل في أسماء

الأمراء والقابهم وكذلك في العبارات المنقوشة عليها سواء كانت سياسية أو دينية إلى جانب تاريخ شك العملة، واسم البلد الذي ضربت به. فهذه المعلومات لها أهمية تاريخية هنا إلى جانب أهمية النقود من الناحية الاقتصادية والتي تتمثل في أنواع المعادن الثمينة المستخدمة في ضربها ومدى نقاء السبيكة الذهبية أو الفضة ومن هنا تصبح قوائم النقود الموجودة في المتاحف الخاصة في العالم من المراجع القيمة التي لا يستغني المؤرخ المحدث عن الاستفادة منها.

النقوش

يأتي بعد ذلك النقوش الموجودة على الآثار وعلى اللوحات التذكارية القديمة أو الشواهد القبور وغيرها. وهذه تحتوي مثلها مثل النقود على مادة أصيلة بل هي أغني من النقود طبيعة حجمها وتنوع مادتها.

الآثار

وتأتي بعد ذلك الآثار وهي مثل النقود من حيث الأهمية الكبيرة بسبب أصالتها وذلك أنها شواهد مادية للعصور التي أقيمت فيها وهي تنقسم إلى معمارية وزخرفية.

وتتمثل الأهمية التاريخية لأثار من حيث أنها تعطي فكرة صحيحة عن طبيعة العصر الحضارية من الناحية المادية مما يعجز الوصف عن التعبير عنه مهما بلغ من الدقة والأمانة . ورغم التلقيب المستمر علي الوثائق والنقود والآثار . ورغم اهتمام الدارسين بذلك فإن ما وجد من العصور الإسلامية منها بشكل عام ومن عصر صدر الإسلام بصفة خاصة لا تكفي لكتابة تاريخ موثق لهذه الفترة . وبناء علي هذا فلا يبقني أمامنا إلا كتب المؤرخين القدماء من معاصرين ومتأخرين .

ثم نتناول بعد ذلك مصدر من أهم المصادر التي تناولت الدعوة العباسية وهو كتاب أخبار الدولة العباسية ولله أخبار العباس وولده وهو المؤلف من القرن الثالث الهجري .

وهذا العنوان «أخبار الدولة العباسية» يرجحه الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري محقق المخطوط - وكلمه "دولة" هنا كما يقول الدوري، "لا تعني بالضرورة الكيان السياسي المفهوم . بل أن مؤلف "أخبار العباس وولده" استعملها بمعنى "دعوة" إذ يقول : "أن إبراهيم الإمام بن محمد أوصي أبا العباس عبد الله بن محمد بالقيام بالدولة، وأمره بالجد والحركة، وأن لا يكون له بالعميمة لبث ولا عرجة حتي يتوجه الي الكوفة" بناء علي الدراسة المقارنة

التي عقدها بين مخطوطه هذا، والقطعة المصورة من مخطوط بعنوان "نبذة من كتاب التاريخ للمؤلف المجهول من القرن الحادي عشر" التي نشرها الأستاذ غريان نيوبج مع ترجمة وتعليقات بالروسية ثم نشر المخطوط كله مصورا بعنوان "تاريخ الخلفاء" للمؤلف المجهول من القرن الحادي عشر وهذا الكتاب مهم لملته الوثيقة بمخطوط - الدكتور السروي - وللضوء الذي يلقيه علي بعض مشكلاته.

وفقد الأوراق الأولى من المخطوط كما يقول المحقق حرمانا ثم أسم المؤلف. ولكن دراسة أسلوب الكتاب ومصادره تدل علي أنه كتب في أواسط القرن الثالث الهجري فهو في الأساس كتاب اخبار يعني بايراد الأسانيد ويلتفت الي اختلاف الروايات. ومع انه يراعي تسلسل النسب في اطاره الا انه لم يحافظ بدقة علي خط كتب الانساب. اذ أنه لايعني الا بالابن الأكبر. كما ان الاهتمام الخاص بالاسناد يبين الاثر الواضح لمدرسة اهل الحديث في الأسلوب.

وتتنوع مصادر معلومات الكتاب حسب طبيعة الموضوع، وتدل علي جهد واسع في جمع الروايات. فقد اخذ المؤلف جل معلوماته عن الدعوة من روايات شفهوية واخذ من مؤرخين سابقين، وانفرد بايراد وثائق ومعلومات هامة.

أخذ مؤلف "الاخبار" عن مؤلفين معروفين سبقوه من اخباريين،
مثل ابي مخنف [توفي ١٥٧هـ / ٧٧٤هـ] وعوانه بين الحكم
[توفي ١٤٧هـ / ١١٩هـ]، والهيثم بن عدي [توفي ٢٠٦ -
٢٠٧هـ / ٨٢١ - ٨٢٢م] والمدائني [توفي ٢٣٥هـ / ٨٥٠م] وعن
مؤرخين كالواقدي [توفي ٢٠٧هـ / ٨٢٣م] ونسابين مثل هشام بن
محمد بن السائب الكلبى [توفي ٢٠٤ - ٢٠٦هـ / ٨١٩
- ٨٢١م] ومصعب الزبيرى [توفي ٢٣٥هـ / ٨٥٠م] وغيرهم مثل
محمد بن سلام [توفي ٢٣١هـ / ٨٤٠م] واتصل بمعاصريه واخذ
عنهم مثل محمد بن شبة [توفي ٢٦٢هـ / ٨٧٥م] والعباس بن
محمد بن محمد الدوري [توفي ٢٧١هـ / ٨٨١م] والمبرد [توفي
٢٨٥هـ / ٨٩٨م] وقد اخذ روايات المعاصرين باسانيدها، وخير مثل
لذلك مارواه عن البلاذري فهو يعطي روايات باسناد متصل، ولذلك
تختلف سلسلة الاسناد احيانا عما جاء في كتاب انساب الاشراف
للبلادري، او يعطي اسنادا حين لا يوجد اسناد في رواية استاب
الاشراف، او يورد نصا يختلف لحد ما عن النص الوارد في انساب
الاشراف مما يدل على انه روي عنه مباشرة.

وانفرد المؤلف بمعلومات عن بداية الدعوة [حتى سنة
١٠٠هـ] وعن بعض احداثها واسرارها، كما أورد قوائم مفصلة

باسماء النقباء والدعاة في خراسان ومراتبهم وتنظيماتهم ويبدو انه اخذها من الحلقات الداخلية لرجال الدعوة، اذ استقي الكثير منهما من رؤساء الدعوة من الدعاة البارزين فيها . والظاهر ان اعتباره عن نشاط ابي مسلم في خراسان وعن نشاط المسودة العسكري بقيادة قحطبة وانتصاراتهم، تعتمد علي هذه المصادر وعلي اناس متصلين بالحلقة العباسية مثل ابي اسحق بن الفضل الهاشمي كما اخذ بعض معلوماته عن افراد من لاسرة العباسية مثل عيسى بن عبد الله وعيسى بن موسي وعيسى بن علي وابراهيم بن المهدي والرشيد .

واعطي المؤلف صورة داخلية لطبيعة الدعوة واحاديثها، وكشف عن جلور الغلو فيها، مما لايناسب العباسيين بعد مجيئهم للحكم، وهذا يجعل بعض محتويات الكتاب اقرب الي الوثيقة السرية منها الي كتاب للجمهور .

وكل هذا يشير الي صلة خاصة للمؤلف بالعباسيين واتباعهم، ومصادر الكتاب كما يقول الاستاذ الدكتور الدوري تجعلنا نحدد زمن تأليفه باواسط القرن الثالث الهجري . ويميل الي نسبة الكتاب الي محمد بن صالح بن مهران [ابن النطاح] توفي سنة ٢٥٢هـ / ٨٦٨م ومع ان الاشارات الي ابن النطاح تجعله اول من صنف كتابا في اخبار الدولة .

ويقول الدكتور الدوري ويدفعنا الي هذا الافتراض عدة أمور:
فابن النعمان مولي جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس،
وهذا الولاء يجعله علي صلة وثيقة باخبار العباسيين وكان ابن
النطاح، اخباريا ناسبا رواية للسنن، وهي عين للمؤلفات التي يكشف
عنها اسلوب "اخبار العباس وولده". وكان من بين من روي عنهم
ابن النطاح الواقدي والمدايني.

هذا ان الي عنوان كتابه هو "اخبار الدولة العباسية".

أما محتويات الكتاب فهي علي النسق التالي:

- يبدأ بالكلام عن موت العباس بن عبد المطلب
- ثم اخبار عبد الله بن العباس.
- اخبار علي بن عبد الله بن العباس.
- اخبار محمد بن علي بن عبد الله بن العباس.
- اخبار ابراهيم بن محمد بن علي الامام
- خبر ابي مسلم وابتداء امره
- مسير قحطبة بن شبيب بالجنود الي العراق
- ظهور ابي سلمة بالكوفة.

وينتهي اخباره بوصول وصية ابراهيم الامام الي اخيه ابي
العباس.

وقد قام بتحقيق الكتاب الدكتور عبد العزيز الدوري والدكتور
عبد الجبار المطليبي وطبع في بيروت، سني ١٩٧١.

كتب التاريخ العام

واول الكتب التي نشر اليها هو كتاب تاريخ خليفة بن خياط
المتوفي في سنة ٢٤٠هـ / ٨٥٤م وخليفة من قدامي المؤرخين
الثقات، وصاحب اقدم رواية تاريخية وصلت الينا، وهو يسبق
تاريخ الطبري باكثر من نصف قرن.

وهو خليفة بن خياط العصفري البصري، المعروف بشباب.
تلقى العلم علي علماء بلدة البصرة، والبصرة كانت في القرن
الثالث الهجري مركزا هاما من مراكز اشعاع الثقافة العربية
الاسلامية الخاصة في علوم اللغة والحديث والسيرة والتاريخ.

في هذا البلد العثماني الهوي، شب خليفة ونشأ وتعلم وهو

ينتمي الي اسرة لها مكانتها العلمية فجده اسمه خليفة ايضا كان من ثقات رجال الحديث عند البخاري وابن ابي حاتم الرازي صاحب كتاب "الجرح والتعديل" وقد اخذ خليفة العلم عن عدد من الشيوخ في مقدمتهم يزيد بن زريع، ويزيد هذا من ثقات اهل البصرة مع ميول عثمانية كما وصفه ابن سعد في طبقاته . كما سمع ايضا من سفيان ب عينية وابن مهدي وهشام الكلبي وعلي بن محمد الهذلي واخرين . ومات في سنة ٢٤٠هـ - ٨٥٤ م عن عمر يناهز الثمانين عاما .

مؤلفاته

صنف خليفة حسبما ذكر ابن النديم في الفهرست اربعة كتب، كتاب التاريخ، وكتاب طبقات القراء "وكتاب" تاريخ الزماني والعرضي والعميان وكتاب اجزاء القرآن واعشاره واسباعه واياته .

ويكاد يجمع علماء الحديث علي ان خليفة كان من الثقات وقد وثقه البخاري في تاريخه الكبير عندما ترجم له وكذلك فعل الذهبي في "تذكر الحفاظ" و"ميزان الاعتدال في نقد الرجال" وسير اعلام النبلاء .

منهجه في الكتابة

وكتاب "تاريخ ابن خياط" يؤرخ لفترة من تاريخ الاسلام تمتد حتي سنة ٣٣٢هـ والكتاب مرتب علي طريقة السلويات وخليفة مؤرخ محدث فهو يعتني بسلسلة الاسناد أي الرواة الذين رووا الخبريل يذهب في ذلك الي اللذين شهدوا الاحداث.

وقد بدأ تاريخه بالكلام عن بداية التاريخ: ثم شئ ذلك بالحديث عن مولد رسول الله صلي الله عليه وسلم، ثم اخذ يورد اخبار كل سنة علي حدة ابتداء من السنة الاولى للهجرة ذكرا اهم ماجري فيها من احداث حتي اذا انتهى من ذلك ذكر من ادركتهم الوفاة في تلك السنة، ومن اقام الموسم. وبعد ان ينتهي من الكلام عن عهد خليفة من الخلفاء يتبع ذلك يذكر من ولوا كل اقليم من اقاليم الدولة علي عهده ثم من تقلد خطة القضاء في الامصار وخاصة في المدينة ومكة والبصرة والكوفة، وقد يورد احيانا من تقلدوه في الشام وبعد ذلك يذكر من تولوا حجابة الخليفة والشرط والكتابة وبيوت المال، والخاتم، والبريد، ثم يورد اسماء الرسل [أي السفراء] وهي معلومات ثمينة قيعة لدراسة تاريخ النظام الاداري والقضائي في تلك الفترة.

ويحتوي الكتاب علي احصاءات لاتوجد عن غيره لان منهج خليفة انه بعد الحديث عن كل وقعة هامة مثل : بدر واحد، والحره وغيرها، يورد اسماء من استشهدوا في تلك المواقع.

وقد روي خليفة عن ائمة الرواة الثقات كالوليد بن هشام،
وزيد بن زريع والمدايني.

ومن الجدير بالملاحظة ان خليفة قد اهتم اهتماما خاصا
بالاحداث الخارجية في دولة الاسلام وفي تاريخه نجد تاريخ لوليات
كثير من ائمة الحديث ورجال الفكر والادارة والحكم.

وبعد خليفة يأتي الطبري [ابو جعفر محمد بن جرير، ولد في
اواخر سنة ٢٢٤هـ/٨٣٩ م في مدينة امل وهي في بلاد
طبرستان ومن هنا نسبته الطبري وتوفي في ٢٦ شوال سنة
٣١٠ هـ: ١٦ فبراير ٩٢٣م] وللطبري عدد من المؤلفات يهمنها
منها كتاب "تاريخ الرسل والملوك" او تاريخ الامم والملوك" ولها
كان الطبري من كبار الفقهاء المشتغلين بالقران والسنة حتي ان
اشهر مؤلفاته هو "تفسير الطبري" فاننا نلاحظ انه ينهج نهج
المحدثين في كتابته. للتاريخ فهو يورد الروايات التاريخية مسبوقة
باسنادها الذي يرجع في بعض الاحيان الي شهود عيان هذا الي جانب

انه يعطي للحدث الواحد اكثر من رواية وهو نزيه يظهر بمظهر
المحايد الذي لا يرجح رواية علي غيرها . هذا ولقد سار الطبري
بدوره في تاريخه علي طريقة الحوليات اي السنوات .

وبعد كتاب الطبري نذكر كتاب ابن الاثير المعروف باسم
"الكامل في التاريخ" وابن الاثير متوفي سنة ٦٣٠هـ . يلاحظ ان
ابن الاثير ينقل كتاب الطبري فيلخصه فيما يتعلق بالقرون الثلاثة
الاولي ثم انه يضيف اليه ويكمّله حتي سنة ٦٢٨هـ . ورغم انه
يلخص الطبري الا انه يعتبر مرجعا اساسيا حتي بالنسبة للفترة
القديمة من صدر الاسلام وذلك بفضل ما يظهره ابن الاثير من
المقدرة لعي النقد والتمحيص واكمال الموضوعات التي وجدها ناقصة
عند الطبري ولذلك يعتبر كتاب ابن الاثير مهما ليس بالنسبة
للتاريخ الاسلامي العام بل بالنسبة لتاريخ الاقطار الاسلامية المختلفة
سواء كانت في اقصى الشرق او في اقصى الغرب .

بعد ذلك ننتقل الي الكلام عن كتاب "العبروديوان المبتدأ
والخبر في اخبار ملوك العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من
لوي السلطان الاكبر " لابن خلدون وابن خلدون ولد في تونس في
سنة ٧٣٢هـ ودرس علي عدد من العلماء التونسيين والمغاربة
وعمل في خدمة ملوك الحفصيين في تونس وكذلك بني عبد الواد

في تلمسان ويني مرين في فاس وبني الأحمر النصريين في غرناطة
ثم رحل الي المشرق ووصل الي الاسكندرية ومنها الي مصر سنة
١٧٨٣/٧٨٤م [في سلطنة الظاهر] وجلس للتدريس في الجامع
الازهر وولي قضاء المالكية بمصر سنة ٧٨٦هـ ثم عزل عن القضاء
وتوجه لقاء فريضة الحج سنة ٧٩٠ هـ وبعد ان قضي فرمة رجع
الي القاهرة وقضي بقيه ايامه عاكفا علي قراءة العلم وتدريسه ومات
في القاهرة في ٢٥ رمضان سنة ٨٠٨/١٧ مارس ١٤٠٦م.

ويعتبر كتاب ابن خلدون من أهم المصادر وذلك لسببين
المعروفين اللذين يختص بهما ابن خلدون واولهما ملكة المؤرخ
العبقري الموهوب التي جعلته يفهم التاريخ بمعناه الحقيقي الشامل
الذي يتلخص في ان الحدث التاريخي اكبر من أن يكون حدثا
سياسيا فقط بل هو نتيجة لتفاعل عدد من العوامل السياسية
والجغرافيا والاقتصادية والاجتماعية وكذلك النفيسة ايضا وهذا
مادعا ابن خلدون الي الكلام عن كل هذه الفنون في المقدمة حتي
جعل مفهوم التاريخ اشبه مايكون بمفهوم الحضارة اي جعله تاريخا
للدمم والشعوب بدلا من سير الملوك والامراء او طبقات الاعيان
وهذا ماسماه البعض "فلسفة التاريخ" وهو في الحقيقة ليس الا
التاريخ كما ينبغي ان يكون.

كذلك لابن خلدون نظريات في التاريخ من هذه النظريات: نظرية ان الدولة مثل الفرد تمر بعدة مراحل: اولها مرحلة النشأة والطفولة ثم مرحلة الشباب والفتوة والقوة واخيرا تأتي مرحلة الشيخوخة التي يعقبها انهيار الدولة . وهو ينص علي نظرية اخري في قيام الدولة هي نظرية العصبية فهو يرى ان الدولة تتركز علي عصبية والعصبية عند ابن خلدون هي تلك الروح التي تدفع الجماعة من الافراد او اعضاء القبيلة نحو الالتفاف حول زعيمهم لاضاع الجماعات او القبائل الاخرى لتكوين الدولة . وتظل الدولة قوية متماسكة طالما ظلت عصبيتها قوية متماسكة فاذا ماضعت العصبية وانحلت الدولة لكي تقوم عصبية جديدة . بانشاء دولة جديدة . ويظهر نبوغ ابن خلدون في هذه النظريات التي قennها لقيام الدول الي جانب انه نص علي مسألة المنهج التاريخي الذي ينبغي علي النقد فهو يطالب المؤرخ بان يعرض الروايات المختلفة للنقد ويتقابل بينها وذلك علي اساس من العقل والمنطق وبناء علي هذا النقد فهو يرجع الرواية الصحيحة علي الرواية الموضوعية ولهذا السبب نجد انه يعطي نماذج لها يمكن ان يلحق بالتاريخ من الوضع والامطناع ويعطي امثلة للروايات الاسطورية التي تحيط بتاريخ بني اسرائيل كما انه يحاول ان ينقص الروايات المختلفة التي نسجت حول الامويين مثل معاوية او عبد الملك بن مروان كذلك الروايات المشبوهة التي نسجت حول هارون الرشيد واغتة العباسية .

ونلاحظ ان ابن خلدون لم يستطيع ان يطبق قواعد النقد هذه عندما بدأ يكتب تاريخه فخرج تاريخه اشبه مايكون بالتواريخ التقليدية السابقة، هذا ولو انه أظهر موهبة في النقد وترجيح الروايات في بعض الأحيان.

وبعد ذلك ننتقل الي الكلام عن المسعودي المتوفي سني ٣٤٦هـ في مدينة فسطاط مصر ويعرف كتابه باسم "مروج الذهب ومعادن الجوهر" ويعتبر هذا الكتاب من المصادر الهامة ليس لقدمه فحسب ولكن لاطلاع المسعودي وسعه معلوماته التي اتت الي جانب الدراسة والقراءة لتجوله في مختلف البلدان اذ طوف المسعودي خلال اربعين سنة بفارس والهند والصين وسواحل شرق افريقيا والشام وذلك قبل ان يقدم الي مصر حيث توفي بها . ويفضل اسفاره ودقة ملاحظاته جمع اخباراً عن البلدان والشعوب والملاهب والعادات والتقاليد لانجدها في غيره من كتب المؤرخين . ولقد حبه المسعودي الي اهمية عامل البيئة في مسيرة الاحداث السياسية وهو لهذا السبب يهتم بالجغرافية الطبيعية والبشرية في مقدمة الكتاب وهو بذلك يعتبر النموذج الذي حذا حذوه ابن خلدون ومع ان المسعودي يتبع في كتابه طريقة الحوليات الا انه يمزج بينها وبين الترتيب الموضوعي فهو يفرد بابا لكل دولة ويخصص فصلاً لكل امير او حادثة فلا يفقد الموضوع وحدته . ويهتم بحياة الناس

وخاصة افراد الطبقة العليا في المجتمع: من الخلفاء وكبار رجال الدولة ومشاهير العلماء والشعراء كما لايهمل القصص الشعبي ولا الروايات الطريفة، وهو لكل ذلك يعطي نوعا من الحياة والطرافة لتاريخه وان كان المسعودي يخرج بمهجه هذا علي اصول البحث وتحري الحقيقة . ولهذا السبب فرغم مايحتويه الكتاب من معلومات تاريخية قيمة الا انه ينبغي ان تؤخذ هذه المعلومات بشئ من الحذر وان تعرض للقواعد النقد .

ولكثرة المعلومات الجغرافية التي يحويها الكتاب نجد ان بعض الباحثين يضعونه بين كتب المكتبة الجغرافية العربية - هذا لوان للمسعودي كتابا خاصا في الجغرافيا عنوانه كتاب "التبويه والاشراف" هذا كما يمكن الاشارة الي انه بسبب كثرة المعلومات الادبية واهتمام المسعودي بالشعر يمكن ان يوضع الكتاب بين المؤلفات الادبية والحقيقية ان الكتاب يعتبر موسوعة كبرى تعالج الكثير من العلوم والفنون الي جانب التاريخ والجغرافيا .

هذا ويمكن ان نضيف الي قائمة كتب التاريخ العام هذه مؤلفات المؤرخين المصريين من امثال المقرئزي المتوفي في سنة ٨٤٥هـ والذي كان تلميذا لابن خلدون . وابن تغري بردي صاحب النجوم الزاهري المتوفي ٨٧٣هـ والسيوطي المتوفي في اوائل القرن

العاشر الهجري صاحب كتاب [تاريخ الخلفاء] هنا الي جانب اصحاب
الموسوعات التاريخية والجغرافية والأدبية مثل القلقشندي صاحب
كتاب صبح الأعشي في صناعة الإنشاء " والنوير صاحب كتاب "
نهاية الأرب في فنون الأدب" وكذلك كتاب العمري المعروف باسم
مسالك الأبحار في ممالك الأمصار " .

كتب الجغرافيا العربية

وبعد هذا ننتقل الي لون جديد من الكتب هو مجموعة كتب
الجغرافيا العربية وكتب الجغرافية مهمة بالنسبة لدراسة الموضوع
وذلك للصلة الوثيقة بين التاريخ والجغرافية فالجغرافية العربية
كانت وثيقة الصلة بالتاريخ وبمرور الوقت انفصلت عنه انفصالا غير
تام علي كل حال فاحتفظت كتب الجغرافية بالكثير من المعلومات
التاريخية كما ظل الجغرافيون العرب يكتبون في التاريخ والجغرافية
جميعا والمثل لذلك اليعقوبي وابو الفدا .

والجغرافية العربية تنقسم الي نوعين - اولهما الجغرافيا
الرياضية وتضم فرعين هما علم الأطوال والعروض، وعلم تقويم
البلدان .

وثانيهما الجغرافية الادبية، او الوصفية وتشتمل علي فرعين هما: علم المسالك والممالك وعلم عجائب البلدان.

واهمية كتب الجغرافية في أنها تكمل كتب التاريخ التي اهتمت بالاحداث السياسية بشكل خاص - من حيث اهتمامها الي جانب وصف الاحوال الطبيعية والبيئية بامدادنا بمعلومات ذات طبيعة متنوعة منها الاقتصادية والاجتماعية وما يختص بعادات الشعوب وتقاليدها مما لا يستغني عنه المؤرخ المحدث ولقد عرف الاوربيون ما للمكتبة الجغرافية من اهمية فاعتنوا بنشرها في اوروبا منذ اكثر من مائة عام تحت اسم "المكتبة الجغرافية العبية" وقد كان لمستشرق الهولندي دجويه مجهوده الذي لا يغفل لي نشر هذه المجموعة وتحتوي هذه المكتبة علي كتب ابن خرداذبية واليعقوبي وابن التقي والامطخري والمسعودي والمقدسي.

ثم يأتي بعد ذلك كتب الطبقات وهي نوعين كتب طبقات عامة مثل كتاب ابن خلكان المتولي في سنة ٦٨١ هـ المعروف باسم وفيات الاعيان وابناء ابناء الزمان وهو من كتب الطبقات العامة وهناك ايضا كتاب فوات الوفيات لابن شاکر الكتبي وغيرها وكتب طبقات عامة اقليميا خاصة موضوعيا مثل : طبقات المالكية والشافعية وطبقات الصوفية وطبقات المحدثين وطبقات الاطباء

والحناء واللغويين والنحويين والقضاء والنها، وكتب خاصة
اقليميا .

وميزة هذه الكتب تتلخص في انها تهتم بالتاريخ الاجتماعي
والحضاري اكبر من اهتمامها بالتاريخ السياسي .

ثم يأتي بعد ذلك مجموعة الكتب التي تعالج تاريخ الاديان .
وهذا اللون من الكتب تتناول بصفة خاصة المذاهب الاسلامية .
وفي مقدمة هذه الكتب كتاب ابن حزم الاندلسي القرطبي [بابو
محمد علي ابن حزم المتوفي سنة ٤٥٦هـ] المعروف بكتاب "الفصل
في الملل والاهواء والنحل" وكتاب "الملل والنحل" للشهرستاني
[ابو الفتح عبد الكريم الشهرستاني المتوفي سنة ٤٥٨ هـ]
وكتاب الفرق بين الفرق "للبيهقي" .

هذه الكتب تتكلم عن الاسلام وعن فرقة المختلفة من: الشيعة
والخوارج والمرجلة والقدرية والمعتزلة والسنة وطوائف كل فرقة
منها . ولما كانت دولة الاسلام تحتوي علي جماعات غير اسلامية
تعيش داخل الدولة مثل اليهود والنصارى والمجوس والمائدة
وغيرهم وجبت معرفة اصول دينهم لتحديد الدولة موقفها منهم
ولهذا، تكلم هؤلاء الكتاب عن نحلهم ومذاهبهم .

ننتقل بعد ذلك الى الكلام عن مجموعة الكتب التي تتناول تاريخ النظم والادارة، واصول الحكم. وأشهرها كتاب "الاحكام السلطانية والولايات الدينية" للماوردي [توفي ببغداد في سنة ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م. ولقد كتب الماوردي في تفسير القرآن والفقه والنحو الى جانب ماكتبه في اصول الحكم وكان من المجتهدين.

فمن بين ابواب الكتاب العشرين في: الامامة والوزارة والقضاء والجهاد وتنظيم الاموال وولاية الاقاليم الخ.، يعتبر الباب الخامس في عقد الامامة [او الخليفة] وهو اولها اهم الموضوعات التي عالجه الماوردي وهو يستند في معالجته للتقنين للخليفة [التي يراها عقد مرضاه واختيار] الى القرآن والسنة والاجماع الى جانب السوابق التاريخية المعتبرة.

الفصل الثانى

عظمة الدولة الأموية وبداية الأفوال

عظمة الدولة الأموية وبداية الأقبول

بلغت الدولة الأموية ذروة مجدها وعظمتها في نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني للهجرة - وهو القرن الثامن الميلادي - ففي هذا القرن وضعت جميع النظم الإسلامية وبدأت كافة الاتجاهات الفكرية، حينما أخذت الأفكار تتجاوز حدودها الإقليمية إلى افاق أوسع. وهو عصر تفتح الروح الإسلامية وسط ثراء مادي غزير، وهي كذلك الفترة التي مهدت بعد سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠م للدول العباسية أن تكون مركزا مهما للحياة [١].

وهناك خلفاء عظام مثل: الوليد وسليمان بن عبد الملك وعمر بن عبدالعزيز تسيدوا أكبر دولة إسلامية. وفي الحقيقة أن الفصل في اتساع الدولة إنما يرجع إلى كبار العمال من رجال الحرب والإدارة الذين خدموا هؤلاء الخلفاء. وأغلب الظن أن السبب في عدم معرفتنا بأعمال خلفاء الأمويين الشخصية إنما يرجع إلى أن ماكتب عنهم إنما كتب في العصر العباسي. ولما كان العباسيون يكونون للأمويين حقا كبيرا كان من الطبيعي أن يصور الكتاب خلفاء الأمويين تصويرا قاتما فهم يصفون الخليفة الوليد بأنه مستبد ظالم، وسليمان شره أكول [٢]. ولم يسلم من النقد من الخلفاء الأمويين

(١) نفس المرجع السابق، ص ٢٦.

(٢) انظر، السعودى، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق وتصحيح شارل بلا

(عن طبعة بريبة دي مبنار وبافية ذي غرثاني)، منشورات الجامعة اللبنانية

قسم الدراسات التاريخية، بيروت ١٩٧٣، ج ٤، ص ١٣٠.

سوي الخيفة الورع التقى عمر بن عبد العزيز الذي يعتبره الكتاب خامس الخلفاء الراشدين . ورغم الاعتراف بمكانة عمر بن عبد العزيز الذي يرجع اليه الفضل في منع سب الإمام علي رضي الله عنه من علي المنابر كما أنه أعترف له بفضله عندما نظر الي الاسلام نظرة تختلف عن نظرة سابتية فهو يري أن الدولة عندما اتسعت كانت تهدف الي نشر الاسلام قبل الحصول علي المكاسب المادية وأعلن رأيه هذا عندما تضاربت السياسة الدينية مع السياسة الادارية وطولب الداخلون الجدد في الاسلام بدفع الجزية مثلهم في ذلك مثل أهل الامة [غير المسلمين من أهل الكتاب] فأمر عمر برفع الجزية عن أسلم ولهذا يعتبر عمر نموذجا للورع والعدل والحكمة . ورغم ذلك نجد أن بعض كتاب العباسيين ينالون منه كما نالوا من أقاربه . وينسب الي المنصور العباسي انه قال عندما ذكر في مجلسه "انه أعور وسط عميان" [١] .

وبناء علي ذلك نلاحظ أن الفضل في الأعمال السياسية والعسكرية التي حققتها الاسلام علي عهد الدولة الاموية انها يرجع الي كبار رجال الدولة مثل الحجاج بن يوسف الثقفي الذي اشتهر بعنفه وشدته وبطشه حتي أنه غرس كراهية أهل الشام في قلوب أهل العراق ولكن يرجع الفضل الي نسوته في الحفاظ علي وحدة الدولة .

ونذكر أيضا من الرجال العظام قتيبة بن مسلم فاتح بلاد ماوراء

(١) نفس المصدر والصفحة .

النهر والذي وسع حدود الاسلام حتي مغارب السند، ثم موسي بن نصير فاتح الاندلس.

امتد سلطان الدولة في المشرق والمغرب ولكنها لم تستطع أن تفتح القسطنطينية ففشلت المحاولات التي بذلها معاوية بن ابي سفيان وخلفائه مثل الوليد وسليمان.

أما فيما يتعلق بالسياسة الداخلية فانه في هذه الفترة التي شهدت فيها الدولة اقصى اتساعها حدثت تغييرات مهمة في نظمها الداخلية وكذلك بدأ ظهور العمارات الاسلامية النخبة التي نذكر ونعربها.

كذلك ينبغي الإشارة إلى المجهودات العظيمة التي قام بها الخليفة عبد الملك بن مروان من أجل تعريب الدواوين أي تعريب الإدارة وعمل علي تغلغل هذا التعريب بين أهل الأمصار. وعمل التعريب وانتشار الاسلام علي تكسير الحواجز التي كانت موجودة بين العرب وبين أهل البلاد وكان ذلك تمهيدا لقيام المجتمع العربي الاسلامي الموحد. واستمر في هذه السياسة التي بناها عبد الملك ابنة الوليد وكذلك عمر بن عبد العزيز ويرجع الفضل في انشاء المسجد الجامع في دمشق الي الوليد ابن عبد الملك الذي استجلب لبناء هذا الجامع الفنانين من بلاد الروم وكذلك من مصر وانفق عليه

بسخاء حتي أصبح مفخرة من مفاخر الاسلام ونموذجا من نماذج الفن الاسلامي.

وبعد أن بلغت الدولة من الناحية العسكرية اقصى اتساعها بدأ عصر التوقف العسكري والاقليمي وكان هذا يعني بداية عصر الاقلول والاضمحلال.

أما في الشرق فتحركت المسيحية ايضا فانتهي حصار القسطنطينية الاخير بالفشل. ثم ان الامبراطورية البيزنطية خرجت من فترة الضعف التي كانت تمر بها وأعتلي عرشها امبراطور قوي هوليو الثالث الايسوري الذي قام بحملات عسكرية في آسيا الصغرى وكذلك في مناطق القوقاز. وفي سنة ١٢٢هـ تذكر الحوليات ان ابن الخليفة هشام بن عبد الملك الذي كان قد توغل في الاراضي البيزنطية لقي هزيمة مروعة إذ تشتت مقدمة جيشه وقضت هذه الكارثة علي حلم الامويين في القضاء علي بيزنطة. هذا فيما يتعلق بتوقف الفتح العسكري.

أما فيما يتعلق بالأحوال الداخلية في الدولة فإنها لم تكن بأحسن حالا من التوسع العسكري. ففي كثير من الاقاليم ظهرت ميول واتجاهات انفصالية. أما في داخل الدولة فكان من أهم القلاقل التي اصابت الدولة ظهور الخصومات والنزاعات الدينية. فمهد البداية

ظهرت الحركة الخارجية في مركز الدولة ولكن بفضل جهود الحجاج بن يوسف الثقفي استطاعت الدولة القضاء على الخوارج ولكن هذا لم يكن يعني القضاء التام على الحركة إذ أنها ظهرت ونجحت في المشرق ولي المغرب.

وعلى أواخر أيام الأمويين بدأ الخوارج يشيرون الاضطراب من جديد في مركز الدولة ملتهمين ضعف الحكومة . ففي سنة ١٢٧هـ/٧٤٥م، حشد الخوارج قواهم في منطقة الكوفة برئاسة ضحاك بن قيس الشيباني وكذلك فعل الخوارج الإباضية في جزيرة العرب فجمعوا قواهم برئاسة أبو حمزة الخارجي [١].

الي جانب المذهب الخارجي كان الشيعة مصدر قلق أيضا للدولة خاصة في العراق فقد استدعوا أحد أحفاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو زيد بن علي زين العابدين وذلك علي أيام خلافة هشام بن عبد الملك وأعلنوا إمامته . وباءت جهود الخلافة في دمشق بالفشل حوالي العام في القضاء علي ثورة العراق . ولكن أنتهي الأمر بالقضاء علي بعض المتأمرين، وعرف مكان زيد وتتبعته قوات الخلافة وتمكنوا من رمية بسهم فأصاب جانب جبهته اليسري فثبت في دماغه

(١) انظر ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق عبد الوهاب النجار، طبعة مصر، سنة ١٣٥٧هـ، ج ٤، أحداث سنة ١٢٧هـ، ص ٢٨٩.
ذكر خروج الضحاك محققا أحداث سنة ١٢٨هـ ص ٢٩٥ - ٢٩٦. ذكر قتل الضحاك الخارجي ص ٢٩٧. ذكر خبر أبي حمزة الخارجي مع طالب الحق.

ومات زيد في صفر من سنة ١٢٢هـ / يناير ٧٤٠م.

وبذلك خضبت يدي بني أمية من جديد بدم حفدة الرسول صلي الله عليه وسلم. بل ولم يحترموا جثمان زيد وكان اتباعه قد دفنوه في ساقية وأجروا عليه الماء خوفا من التمثيل به، ولكن القبر نبش واستخرج منه وقطع رأسه وملب ثم امر به لحرق بالنار [١].

والي جانب النزاعات الدينية هذه كانت العصومات والنزاعات بين القبائل العربية نقطة من نقاط الضعف التي أدت الي انهيار الدولة دولة الأمويين ومن النزاعات بين هذه القبائل العربية ذلك النزاع الذي حدث في سنة ٦٥هـ / ٦٨٤م بين اليمنية والقيسية "المضرية" والذي انتهى بانتصار اليمنية في وقعة "مرج راهط". وعمل هذا النصر علي زيادة اشتعال نار الفرقة بين العصبيتين المتناهضتين، وكلن علي الخليفة الأموي أن يسوس كل من الفريقين أو أن يقف الي جانب احدهما حسب الحال.

وكان أعظم عمال الوليد بن عبد الملك هم: الحجاج بن يوسف الثقفي، وقتيبة بن مسلم الباهلي، فاتح ماوراء النهر وهما من العصبية القيسية. وكان هذا يعني ان الخليفة الوليد بن عبد الملك

(١) ابن الأثير، ج ٤، ص ٢٤٠-٢٤٣. أحداث سنة ١٢٢هـ (ذكر ظهور زيد بن علي بن الحسين أحداث سنة ٢٢هـ، ص ٢٤٥-٢٤٨) (ذكر مقتل زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب).

كان يتبع سياسة موالاه القيسية، وعندما خلفه سليمان نهج سياسة مضادة لهذه السياسة فحايي اليمنية وعلي رأسهم يزيد بن المهلب بن ابي صفرة وعصبيته.

وعندما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز حاول أن يقوم الموقف وان يتبع سياسة محايدة تهدف الي التوفيق بين العصبين ولكن سياسته هذه لم تطل لأمد طويل اذ أنه سرعان ما اعتمد يزيد بن عبد الملك اعتمادا كليا علي القيسية ثم ان هشام بن عبد الملك ذهب الي عكس هذه السياسة ثم عاد اليها ونتج عن ذلك ان اليمنية ثأروا لأنفسهم من الخليفة الوليد الثاني فتأمروا علي خلعه وكانت هذه الثورة سببا في عزله بلاد الشام جميعا.

والي جانب العصبية القبلية نذكر حدثا له مفزاة وهنا الحدث يتمثل في هجرة خلفاء الامويين بعيدا عن دمشق وسكناهم الصحراء ويشبه بعض الكتاب هذا الحدث بالانفصال الروحي بين الامويين. وبين عصبيتهم من اهل الشام. فقد شعر اخر خلفاء الامويين بعدم اطمئنانهم في بلاد الشام وفي حاضرتهم دمشق فخرجوا الي البادية وكان أول من فعل ذلك هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذي كان يقيم في بادية الاردن.

ومن أهم القصور الصحراوية التي بناها الامويين قصر "الرمالة" في بادية الشام.

وقد استمر الأمويون في سكني الصحراء . ويعدد الاثريون بقايا خمسة وثلاثين قصرا من هذه القصور . وكان الخليفة يتمتع في قصوره الصحراوية هذه برياسة الصيد . كما يعتبر العصر الأموي عصر نهضة بالنسبة للشعر العربي، واشتهر كثير من أمراء الأمويين بقول الشعر كما أنهم احاطوا أنفسهم بالشعراء . وشاعر الأمويين كما نعرف هو الشاعر النصراني الاخطل والي جانب ازدهار الادب والشعر لم تحظ العلوم والفلسفة الا بحظ ضئيل من عناية أمراء الأمويين . ولكن ينبغي الإشارة الي أن بداية الجدل في الفلسفة الاسلامية ظهر في هذه الفترة وبدأ الكلام في مسألة القضاء والقدر وظهور الفرق التي عرفت باسم القدرية والتي ستكون نواة للفرقة المتكلمين المعروفة باسم المعتزلة .

وحاول هشام بن عبد الملك أن يوقف تضخم هذه الفرقة، وسار علي نفس السياسة الوليد الثاني الذي راح ضحية معارضة القدرية الذين ناصروا اعداءه من اليممية واقاموا الغيلة يزيد الثالث . ولكن هذا الاختيار لم يرض جميع الناس فسرت الاضطرابات في كل ارجاء الشام، كما ظهر للغيلة الجديد منافسون في العراق وتولي يزيد بعد فترة قصيرة لم تزدد علي خمسة أشهر، وعجز اخوه ابراهيم عن تقويم الموقف، وتمكن منافس الغيلة في العراق، مروان بن محمد، من التقدم نحو الشام واستطاع أن يكسب القيسية إلي حاسه، وفي صفر عام ١٢٧هـ / ٧٤٥م استطاع أن يستولي علي دمشق .

مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين

وهكذا تمكن مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن ابي العاص بن أمية القرشي الأموي من انتزاع الخلافة من ابناء عمومته . وكان يلقب الحمار لمبوه في الحروب .

والظاهر ان مروان كان يعن الي العراق وعلي ذلك فهو ينقل مقر الحكم الي حران [١] في أرض الجزيرة . وكان هذا يعني الانفصال النهائي بين الأمويين وبين أهل الشام .

ونشبت الثورات في كل مكان واضطر مروان أن يهدم تحصينات بعض المدن الكبرى في بلاد الشام وذلك لكي يخضعها ، وسرت الثورات وليس في الشام فقط بل في العراق والحجاز أيضا .

واستطاع مروان أن يقضي علي الثورة التي قام بها سليمان بن هشام بن عبد الملك الذي فر الي حمص ثم الي الكوفة ، واضطر مروان الي هدم أسوار حمص [٢] واتبع ذلك بالقضاء علي تحصينات دمشق وبيت المقدس وغيرها من مدن الشام .

(١) عن انتقال مروان إلي حران انظر ابن الأثير الكامل ج ٤ ص ٢٨٦ .
(٢) انظر ابن الأثير ج ٤ ص ٢٨٦ (نظر انتقام أهل حمص) ذكر خلاف أهل الغوطة ص ٢٨١ (نظر خلاف أهل فلسطين) ص ٢٨٧ وما بعدها (نظر خلع سليمان بن هشام بن عبد الملك مروان بن محمد) .

وكان مروان بعد ذلك أن يقضي علي القلائل والاضطرابات
التي اثارها الخوارج في العراق وفي بلاد العرب. إذ يفهم من
الروايات ان الضحاك ابن قيس الشيباني الخارجي اغتتم فرمة انقسام
الشيعة بعد مقتل الوليد بن يزيد، ثم بعد أن عزل مروان عبد
الله بن عمر عبد العزيز عامل العراق وولي مكانه النضر بن سعيد
البحراني، فلم يسلم ابن عمر اليه العمل واعتصم بالحيرة، عندئذ انتهز
ذلك واقبل الي الكوفة في سنة ١٢٧هـ/٧٤٥م. وزادت
يسوعه. الحقوا الهزيمة بالامويين ثم تقدم الضحاك بعد ذلك الي
الهودل واستولي عليها وكورها ومنها اتجه الي نصيبين وكان معه
"مايزيد علي مائة الف" وهزم جيشا امويا بقيادة عبدالله بن مروان
بن محمد. ثم أن مروان سار اليه وتمكن من الحاق الهزيمة به
والقضاء عليه عند ماردين وذلك في سنة ١٢٨هـ [١].

وقام أبو حمزة الخارجي [المختار بن عوف الازدي السلمي
البصري] في جزيرة العرب. وكان كما تقول الرواية من الخوارج
الاباضية، وكان يفد في كل سنة الي مكة يدعو الناس الي خلاف
مروان بن محمد. ثم تحالف مع عبد الله بن يحيى المعروف بطالب
العلق في أواخر سنة ١٢٨هـ/٧٤٥م وخرج معه الي حضرموت حيث
بايعه علي الخلافة. وفي السنة التالية ١٢٩هـ/٧٤٦م خرج أبو
حمزة الي مكة والمدينة وتمكن من الحاق الهزيمة بالحامية الأموية،
ودخل المدينة وأقام بها ثلاثة اشهر ثم سار نحو الشام. ولكن
مروان انتخب من عسكره جماعة جدوا المسير اليه وتمكنوا من الحاق

(١) انظر ابن الأثير، الكامل ج ٤، أحداث سنة ١٢٨هـ، ص ٢٩٥-٢٩٦ (ذكر
مقتل الضحاك الخارجي).

الهزيمة والقضاء عليه في وادي القري . ثم سار عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي، وقائد مروان، الي المدينة ومنها الي اليمن حيث قاتل عبد الله بن يحيى طالب الحق وقتله وحمل رأسه الي مروان بالشام [١] .

وقبل هذا الوقت ثار الشيعة في الكوفة في سنة ١٢٧هـ وأقاموا عبدالله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر أماما لهم . ولكن والي العراق الأموي عبد الله بن عمر بن عبد العزيز تمكن من هزيمتهم . وسار المطالب بالخلافة الي فارس وتغلب عليها في سنة ١٢٩هـ / ٧٤٦م، وكثرت جموعه، وأقام باصفهان ثم اصطخر، ومد نفوذه علي ولايات خورستان وفارس وكرمان وهاجم والي العراق عبد الله بن معاوية لايوانه الخوارج الذين هزمهم مما اضطر ابن معاوية الي الهرب الي خراسان حيث قتله ابي مسلم لأنه كان يشكل خطراً عليه [٢] .

وهكذا ظهر مروان بن محمد بمظهر الرجل النشيط الكفؤ الجدير القادر علي تقويم الموقف وإقرار الأمور وتهديتها في الدولة . ولكن الخطر علي الدولة كان يكمن في الشرق في بلاد خراسان .

(١) انظر ابن الأثير : الكامل ج ٤ ، ص ٢٩٧ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ص ٣١٤ - ٣١٦ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ، ص ٢٨٤ - ٢٨٥ ، ص ٣٠٦ - ٣٠٧ .

الفصل الثالث

الدعوة الشيعية العباسية

الدعوة الشيعية العباسية

أحوال خراسان في أواخر العصر الأموي:

بدأت الولايات الإيرانية، في الخروج علي سلطان الخلافة، في بلاد الشام منذ عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، وذلك عندما ظهرت مشكلة الدخول في الاسلام ودفع الجزية . فكما يفهم من الروايات كان من سياسة عمر بن عبد العزيز رفع الجزية عن أسلم، ونجح عماله في نشر الاسلام . ولكن نقص الموارد المالية دفع الدولة الي اتخاذ اجراءات شديدة كانت ترمي الي اثبات الدخول في الاسلام ثبوتاً قاطعاً، كما أنها لم تحف الكثيرين من الداخلين في الاسلام من دفع الجزية وبصفة خاصة علي عهد والي خراسان هشام بن عبد الملك اشرس بن عبد الله السلمي [١٠٩-١١١هـ / ٧٢٧-٧٢٨م] (١).

(١) انظر عن ولاية اشرس، ابن الاشيرة الكامل ج ٤ ص ٦٠٠
ص ٦٠٦-٦٠٣ هـ ٦٠٦ هـ ٦١٨-٦١٩ هـ حيث يقول النعم (احداث سنة ١١٠هـ): في هذه السنة ارسل اشرس الي اهل سمرقند وماوراء النهر يدموهم الي الاسلام علي ان توضع عنهم الجزية وارسل في ذلك ابا الصيذاء صالح بن طريف مولي بني ضبة والربيع بن عمران التميمي فقال ابو الصيذاء: انها اخرج شريطة ان من اسلم لاحق خدمته الجزية وانها خراج خراسان علي رؤوس الرجال.

في ظل هذه الظروف كانت الفرصة مواتية للقيام بحركة مناهضة
للامويين رغم ان رواية الطبري تذكر ان الدعوة الشيعية العباسية
بدأت في خراسان منذ ايام خلافة عمر بن عبد العزيز في سنة مائة
للهجرة [١] .

= فقال اشرس : نعم .. فمخض الي سمرقند وعليها الحسن بن
العمر طه الكندي علي حربها واخراجها فهدما ابو الصيدا اهل سمرقند
ومن حولها الي الاسلام علي ان توضع عنهم الجزية لمسارع الناس
لمكتب الي اشرس ان الخراج قد انقصره لمكتب اشرس الي ابن العمر
طه ان في الخراج قوة للمسلمين وقد بلغني ان اهل الصغد واشباههم
لم يسلموا رغبة انما اسلموا شعوبا من الجزية فانظر من الخسعين واقام
الفرائض وحسن السلامة وقرا سورة من القرآن فارفع خراجهم ثم مزل
اشرس ابن العمر طه عن الخراج وصيره الي هاني بن هاني لمينهم ابو
الصيدا من اخذ الجزية ممن اسلم لمكتب هاني الي اشرس: ان الناس
قد اسلموا وبنوا المساجد لمكتب اشرس اليه والي العمال خذوا الخراج
ممن كنتم تخذونه منه فامادوا الجزية علي من اسلم.

(١) انظر الطبري، تاريخ الرسل والملوك، طبعة دار المعارف
مصر (مجموعة ذخائر العرب) ج ٧ احداث سنة ١٠٠ هـ، ابن الاثير
الكمال، ج ٤ ص ١٥٩ (ذكر ابتداء الدعوة العباسية).

ولكن هناك رواية اخري للطبري نعرف منها أن أول من لبس السواد في خراسان - ودعا الي كتاب الله وسنه نبيه والبيعة للرضا" في سنة ١١٦هـ/٧٣٤ هو العارث بن سريج . وقبل العرث عرض والي خراسان عاصم بن عبدالله بن يزيد الهلالي أن يكتب الي هشام يسألانه العمل بكتاب الله وسنه نبيه صلي الله عليه وسلم " فان ابني اجتماعا عليه " وكان رد الخليفة هو خلع عاصم الهلالي وتقليد ولاية خراسان الي اسد بن عبد الله القسري وضمها الي العراق ل"تكون موادها ومعونتها من قريب لتباعد امير المؤمنين وتباطئ غياثه" .

وظل اسد في الولاية من سنة ١١٧هـ حتي سنة ١٢١هـ [٧٣٥-٧٣٨م] (١) ويعودة اسد من جديد عادت سياسة الشدة والقمع فقبض أسد علي جماعة من دعاة بني العباس فقتل بعضهم، ومثل ببعضهم وحبس بعضهم، وواصل القتال ضد العارث بن سريج . وبعد موت اسد ولي خراسان نصر بن سيار الكناني الذي كان يعرف "بشيخ مضر في خراسان" و"علي ايامه عمرت خراسان عمارة لم تهر قبلها وأحسن الولاية والحبابة" (٢) فقد عمل نصر علي رفع الجزية التي كان يدفعها المسلمون الي غير المسلمين (٣) .

والآن نقول: لم يلدج أي امثال، الهداء التقليدي بين، النصبية

(١) ابن الأثير ج ١ ص ٢٣٨ .

(٢) ابن الأثير ج ١ ص ٢٣٩ .

(٣) ابن الأثير ج ١ ص ٢٤٣ .

المضرية والعصبية اليمنية . ولما كان نصر من العصبية المضرية علي
عكس اسد الوالي السابق - فانه حابي المصرية في بداية امرته
وقلدهم الأعمال فالنص يقول:

" فلم يستعمل أربع سنين الا مضريا " [١]

ولكنه عاد وحاول نهج سياسة متزنة حتي يتألف اليمنية . ولكن
اليمنية ثاروا بزعامة الكرمانى [جديع بن علي الازدي] " الذي اظهر
الخلافة للنصر بن سيار " في سنة [١٢٦هـ / ٧٤٤م] . وكان الكرمانى
كما تقول الرواية قد احسن الي نصر في ولاية اسد بن عبد الله
ولكن بعد ان تقلد نصر امرة خراسان " عزل الكرمانى عن الرياسة
وولاهها وغيره " [٢] . ولذلك فقد حدثت جفوة بينهما . وقد اغتتم
الكرمانى الموقف الذى حدث بين نصر ابن سيار وبين خلافة دمشق
بعد قتل الوليد الثانى ونستشف من الرواية ان الكرمانى كان لايتورع
عن سلوك اى السبل من اجل تحقيق اطماعه فالنص يقول: " لو لم
يقدر علي السلطان والملك الا بالنصرانية واليهودية لتنصر
تهود " [٣] وقد قام نصر باعتقال الكرمانى وحبسه ولكن الكرمانى
تمكن من الهرب من الحبس بمساعدة انصاره والتفت حوله الازد .

اما عن العراق فقد عزل الخليفة يزيد بن الوليد من عبد الملك

(١) ابن الاثير ج ٤٤ ص ٦٣٩ .

(٢) ابن الاثير ج ٤٤ ص ٦٧٥ .

(٣) ابن الاثير ج ٤٤ ص ٦٧٥ .

واليها منصور بن جمهور . وكان نصر بن سيار قد امتنع من تسليم عمله اليه من قبل واستعمل عليهم عبد الله بن عمر بن عبد العزيز . وقد أقر ابن عمر نصرًا علي خراسان . فغضب الكراماني لابن جمهور - وكان نصر قد عرض به في خطبته وأعلن خلافه لنصر [١] .

وفي حاضره الخلافة مات يزيد بن الوليد بن عبد الملك [يزيد الثالث] وحدثت فتن وتلاقل في البلاد الي ان خلع الأمر لموران بن محمد [سنة ١٢٧ هـ / ٧٤٤ م] [٢] . فآقر نصر بن سيار علي خراسان وبذلك اضيف عليه صفة الشرعية وأعلن نصر بيعته للخليفة مروان [٣] . ولكن الحارث بن سريج الذي كان قد سبق ان حصل له نصر علي الأمان من الخليفة يزيد بن الوليد، وعاد من بلاد ماوراء النهر - وكان متحالفًا مع الترك الي خراسان حيث استقر من اتباعه في منطقته مرو - رفض مبايعة مروان وخرج علي نصر الذي ارسل اليه " يدعوه الي الجماعة وينهاه عن الفرقة واطماع العدو " [٤] . وطلب الحارث من نصر ان يعمل بكتاب الله وسنة نبيه وان يعزل عماله ويقتل عمالا نزهاء [٥] وتمكن داعيته جهم بن صفوان [رأس الجهمية] من لم الجموع حوله .

(١) ابن الأثير، ج ٤، ص ٢٧٦ .

(٢) انظر خليفة بن خياط تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق سهيل زكار منشورات وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٦٨، ج ٢: ص ٥٧٨ .

(٣) انظر تاريخ خليفة بن خياط، ج ٤، ص ١١٧، ابن الأثير، ج ٤، ص ٢٩٢ .

(٤) ابن الأثير، ج ٤، ص ٢٩٢ .

(٥) ابن الأثير، ج ٤، ص ٢٩٢ .

وفي نفس الوقت كان الكرمانى يدعو الى عزل نصر وتعيين والى
اخر موضعه، فالتقت مصالحهما واتفقا اى الحارث والكرمانى- على حرب
نصر وقد حاقت الهزيمة بالحارث الا ان نصرا اضطر بعد تقدم انصار
الكرمانى الى الانسحاب الى نيسابور، ودخل الكرمانى والحارث مدينة
مرو. ولكن وقع الخلاف بينهما وقتل الكرمانى الحارث في سنة
١٨٠ هـ / ٧٤٦ م وصفت مرو لليمن [١] . الا أن الكرمانى لم يهنا
طويلا بانتصاره، فقد بدأ نصر يجمع قواته لاعادة استخلاص مرو من
منافسة الكرمانى والقضاء عليه.

ولقد كانت كل هذه الظروف في صالح الدعوة الشيعية
العباسية .

الدعوة العباسية:

المعروف ان الدعوة العباسية شيعية الاصل، وأن الدعوة
الشيعية التي قامت باسم ال البيت والتي نادى بأن العلويين هم
"الورثة الطبيعيون لخلافة النبي وجدت في خراسان ارضا صالحة لبلد
بمروها [٢] .

والحقيقة ان عرب الفتوح الاولى الذين توغلوا في خراسان التي

(١) ابن الأثير، ج ١، ص ٢٧٦-٢٩٤ .

(٢) د. سعد زغلول، تاريخ الدولة العربية، طبع بيروت سنة ١٩٧٧ ص ١٦٠ .

تمثل كل الهضبة الايرانية حتي بلاد ماوراء النهر، كانوا منعزلين في هذا المشرق البعيد، مما جعلهم يتميزون عن عرب الامصار الأخرى بصفات خاصة . ولم يكن المتزوجين منهم قد عبروا الجبال التي تحد ايران بل كان غير المتزوجين منهم، هم الذين وصلوا الي هناك في جماعات وتزوجوا من نساء أهل البلاد . ويقدر فلهوون ان الحد الأقصى لعدد هؤلاء كان لايتجاوز المائتي الف رجل أبان الثورة العباسية .

وكان الاندماج تاما بين سكان خراسان حتي يصعب التمييز في كتب التاريخ الا بصعوبة بين العرب الذين انصبغوا بالصبغة الايرانية وبين أهل البلاد الذين دخلوا في الاسلام والذين عرفوا بالموالي وكانوا يحتفظون بذكریات حضارتهم القديمة، وراث الأسرة السابقة . وكا هؤلاء الموالي يشعرون بالمساواة مع العرب بوسري انهم عملوا في القرن التالي علي أيام العباسيين علي اثبات تفوقهم الفكري في كل العلوم التي عرفها العرب .

وكان الخراسانية، منذ العصر الأموي، يحاربون في صفوف الجيش الاسلامي للدفاع عن البلاد ضد الترك، وكان جميع أهل الاقليم يعيشون في وئام: من العرب الفاتحين الي الموالي الذين دخلوا في الاسلام بل وأهل البلاد الذين بقوا علي ذياتهم المزدكية . وعلي أيام زياد بن ابيه بدأ تهجير اعداد كبيرة من شيعة العلويين من مدينتي

العراق الكبيرتين: الكوفة والبصرة، الي منطقة بلخ في اقصى خراسان، علي حدود ما وراء النهر. واستمرت سياسة نفي العناصر العلوية الي الشرق علي ايام الحجاج بن يوسف. وفي نفس الوقت اوقفت هجرة أهل الشام الي المشرق حيث لم يكونوا يشعرون بالا من هناك. ولأشك أن العلويين وشيعتهم وجدوا في الاقاليم الايرانية ارضا مالحة لنشر افكارهم عن الإمام المنتظر، وهو المهدي وذلك ان الموالي من الفرس كانوا لا يزالون يشعرون بالحاجة الي حاكم مطلق يمتلك من الصفات ما هو فوق مستوى البشر بحيث يكون له التحكم في توزيع الارزاق فهو الذي ينشر السعادة بين الناس أوالتعاسة، وعن طريقه يكون انتشار العصب في الأرض أوالتحط.

وكانت العلاقات الوثيقة بين خراسان من جهة وبين البصرة والكوفة وهما مركز الاضطراب العلوي من جهة اخري سببا في أن اعتنق كل أهل ايران الآراء المعادلة للدولة العربية التي كان الأمويون يحاولون تنظيمها واقرار تراتيبها، والتي رغم تحولها الي ملكية وراثية فانها ظلت محافظة علي طابعها العربي او البدوي. وهكذا شعر أهل ايران بأنهم أكثر تعلقا بالمذهب العلوي الذي يطالب بأن يكون الأمر في الدولة الاسلامية لال البيت من العلويين والذي خلج علي افراد الأسرة العلوية، شيئا فشيئا صفات فوق مستوى البشر.

كل هذا يفسر النجاح الذي مآدفته الدعاية العلوية منذ بدء

تنظيمها في العراق، وارسال دعايتها الي خراسان . ومنذ مطلع القرن
الثاني الهجري كان دعاة الشيعة يظهرون في خراسان، مابين الحين
والحين وبشكل منتظم حسب أوامر الكوفة، ودون أن يعرف لحساب
من يعملون [١] .

(١) انظر، د.د. سعد زغلول، تاريخ الدولة العربية، طبع بيروت سنة ١٩٧٧
ص ١٦٤ - ١٦٥ .

عهد أبي هشام إلى محمد بن علي:

تكاد تجمع المصادر التاريخية علي أن مطالبة العباسيين بالخلافة وادعائهم لها قد أنتقل إليهم من أبي هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية [أحد أبناء علي رضي الله عنه] [١] . فرواية صاحب "أخبار الدولة العباسية" تقول: "وكان تشيع العباسية أصله من قبيل محمد

(١) لقد قالت فرقة الكيسانية من الشيعة بإمامة محمد بن الحنفية، ورجعت أنه لم يبق بعد الحسن والحسين أحد أقرب إلي أمير المؤمنين علي عليه السلام من محمد بن الحنفية لأنه كان صاحب راية أبيه يوم البصرة فهو أولي الناس بالإمامة، كما كان الحسين أولي بها بعد الحسن من ولد الحسن، فمحمد هو الإمام بعد الحسين وقالوا أن محمد بن الحنفية هو الإمام البهدي، ولما مات بالمدينة في المحرم سنة ٨١ هـ قالوا أنه لم يمت وأنه مقيم بجهال رضوي - بين مكة بالمدينة وأنه الإمام المنتظر الذي بشر به النبي صلى الله عليه وسلم وأنه الذي سيملأ الأرض عدلاً وقسطاً هذا ولو أن هناك فرقة أخرى قالت أن محمد بن الحنفية مات وأن الإمام بعده ابنه عبدالله وكان يكنى أبا هاشم. انظر: النوبختي، فرق الشيعة، طبع المطبعة الحيدرية النجف سنة ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م، ص ٦٣، ص ٦٦، ٣٠.

بن الحنفية والي ذلك دعا ابو مسلم^{١٠٠} [٩] وتذكر أيضا أن محمدا بن علي أخذ العلم علي يدي ابي هاشم وكان محمد يبجله ويجله فكان اذا قام ابو هاشم يركب اخذ له الركاب^{١٠١} فلما مرض ابي هاشم مرضه الذي مات فيه وكان بارض الشراة من بلاد الشام وذلك عند قفوله من لقاء سليمان بدمشق عدل الي محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وكان بالحميمة، وعهد له بحقوقه في الامامة في سنة ٩٨ هـ / ٧١٧م [٢٠] والتي اليه بأسراره وقال له: أوصيك بتقوي الله فانها خير ماتواصي بها العباد ومن بعد ذلك فان هذا الأمر الذي نطلبه ونسعي فيه وطلبه اخرون وسعوا فيه فيك وفي ولدك [٣٠].

هذا مات قوله الرواية العباسية، أما الشيعة فانهم قالوا: ان ابا هاشم أوصي إلي عبدالله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن ابي طالب وهو الذي نادي به الشيعة في الكوفة اماما علي عهد مروان بن محمد، وبعد انهزامه امام المروانية اتجه الي فارس واصفهان واصطخر، وانتهى الأمر بمقتله علي يدي الناعية العباسي ابي مسلم الخراساني كما سبق القول.

(١) انظر مؤلف مجهول، أخبار الدولة العباسية، وفيه أخبار العباس وولده، تحقيق الدكتور عبد العزيز الدوري، الدكتور عبد الجبار المطليبي دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧١، ص ١٦٥ (أخبار الامامة) حيث يقول النص: قالت الكيسانية بامامة محمد بن علي، ونكروا ان ابا اوصي اليه والكيسانية منسوبون الي المظتار بن ابي عبيد، وكان يلقب بكيسان، وهو أول من قال بامامة محمد بن علي، وبها كان يقول علي بن عبدالله وولده الي ايام المهدي.

(٢) مؤلف مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص ١٨٥.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ١٨٦.

١٠- تقسيم الدعوة :

يعتبر محمد بن علي العباسي أول منظم الدعوة العباسية السرية أما ابنه إبراهيم الإمام فكان المفجر لهذه الدعوة حيث نقلها من دعوة سرية إلى علنية ولكنه لم يحن ثمار عمله حيث قتل قبل أن يحقق العباسيون الانتصار فكان أبو العباس عبد الله بن محمد العباسي أول خليفة لبني العباس .

ويمكن تقسيم الأدوار التي مرت بها الدعوة الي :

١- الدور السري التحضيري ويبدأ من سنة ٩٧هـ / أو سنة ١٠٠هـ علي اختلاف الروايات التاريخية وكان مقر الدعوة الحميمة ونشاطها في الكوفة ثم مرو . ولم تكن تنظيماً قد تبلورت لمي بادئ الأمر وجابهت انتكاست قوية هزتها مثل حركة خدش والقبض علي بعض الدعاة العباسيين .

٢- الدور العلني الثوري ويبدأ بإرسال الإمام إبراهيم أبا مسلم الخراساني الي مرو سنة ١٢٨هـ / ٧٤٥-٧٤٦ حيث أعلن الثورة ضد الأمويين سنة ١٢٩هـ بعد أن اختصرت الحركة السرية العباسية . وينتهي هذا الدور بإعلان أبا العباس عبد الله نفسه خليفة في مسجد الكوفة سنة ١٣٢هـ / ٧٤٩ وعند ذلك أعادت

الحركة السرية عن مبعثها العباسية [١] .

ويلهم من النصوص أنه عندما آلت مقاليد قيادة الحركة الهاشمية [نسبة الي ابي هاشم] الي محمد بن علي العباسي . الامام الجديد - بدأت مرحلة اكثر تنظيما من سابقتها فتعرف علي حامة ابي هاشم [٢] . عرفه عليهم سلمة بن بجير بطلب منه أن يثبت اسماءهم، ليعرفهم ويستظهر بهم علي أمره [٣] ، فكتب محمد بن علي العباسي فيهم سجلا . ومن هؤلاء كما تنص الرواية : سالم بن بجير - حفص بن سليمان وهو ابو سلمة الخلال حفص الاسير - ميسرة الرجال - موسي بن سريج السراج، زياد بن درهم الهمداني، معن بن يزيد الهمداني، المنذر بن سعيد الهمداني [٤] .

وكما تذكر الرواية فإن الاتباع الاوائل كانوا ينتمون الي قبيلة بني مسلمية ومواليها وكذلك من قبيلة همدان [أي من اليمنية] وقال لهم الامام امسكوا عن الجد في امركم حتي يهلك أشج بني امية [عمر بن عبد العزيز] ولا تكثروا من أهل الكوفة، ولا تقبلوا منهم الا أهل البيات الصحيحة [٥] .

(١) انظر، د. فاروق ممر، طبيعة الدعوة العباسية ١٩٨ هـ / ٧١٦ م، ١٣٢ هـ /

٧٤٩ م، دراسة تحليلية لواجهات الثورة العباسية وتفسيراتها طبع دار

الارشاد، بيروت، طبعة ١٩٧٠، ص ١٥٣ .

(٢) انظر، اخبار الدولة العباسية، ص ١٨٨ - ١٩٠ .

(٣) نفس المصدر، ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٤) اخبار الدولة العباسية، ص ١٩١ - ٢٩٢ .

(٥) نفس المصدر السابق، ص ١٩٣ - ١٩٤ .

وكان لا يعرف محمد بن علي بنسبة واسمه إلا شيعة الكوفة وهم
منه الي ثلاثين رجلا، فاذا سئلوا عن اسمه قالوا: امرنا بكتمان اسمه
حتى يظهر [١] وكانت دعوتهم الي الرضا من آل محمد [٢] .

ثم قرر الامام عملا بنصيحة كبار ثقة نقل مركز النشاط
للدعوى الي خراسان مع الاحتفاظ بالكوفة نقطة ارتباط بين مروخراسان
والحمية مفر الامام [٣] .

وأرسل الامام ابا عكرمة زياد بن درهم السراج الي خراسان
وطلب منه السير علي نهج بكير بن ماهان في تأليف الاتباع، واوصاه
بقوله: وان دعوت احدا من العامة فلتكن دعوتك الي الرضا من آل
محمد، فاذا وثقت الرجل في عقله وبصيرته فاشرح له امركم، وقل
بحجتك التي لا يعقلها الا اولو الالباب، وليكن اسمي مستورا عن كل
احد الا عن رجل عدلك في نفسك في ثقتك به، وقد وكدت عليه
وتوثقت منه واخذ بيعته وتقدم بمثل ذلك الي من توجه من رسلك،
فان سللتم عن اسمي فقولوا نحن في تقية وقد امرنا بكتمان اسم
امامنا . واذا قدمت مرو فأحلل في أهل اليمن وتألف ربيعه، وتوق
مضرا وخد بعصيبك من ثقاتهم واستكثر من الاعاجم، فانهم أهل
دعوتنا وبهم يؤيدها الله [٤] .

(١) اخبار الدولة العباسية، ص ١٩٤ .

(٢) نفس المصدر، ص ١٩٤ .

(٣) انظر، د. فاروق عمر، طبيعة الدعوة العباسية، ص ١٩٧ .

(٤) اخبار الدولة العباسية، ص ٢٠٤ .

هذا ولقد كان اختيار محمد بن علي العباسي لخراسان كمقر للدعوة موافقا لأنها تنفرد بموقف خاص، دون غيرها من امصار الدولة العربية الاسلامية . يتضح ذلك من وصيته لاتباعه من رجال حين تباينت الآراء حول المكان المناسب للدعوة .

"اما الكوفة وسوادها فهناك شيعة علي وولده، واما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكف وتقول كن عبد الله المقتول ولا تكن عبدالله القاتل واما الجزيرة فحرورية مارقة واعراب كاعلاج ومسلمون في اخلاق النصارى واما اهل الشام فليس يعرفون الا ال ابي سفيان ومطاعة بني مروان وعداوة لنا راسخة . . . واما اهل مكة والمدينة فقد غلب عليهم ابو بكر وعمر، ولكن عليكم بخراسان فان هناك العدد الكثير والجلد الطاهر، وهناك صدور سالمة وقلوب فارغة لم تقسمها الاهواء ولم تتوزعها النحل ولم تشغلها ديانة، ولم يقدح فيها فساد، وليست لهم اليوم همم العرب ولا فيهم كتحارب الاتباع للسادات وكتحالف القبائل وعصبية العشائر وبعد فكانني اتفاهل الي المشرق والي مطلع سراج الدنيا ومصباح هذا الخلق" [١] .

ونظم بكير بن ماهان - الذي قال عنه الامام: اسمعوا منه واطيعوا واهموا هولساني اليكم وأميني فيكم فلا تخالفوه ولا تحضوا الأمور الا برأيه وقد اثرتكم به علي نفسي لثقتي به في النصيحة

لكم واجتهاده في اظهار نور الله فيكم [١] ادبائه السبعين فقسمهم
الي اثنا عشر نقيبا يرأسهم سليمان بن كثير الخزاعي وذلك سنة
١١٨هـ. وأكد علي وجوب مناصحته أمامهم في السر والعلانية، إلا
يطلعوا علي أمرهم احد فخابوا ناحيته ولم يثقوا به [٢].

والنقباء الاثنا عشر هم:

- ١- ابو نصر مالك بن الهيثم
 - ٢- ابو محمد سليمان بن كثير الخزاعي شهم الاسلمي
 - ٣- ابو منصور طلحة بن زريق مولي طلحة الطلحات
 - ٤- زياد بن صالح (مولي خزاعة)
 - ٥- موسي بن كعب (ابو عيينة)
 - ٦- عيسى بن كعب
 - ٧- لاهز بن قريظة
 - ٨- ابو سهل بن مجاشع
 - ٩- ابو عبد الحميد قحطبة بن شبيب الطائي
 - ١٠- ابو داود خالد بن ابراهيم الذهلي
 - ١١- اسلم بن سلام
 - ١٢- ابو علي شبل بن طهمان
- ١٣- سد

وفكرة النقباء الاثني عشر- ونلاحظ أن اكثريتهم كانوا عربا -
والدعاة السبعين فيها اقتناء بنقباء بني اسرائيل وبنقباء الرسول

(١) اخبار الدولة العباسية ص ٢١٣.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٢٣.

صلي الله عليه وسلم بعد بيعة العقبة فالتص يقول "بسم الله الرحمن الرحيم" ان السنة في الأولين والمثل في الآخرين، وان الله يقول "واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا"، ثم قال في آية اخري: "وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا" وان رسول الله صلي الله عليه وسلم وافاه ليلة العقبة سبعون رجلا من الاوس والخزرج فبايعوه فجعل منهم اثني عشر نقيبا [١] .

وهناك [نظراء النقباء] [٢] وقد روي ان عددهم أحد وعشرون [٣] وهناك الدعوة ودعاة الدعوة [٤] .

وفيه من الرواية أن اهل الدعوة وشيعة الامام كانوا يرسلون اليه الاموال والحلي حتي يتقوي بها في "احياء الحق وامانة الباطل" [٥] .

موت محمد بن علي وولاية ابنه ابراهيم الامامة:

اعلان الثورة:

مات محمد بن علي العباسي في سنة ١٢٥ هـ بالشرقة من أرض الشام وكان قد أوصي لابنه ابراهيم بالامامة من بعده اذا قال لغامته:

(١) اخبار الدولة العباسية ص ٢١٤-٢١٥ .

(٢) نفس المصدر، ص ٢١٩-٢٢٠ .

(٣) اخبار الدولة العباسية ص ٢٢٠ .

(٤) اخبار الدولة العباسية، ص ٢٢١-٢٢٣ .

(٥) انظر، اخبار الدولة العباسية ص ٢٢٣-٢٢٤، ص ٢٣٧ .

فلکم فيه خلف صدق مني كما أوصي بکیر بن ماهان بأن يعهد برياسة
الدعوة في الکوفة الي ابي سلمة حفص بن سليمان الخلال .

وتنسب الرواية الي ابراهيم أنه قام باتخاذ السواد شعارا
العباسيين وذلك لأن راية الرسول صلي الله عليه وسلم كانت سوداء
كانت راية علي ابن ابي طالب سوداء وهو اختيار يتلق مع ما
تورده الملاحم والنبؤات علي ان لون الرايات المقبلة من الشرق
للغضاء علي ظلم الامويين وانها دولتهم [١] .

ومن هنا سميت الدولة العباسية بدولة المسودة .

وامر ابراهيم بکیر ماهان بالمضي الي نراسان وان يأمر الشيعة
بتسويد الثياب والرايات، وكتب معه كتابا الي الشيعة . نعي اليهم
فيه أباه ووعظهم [٢] ، فبايع الجميع الامام الجديد [٣] ، ثم قفل بکیر
وبرفقته بعض الشيعة العيسية الذين التقوا بالامام ابراهيم وتعرفوا
عليه وطلبوا منه التعجيل بالثورة وقالوا له : "حتي متي تأكل الطير
لحم أهل بيتك وتسفك دماءهم تركنا زيدا مصلوبا بالكناسة وابنه

(١) اخبار الدولة العباسية ص ١٩٩ .

(٢) اخبار الدولة العباسية ص ٤٤٥ ، ٤٤٠ .

(٣) اخبار الدولة العباسية، ص ٤٤٠ .

بظردا في البلاد وقد شملكم الخوف وطالت عليكم مدة اهل بيت
السوء. [١].

ظهور ابو مسلم في خراسان:

قرر الامام ابراهيم في سنة ١٢٨هـ [٢] اختيار مولا ابا مسلم
الخراساني وذلك بعد أن عرض الأمر علي سليمان بن كثير وعلي
قحطبة فرفضوا ليمثله في خراسان. وكتب معه الي شيعته كتابا قال
فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم صدق وعد الله لاوليائه وحقت كلمة
الله علي اعدائه ولاتبديل لكلمات الله، ولن يخلف الله الميعاد. أن
تستفتحوا فقد جاءكم الفتح، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد
لله رب العالمين اما بعد فقد وجهت اليكم مجد الدهر عبد الرحمن
بن مسلم مولاي فالتقوا اليه ازمة اموركم، وحملوه أعباء الوزر لها
والصدر في محاربة عدوكم وعاهدوا الله علي الطاعة وكونوا بحبله
مستصمين. وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم
في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكن لهم دينهم الذي
ارتضى لهم وليبدلهم من بعد خوفهم امنا، يعبدوني لا يشركون بي
شيئا، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون".

(١) الخبار الدولة العباسية، ص ٢٤١.

وكان تعرف ابي مسلم للمرة الاولى علي الدعوة العباسية حينما التقى ببعض النقباء العباسيين الذين زاروا بعض العجليين في سجن الكوفة وهم في طريقهم الي اداء فريضة الحج، وكان ابو مسلم يخدم هؤلاء العجليين [من بني معقل] في السجن، فتوسموا فيه نجابة وعقل وأدب فضموه الي دعوتهم وامطحبوه معهم الي ابراهيم الامام بعد ان استأذن مولاه عيس بن ابراهيم السراج [١] واعجب الامام اخلاقه ومنطقه ورأيه وعقله [٢] وغير اسمه الي عبد الرحمن وكناه بأبي مسلم وظل في خدمته يستعمله في حمل رسائله الي الكوفة وخراسان حتي سنة ١٢٨ هـ حين اشخصه الي خراسان.

وكان ابو مسلم علي معرفة بأحوال خراسان - التي كانت الفتنة قد طالت فيها بين نصر بن سيار وعطي بن الكرمانى ومن كان بها من العرب حتي أضجر ذلك كثير من أصحابهما وجعلت نفوسهم تطلع الي غير ما هم فيه والي امر يجمعهم فتحركت الدعوة يدعوا اليماني من الشيعة اليماني والربيعي الربيعي، والمضري المضري حتي كثر من استجار وكفوا بذلك عن القتال في العصبية [٣] حيث اختلف اليها قبل ذلك بأمر من الامام ابراهيم وكانت احداها مع ابي سلمة الخلال الذي التقى بالشيعة وقال لهم قد حضر امركم فأعدوا واستعدوا [٤]

(١) اخبار الدولة العباسية، ص ٢٧١.

(٢) اخبار الدولة العباسية، ص ٢٥٤-٢٥٥.

(٣) اخبار الدولة العباسية، ص ٢٥٦.

(٤) اخبار الدولة العباسية، ص ٢٤٨.

كما تقول رواية صاحب اخبار الدولة العباسية علي لسان ابي مسلم "امرني الامام أن انزل في أهل اليمن وأتألف ربيعه، ولا أدع نصيبي من صالحه مضر واحذر اكثرهم من اتباع بني امية واجمع الي العجم واختصهم" [٨] .

ووصية ابراهيم الامام لابي مسلم تتلخص في الاعتماد علي قبائل العرب من اليمنية في خراسان، وكان هؤلاء يمثلون علي أواخر أيام الامويين حزب المعارضة لعرب الدولة، وأن يتألف ربيعه ويحذر ويشك في العرب من المضرية وهم عصبية والي خراسان، نصر بن سيار - إلا ما صلح منهم .

والحقيقة أن انقسام العرب علي أنفسهم في خراسان كان السبب في نجاح ابي مسلم فائتاء الصراع بين نصر بن سيار المضري والكرماني اليمني انضم ابو مسلم الي الكرمانى، وعندما حذر نصر زعيم اليمنية الكرمانى من خطورة الناعية العباسى وطلب اليه الاتفاق ووافق الكرمانى كان جزاؤه ان قتله نصر [٩] .

اعلان الثورة

لما نشأ خبر ابي مسلم اقبلت الشيعة من كل ناحية وقدم

(١) نفس المصدر، ص ٢٦٧ .

(٢) نفس المصدر، ص ٢٨٥ .

الدعاة بمن وافقهم من اخوانهم، وتكاثر عددهم يوما بعد يوم [١] وكان ابو مسلم قد نزل في منطقة مرو، لانها اصلح مكان لاعلان الثورة ومن هناك اخذ يرسل النقباء الي مختلف الاقاليم في طخارستان ومرو الروذ والطارقان وخوارزم، وحدد ابو مسلم شهر رمضان لاطهار الدعوة، ولكنه ترك للنقباء حرية التصرف فمن اعجله العدو منهم دون الوقت بالاذي والمكروه، فقد حل لهم ان يدفعوا عن انفسهم ويجردوا السيوف "وكذلك من شغله منهم عدوهم عن الوقت فلا حرج عليهم ان يظهروا بعد الوقت" [٢] .

وترك ابو مسلم مكانه في فنين ونزل في قرية سفيلنج وبث دعاية في الناس واظهر أمره [٣] فصارعت الاعاجم ، وكثير من اهل اليمن وربيعة الي الدعوة من بين متدين بذلك او طالب بدخل [ثأره] او موتور يرجو أن يدرك بها ثأرا، واتاه عدة من ذوي البصائر من مضر [٤] .

وتقول الرواية ان ابا مسلم بعث الي نصر وفدا . . . وكتب معهم الي نصر كتابا يدعوه فيه الي الطاعة والدخول فيما دخل فيه اهل الدعوة ويعلمه ان هذه الرايات السود التي اظهرها هي التي لم يزل يسمع بها ويحطره من أن يكون من سرعائها [٥] .

(١) انظر، تاريخ خليفة بن خياط، ج ٢، ص ٥٩٠ (احداث سنة ٣٠هـ ابن

الاشيرة الكامل ج ٧ ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .

(٢) اخبار الدولة العباسية، ص ٢٧٧ .

(٣) انظر، ابن الاشيرة، الكامل ج ٤، ص ٣٠٠ .

(٤) نفس المصدر، ص ٣٠٠ .

(٥) اخبار الدولة العباسية، ص ٢٨٥ .

واستعمل نصر ضد شيعة العباسيين دعاية دينية قوية حيث قال
هذه المسودة وهي تدعو الي غير ملتنا، وقد اظهروا غير سنتنا
وليسوا من اهل قبلتنا، يعبدون السنانير، ويعبدون الرؤوس علوج
واغنام وعبيد وسقاط العرب والموالي [١] .

وأجابه الناس وظاهروه علي حرب ابي مسلم وكتب نصر الي ابن
هبيرة والي العراق يستمده فلما استنبط به الامور، كتب الي مروان
العمار يشكو له ابن هبيرة ويخبره بعظم الامر من قبل ابي مسلم،
وكتب اليه .

أرى خلل الرماد وبيض نار	ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعودين تذكي	وإن الحرب يبدوها الكلام
فقلت من التعجب ليت شعري	أيقاظ أمية أم نيام (٢)
فإن يك قومنا أضحوا نياما	فقل قوموا فقد حان القيام
فصرى من رمالك ثم قولسي	علي الاسلام والعرب السلام

وكتب يصف له أمر ابي مسلم، وكثرة الدعوة وميل اليمانية
وربيعه اليه، ثم بعث للخليفة رسولا . وظل نصر ينتظر الهدد أن
يأتيه، وقد فسد عليه أهل خراسان إلا من كان معه من مضر خاصة
وكتب نصر الي ابن هبيرة يستمده فلم يمد [٣] فكتب الي الخليفة

(١) اخبار الدولة العباسية، ص ٢٩٠ .

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٣٠٤-٣٠٥ .

(٣) السعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٧٩ .

مروان ثانية يستنجد به بقوله "كتبت الي أمير المؤمنين لم يبق مني شيء أستعين به علي عدو أمير المؤمنين لأني رجالي ولا في مالي ولا في مكيدتي ولو كنت امددتك بألف فارس من أهل الشام لا كتفيت بهم، ولقطعت دابر القوم الظالمين إني حين كتبت إلي أمير المؤمنين قد أخرجت من جميع سلطاني، فأنا واقف علي باب داري، وإن لم تأتني مواد أمير المؤمنين ووكلنا الي ابن هبيرة طردت عن باب داري، ثم لأرجوع اليها الي ملتقي العشر." [١]

ثم أن نصرا كما يقول صاحب اخبار الدولة العباسية "جمع وجوه أصحابه وأهل الرأي والمشورة منهم ولم يجتمعوا علي شيء وهنا اضطر نصر الي الاستنجد بالخليفة مروان ثانية يستحثه علي إمداده ويستنفره بقوله "أما بعد فإني ومن معي من عشيرة أمير المؤمنين في موضع من مرو علي مجمع الطريق ومحجة الناس العطشي من مختلف القوافل والرسل والجنود من العراق في حائط قد خدقت فيه علي نفسي ومن معي، وعن يميني وشمالي قري بني تميم وسائر أحياء مصر ليس يشويهم غيرهم إلا قري علي حدهم خاملة الذكر فيها خزاعة وفيها حل طاغيتهم أبو مسلم، فنحن حين كتبت إلي أمير المؤمنين في أمر هائل يتكفأ بنا تكفل السفينة عند هبوب العواصف ونحن من أخواتنا اليمنية واغنامهم ورعاهم، فيما نتوقع من سفهم، ولما قد شملهم من ورائهم الخبيث... وأنا معتمصم بطاعة أمير المؤمنين. وقد أملنا غياث أمير المؤمنين وورود غيله

(١) نفس المصدر السابق ، ص ٣١١-٣١٢.

وفرسانه ليجمع الله بهم كل مصر علي غشه وساع في خلافه فلا يكون
مثلنا يا أمير المؤمنين قول الأول

لا عرفتك بعد اليوم خذيني وفي حياتي مازودتني زادي

ثم قال نصر شعرا يحرض فيه العرب علي الهاشمية

بلغ ربيعه في مرو واخوتهم	ليغضبوا قبل الا ينفع الغضب
ماهلكم تنهبون الحرب بينكم	كان قبل الحجي عن رايكم ليب
وحسرتكون عدوا قد اطفاف بكم	فلين غاب الحجي والراي والادب
ذروا التفرق والاحقاد واجتبعوا	ليوصل الحبل والاصهار والنسب
ان تبعدوا الاردن لانقربها	و نحن نعهدهم يوما اذا اقربوا
استذلون اذا احببنا وننصرهم	لبس والله ماظنوا وماحسبوا(١)

وظهر ابو مسلم وأعلن اسم الامام من أعلي المنبر في صلاة
الجمعة وأسفل المنبر علق علمان اسودان كان قد بعث بهما الامام من
الكوفة واحدهما سمي الظل والاخر السحاب . وكان أبو مسلم وهو
يعقد اللواءين يتلو "أذان للدين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله علي
نصرهم لقدير وتناول الظل والسحاب قال: أن السحاب يطبق الارض
وأن الارض كما لاتخلو من الظل كذلك لاتخلو من خليفة عباس الي
آخر الدهر[٢] .

وكذلك ليس أبو مسلم السواد هو واتباعه، كما أنه غير في

(١) اخبار الدولة العباسية ص ٢١١-٣١٢ .

(٢) انظر، اخبار الدولة العباسية، ص ٣١١-٣١٢ .

بعض الشعائر لما حضر عيد الفطر أمر أبو مسلم سليمان بن كثير أن يملي بالشيعة وأمره أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذن ولا إقامة، وكان بنو أمية يبدأون بالخطبة قبل الصلاة، وبالأذان والإقامة .

وهكذا بدأ أبو مسلم نشاطه في منطقة قبائل خزاعة - كما تقول النصوص ولكنه عندما اصطدم باتحاد قبائل العرب ضده خرج إلى قرية الماخوان وغندق بها . ثم عاد إلى نشاطه ورغم أنه أصبح من المشكوك في أمرهم من جانب العرب، إلا أن هؤلاء كانوا مشغولين بنزاعاتهم، فلم يستمر اتحادهم طويلاً بل أن عرب اليمانية تحالفوا معه عندما أرسل إلى ابن الكرماني واستماله إلى جانبه . أما عن انصار أبي مسلم فكانوا خاضعين له تماماً، كما كان جنده مطيعين لقوادهم أحسن الطاعة .

سقوط مرو:

وبفضل انقسام العرب على أنفسهم وتماسك حزب أبي مسلم، نجح هذا الأخير في الاستيلاء على مدينة مرو عاصمة الإقليم الواقعة على نهر المروغان وكان دخولها بفضل ممالأة اليمانية وعلى رأسهم ابن لكرماني [١]

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٣٠٩.

ودخل ابو مسلم مرو من باب قنوشير فتلا هذه الآية : ودخل المدينة علي حين غفلة من أهلها" الي اخر الآية، ثم سار الي دار الأمانة فنزلها وعلي بن الكرمانى معه ، ثم دعوا الناس للبيعة فلم يتخلف عنها أحد من أهل مرو . ثم خرج علي بن الكرمانى وأبو مسلم الي المسجد فصعد علي المنبر وجعل ابو مسلم يبايع الناس، وأقام ابو مسلم ثلاثة أيام يأخذ البيعة علي أهل مرو، وهرب نصر من المدينة يوم الجمعة ١٠ جمادى الأولى سنة ١٣٠هـ [١] وبصحبه أمراء المرزبانة، التي اضطر الي تركها في الطريق، واتجه الي مدينة سرخس ومنها الي طوس ثم الي نيسابور .

فتح طوس:

مقتل تميم بن نضر:

ومن مرو اخذ ابو مسلم يدير الحرب ضد نصر . وكان يدير العمليات العسكرية في جانب المصودة عدد من كبار القادة العرب فأول من قام بمهاجمة القوات الأموية في خراسان كان قحطبة بن صالح، وهو من قبيلة طى العربية . فلقد بدأ قحطبة بهزيمة تميم بن نصر بن سيار في طوس وكان اتباع الضحاك الشيباني، من الخوارج

(١) انظر: أخبار الدولة العباسية، ص ٣١٦-٣١٨ .

قد لحقوا بابن نصر هناك وانتهت المعركة بمقتل تميم بن نصر
واستباحه عسكره [١] .

ويذكر صاحب "اخبار الدولة العباسية" ان نصر بن سيار قال
يرثي ابنه تميما لما بلغه نبأ مصرعه:

نكوب فجائع الحدث العظيم	نفي عني العزاء وكنت جلدا
لاجلاء الخوارج عن تميم	وهم لورث الاحشاء وجدا
يذب عن الجماعة والحريم	ومصرعة علي قطب الامادي
لنفس من اخي ثقة هريم	وفاء للخليفة وابتنى ذالا
بمارسنا المقاتل في الصميم	فلن يك دهرنا اودي مداء
لما انا بالضعيف ولا السنوم	وان يشبهك بنظمتنا مدو

فتح نيسابور

أما عن نصر فانه هرب من نيسابور الي جرجان، وتمكن بذلك ابو
مسلم من دخول مدينة نيسابور في شوال سنة ١٣٠هـ / يونية
٧٤٨ م - ويعد أن تحقق لابي مسلم هذا النجاح الكبير تخلص من

زعيمي اليمينة من العرب وهما: علي بن الكرمانى وأخوه عثمان
اذ قتلهما غدرا،

(١) نفس المصدر السابق، ص ٢٢٣-٢٢٦.

فتح جرجان [واخذ الري]:

وعندما استغاث نصر بن سيار بوالي العراق، وابن هبيرة ،
ارسل اليه هنا جيشا بجرجان، ولكن قحطبة خرج اليه وهزمه في ذي
الحجة من نفس السنة، بعد ان فتح جرجان ووقع الهزيمة بأهلها
الذين حاولوا الثورة حتي قيل انه قتل منهم مايزيد علي ثلاثين الفا
وبسبب تردد والي العراق ابن هبيرة ساء موقف نصر الذي مات
وهو يفر أمام قحطبة بالقرب من الري " وكان مريضا يحمل حملا " ^(١)
وبعد وفاة نصر اخذت مدينة الري ومادر ابو مسلم املاكهم لانهم
كانوا سفيانية كما تقول النصوص واحاط الحسن بن قحطبة ببقية
جيوش أهل الشام في نهاوند . وعندما خرج جيش شامي كبير لفك
حصارهم بقيادة عامر المري والي كرمان وداود بن يزيد بن هبيرة،
في أواخر سنة ١٣١هـ / ٧٤٩ هزمه قحطبة وهو يتقدم قرب
املفهان . وتقول النصوص "امر قحطبة بمصحف فنصب علي رمح
ونادي يا أهل الشام أنا ندعوكم الي ماني هنا المصحف فشتموه
واغشوه في القول " وأنه هزم داود بن هبيرة، وأصابوا عسكره
واخذوا منه مالا يعلم قدره من السلاح والمتاع والرقيق والخيول، وما
رؤي عسكر قط كان فيه من أصناف الأشياء ماني هذا العسكر كأنه
مدينة من البرابط والطنابير والمزامير والحمر مالا يحصي " [١]

(١) انظر، ابن الاثير، الكامل، ج ٤، ص ٣١٦-٣١٧، ٣١٨-٣١٩.

حصار نهاوند

واستفراح قحطبة - بعض الوقت بامفهان ثم قدم علي ابنه الحسن :نهاوند وبعد عدة أشهر من القتال استسلم الشاميون بنها وند دون أن يذروا في مصير أخوانهم بخراسان، هؤلاء قضى عليهم دون شفقة أو رحمة وبذلك انفتح طريق العراق أمام العباسية .

مسير قحطبة إلى ابن هبيرة بالعراق:

وخرج قحطبة من نهاوند وتوجه الي العراق واضطر في أول الأمر الي الانسحاب امام يزيد بن هبيرة والي الاقليم ، الذي خرج للقتال وراء دجلة ولكنه عاد واتجه نحو الكوفة . وتبعه ابن هبيرة وتمكن من مفاجاته في ذي الحجة سني ١٣٦ هـ / اغسطس ٧٤٩ م في معسكره قرب الأنبار، مما اضطر قحطبة الي الانسحاب الي واسط . واثناء القتال الذي كان يدور ليلا سقط قحطبة في النهر الفرات ومات غرقاً [١] . في ليلة الأربعاء ٨ من محرم سنة ١٣٢ هـ [٢] . ولكن القوم اجتمعوا واجمعوا علي الرضا بحميد [الحسن] بن قحطبة في رواية ابن الاثير فبايعوه وسلموا له الأمر [٣] .

(١) ابن الاثير، ج ٤، ص ٣٦٠ - ٣٦١ .

(٢) اخبار الدولة العباسية ، ص ٣٧١

(٣) نفس المصدر، ص ٣٧١ تاريخ خليفة، ج ٢، ص ٥٨٢ احداث سنة

فتح الكوفة

تقدم الحسن بن قحطبة الي الكوفة في الجنود واستولي جيشه عليها بعد أن هزم ابن هبيرة ويفهم من النصوص أن الكوفة اخلت بسهولة، اذ كان محمد بن خالد القسري قد خرج فيها علي الامويين الذين انسحبوا و"سود" أي أعلن دخوله في دعوة العباسيين وكتب بذلك الي قحطبة [١] .

ظهور ابي سلمة بالكوفة

وارسل أبو سلمة الي حميد بن قحطبة أن يدخل الكوفة بأحسن هيئة وان يظهروا زينتهم، ويشهروا سلاحهم واعلامهم وقوتهم، ففعل وظهر ابوسلمة واعلن أمره وكان ظهور ابي سلمة وتوليهِ للامور يوم الجمعة ١٠ من المحرم سنة ١٣٢ هـ وتولي ادارة مقاليد الامور [٢] .

موت ابراهيم الامام

وتقول النصوص أن الخليفة مروان بن محمد كان قبل ذلك بقليل قد امر بالقبض علي الامام ابراهيم الذي اخذ وانفذ الي حران وحبس

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ١٤ ص ٣٢١ .

(٢) اشارة الي دولة العباسيين ص ٣٧٤-٣٧٥ .

الخلال، ومن ابي العباس، والتقي بهم علي الضفة اليسري لنهر الزاب، ودام القتال بين الطرفين تسعة ايام احرز مروان خلالها بعض الانتصارات، ولكن الأمر انتهى بوقوع الاضطراب في جيشة اذ كانت كل عصبية تريد ان تتقدم العصبية الاخرى وأعقب ذلك هزيمة مروان نتيجة لخطأ استراتيجي، اذ عقد جسراً علي النهر عبره رغم معارضة وزرائه في ذلك وترتب علي هذا الخطأ ان انقطع الجسر عند الانهزام وكان من غرق يومئذ اكثر ممن قتل " وذلك في ١١ جمادي الثاني من سنة ١٣٢ - ٢٦ يناير ٧٥٠م.

ولر مروان الي الموصل بعد هزيمة الزاب، ولكنه استقبل استقبالا سيئا، فسار الي حران، واقام بها اكثر من عشرين يوماً. عندما تبعه عبد الله بن علي الي هناك مضي الي حمص. ولكن مدن الشام كانت قد بدأت تخلع طاعتها بالنسبة للامويين وتسقط بين ايدي العباسيين، مدينة بعد أخرى، مثل : قنسرين وحمص وبعبك ولم تدافع الا دمشق بعض الوقت فدخلت عنوة في رمضان سنة ١٣٢هـ/٧ نوفمبر سنة ٧٥٠م. بعد ان حوصرت وضيق عليها العناق.

وتابع العباسيون مطاردة مروان، اذ سار في اثره صالح بن علي من ابي فطرس الي العريش الي النيل ثم واصل سيره الي معيد مصر. وفي بلده بوصير من قري الفيوم حاول مروان الاختفاء في

احدي الكنائس [١] . ولكنهم بايتوه و هجموا علي عسكره و ضربوا بالطبول و كبروا و نادوا يالثارات ابراهيم " فظن من بعسكر مروان ان قد احاط بهم سائر المسودة .

فقتل مروان في ١٧ من ذي الحجة سنة ١٣٢ هـ / ١٧
الذي كان بالكوفة .
سنة ٧٥٠ م . واحتز رأس اخر خلفاء الامويين و ارسل الي صالح بن علي الذي مثل به فقطع سلسانه و سيره الي ابي العباس الذي كان بالكوفة .

استسلام ابن هبيرة في واسط و مقتله:

بالتضاء علي مروان بن محمد لم يبق اللامويين من قوة و لاحول الا قوات ابن هبيرة التي لجأت بعد انهزامها امام ابن قحطبة الي واسط، المدينة الاستراتيجية التي بناها الحجاج في مستنقعات و دافعت عن نفسها ما يقرب من العام . بدأ بمناوشات خارج المدينة بين اهل الشام و جيوش الحسن بن قحطبة و انتهت بانهزام اهل الشام و التجأهم الي المدينة و تحصنهم بها و أصبح القتال رميا و حراشلا من بعيد .

ورغم الانقسامات بين اليمنية و القيسية، في صفوف ابن هبيرة، بعد ان كاتب ابو العباس السفاح اليمنية من اصحاب ابن هبيرة ، فان هذا الاخير لم يدخل في مفاوضات مع العباسيين الا عندما علم

(١) انظر، ابن الاثير، الكامل، ج ٤، ص ٣٣٠-٣٣١ .

بموت مروان وفي هذه الاثناء كانت قيادة القوات العباسية المحاصرة بواسط قد انتقلت من يدي الحسن بن قحطبة الي ابي جعفر اخي الخليفة . وهذا يبين أن الخليفة . بدأ ينهج سياسة جديدة تهدف الي وضع مقاليد الأمور وخاصة القيادات العسكرية بين يدي افراد أسرته . وكتب السفاح الي الحسن بن قحطبة " ان العسكر عسكرك والقواد قوادك ولكن احببت ان يكون اخي حاضرا فاسمع له واطع وأحسن مؤازرته " . وبعد ان علم المحاصرون بمقتل مروان طلبوا المصلح، وجرت السفراء بين ابي جعفر وابن هبيرة وطالت المفاوضات بين الطرفين وكتب ابو جعفر كتاب امان لابن هبيرة، لبث ابن هبيرة يشاور فيه العلماء اربعين يوما حتي ارتضاه وارسله الي ابي جعفر الذي انقلبه الي اخيه السفاح فأمره بامضائه السفاح المعاهده ولكنه لم يحترمها، بعد ان اعترض أبو مسلم علي نصوصها وكتب الي السفاح " ان الطريق السهل اذا ألقيت فيه الحجارة فسد لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة " [١]

وانتهي الامر بقتل الراد الحامية المستسلمة واغتيال ابن هبيرة باستسلام واسط ثم القضاء علي القوات الاموية النظامية ونهج العباسيون سياسة ترمي الي استئصال شافة الامويين واستخدام العنت ونفسوة ضد افراد الاسرة التعسة، ولم يتوزعوا في ذلك عن استعمال الغدر والعيانة [٢]

(١) نفس المصدر السابق، ص ٢٣٨ .

(٢) نفس المصدر، ص ٣٣٣ .

مذبحة أبي فطرس:

من أهم المذابح التي غدر فيها عبد الله بن علي عم الخليفة وقائد القوات العباسية في الشام، بعدد كبير من المراد الأسيرة الأموية والتي تسمى بمذبحة أبي فطرس، وذلك بعد أن أمنهم ودعاهم إلى الطعام ويقال أنه بعد قتلهم غيلة أمر بالبسط ففرشت علي جثثهم فاكل عليها وهو يسمح انين بعضهم [١] .

وطارد العباسيون الأمويين في الشام وفي فلسطين والعراق وبعد مطاردة الأحياء انتهكوا حرمة الأموات فنبشت قبور الخلفاء في دمشق بأمر عبد الله بن علي ونثر تراب جثثهم في الهواء، ولم يستثن إلا قبر عمر بن عبد العزيز، ولم ينج من الأمويين إلا حفيد الخليفة هشام وهو عبد الرحمن بن معاوية الذي هرب إلى الأندلس حيث أنشأ دولة أموية جديدة [٢] كما سري فيما بعد واستصفيت أموال الأمويين وهدمت قصورهم، وضربت مصانع المياه التي كانوا قد أقاموها حتي لا يبقى للكرهم اثر .

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٣٣٣-
(٢) انظر، اخبار مجبومة في فتح الأندلس،

الفصل الرابع

إبتداء الدولة العباسية وبيعة أبى العباسى

ابتداء الدولة العباسية وبيعه ابي العباس

١٣٢ - ١٣٦ هـ

بويح ابو العباس عبد الله بن محمد علي بن عبد الله بن عباس بالخلافة في ١٣ ربيع الاول سنة ١٣٢ هـ [١] ، في الكوفة .

وكان ابراهيم الامام لما حبس بخران، وتوقع نهايته، قد عهد لاختيه ابي العباس "وأوصاه بالقيام بالدولة والجد والحركة، والا يكون له بعد بالحمية لبث ولاعرجة حتي يتوجه الي الكوفة [٢] .

وخرج ابو العباس ومعه اقاربه من العباسيين فيهم اخوه ابو جعفر [المنصور] وعبد الوهاب ومحمد ابن اختيه واعمامه: داود وعيسى ومالك واسماعيل وعبد الله وعبد الصمد بنو علي بن عبد الله بن عباس، وابن عمه داود وابن اختيه عيسى بن موسى حتي قدموا الكوفة في صفر .

(١) انظر: مؤلف مجهول العيون والحدائق، ص ١٩٩، وقارن خليفة بن خياط، تاريخ خليفة ج ٢، ص ٦٠٨ حيث يقول: وبويح ليلة الجمعة بالكوفة ثلاثة عشر بقية من ربيع الاول سنة اثنين وثلاثين ومائة، بينما تقول رواية المسعودي في مروج الذهب ج ٢، ص ٩٤ انه "بويح يوم الاربعاء لاحدي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الاخر سنة اثنين وثلاثين ومائة، وقيل في النصف من جمادي الاخر... اما رواية ابن الاثير ج ٢، ص ٣٣٢، فتقول انه بويح بالخلافة في شهر ربيع الاول لثلاث عشرة مضت منه وقيل في جمادي الاول.

(٢) المسعودي، مروج الذهب ج ٢، ص ٩٥ .

ونستشف من الروايات ان "وزير آل محمد" وهو ابو سلمة الخلال كانت له نوايا خاصة وانه كان يميل الي العلويين فأظهر انه لم يبائع شخصيا الا ابراهيم الامام وهذا يفسر كيف أنه أخفي وصول العباسيين الي الكوفة لمدة تزيد علي اربعين يوما . وحاول في هذه الفترة أن يتصل بالعلويين فارسل رسالتين من نسخة واحدة الي الامام ابي عبد الله جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب . وعبد الله بن الحسن بن علي بن ابي طالب يدعو كل احدىهما الي القدوم اليه ليصرف الدعوة اليه ويأخذ بيعة أهل خراسان . ولقد كان جواب جعفر بن محمد احراق الرسالة وانكر معرفته بأبي سلمة . أما عبدالله فقد شاور جعفر الصادق فحذره الصادق من نتيجة الانقياد وراء الخلال قائلا له : "ومتى كلن أهل خراسان شيعة لك أنت بعثت ابا مسلم الي خراسان أنت أمرته بلبس السواد؟ ولكن عبد الله استاء من كلام جعفر واعتبره حسدا منه [١] .

أما الدوافع التي دفعت الخلال للقيام بهذا العمل فمن ذلك خوفه بعد مقتل ابراهيم الامام من انتقام الامر وفساده .

ولقد فشلت محاولات الخلال . واخيرا عرف احد كبار اتباع ابي مسلم بوجود الخليفة الجديد فذهب اليه ومعه عدد من زعماء الخراسانية والقواد وبايعوا ابا العباس، وسلموا عليه بالخلافة، وعزوه في ابراهيم الامام واضطر ابو سلمة الي اللهاج ومبايعة ابي العباس [٢] .

(١) السبعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٩٧-٩٨ .

(٢) انظر الطبري تاريخ الرسل والملو ج ٧، ص ٤٣٣ - ٤٣٤ ابن الاثير

ج ٤، ص ٣٦٣ - ٣٦٤ .

وتداولوها فجاوروا فيها وأستأثروا بها وظلموا أهلها بما ملا الله
لهم حيناً حتي أسفوا فلما أسفوه انتقم منهم بأيدينا ورد علينا حقنا
وتدارك بنا امتنا وولي نصرنا والقيام بأمرنا، ليمن بنا علي اللين
استضعفوا في الأرض وختم بنا كما افتتح بنا .

يا أهل الكوفة انتم محل محبتنا ومنزل مودتنا، انتم اللين لم
تتغيروا عن ذلك ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتي
ادركتهم زماننا واثاكم الله بدولتنا فانتم اسعد الناس بنا واکرمهم
علينا وقد رذتكم في اعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فانا السفاح
المبيح والثائر المبير" [١] .

وأثناء الخطبة تملكته الحمي فاضطر أن يقطع أول خطبة له
فوق المنبر . ولكن عمه داود بن علي تكلم نيابة عنه، ومن بين
ماقاله في خطبته "لقد كانت أموركم ترمضنا ونحن علي فرشنا
وتشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم واستنزالهم بكم
واستلثارهم بفيئكم صدقاتكم ومغانمكم عليكم لكم ذمة الله تبارك
وتعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة العباس رحمه الله
علينا ان نحكم فيكم بما انزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير في
العامّة والخامّة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، تباتبا
لبني حرب بن أمية وبني مروان اثروا في مدتهم العاجلة علي الاجلة
والنار الغانية علي النار الباقية، فركبوا الاثام وظلموا الانام" [٢] .
ثم قال يا أهل الكوفة انا والله مازلت مظلوماً مظلوماً علي حقنا

(١) انظر الطبري تاريخ الرسل والملوكة، ص ١٠٠، ق ١٠، ابن الخليل ابراهيم

طبع دار المعارف مصر ١٩٦٦ م، ص ٤٦٥ - ٤٦٦

(٢) نفس المصدر السابق، ص ١٠٧، ص ٤٦٧، ابن الاثير البداية ج ٤ ص

حتي اباح الله لنا شيعتنا اهل خراسان فاحياهم حقنا . . . وأظهر بهم دولتنا واراكم الله ماكنتم تنتظرون فأظهر فيكم الخليفة من هاشم واداكم علي اهل الشام ونقل اليكم السلطان وأعز الاسلام . . . وان لكل اهل بيت مصرنا وانتم مصرنا الا وانه مامعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلي الله عليه وسلم الا أمير المؤمنين علي بن ابي طالب و أمير المؤمنين عبدالله بن محمد وأشار بيده الي ابي العباس السفاح ثم قال " واعلموا ان هذا الامر فينا ليس بخارج منا حتي نسله الي عيسي بن مريم عليه السلام [١] .

يتضح من الخطبتان السمات المميزة للعصر الجديد ومنها:

أن الدعوة العباسية قامت من اجل احلال الاسلام الذي فشل بنو مروان في تطبيق مبادئه
- وان لبني العباس الحق في الخلافة لانهم اقرباء الرسول صلي الله عليه وسلم من جهة عمه العباس بن عبد المطلب الذي مات بعد موت الرسول .

- تحقيق العدالة للمظلومين والمستضعفين من الناس .

- التأكيد علي نقل مركز الثقل السياسي من الشام الي العراق .

- زيادة الاعطيات [اعطيات الجند] الي مائة درهم .

(١) نلس المصدر السابق، ج٧، ص٤٢٧، ابن الاثير الكامل، ج٤، ص٣٥٥

... ولكن الخليفة حاربهم من أية حركة قائلا بأنه الثائر العبير .

- أكد علي وضع آل العباس من الاسلام وأهله وانهم بنو هاشم وأهل البيت .

- فند الخليفة رأي السبئية في قولهم بأن الخلافة من حق آل علي وبين أراعناسيين في احقاق الحق وازهاق الباطل .

ندد ابو العباس بسياسة الامويين وظلمهم الناس وكيف ان العباسيين هم الذين اذلوا دونتهم واعلن حلول عهد العدل والاصلاح .

وهكذا قامت الأسرة الخلالية الجديدة وهي أسرة العباسيين بالكوفة وأول خلفائها هو ابو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس .

والظاهر ان الخليفة كان يشك في موقف وزيره ابي سلمة الخلال ولذلك نجد انه لا يقيم في الكوفة . ولكن انتقل الي حيث يوجد العسكر العباسي الخراساني حمام اعين ثم بعد ذلك ينتقل الي الحيرة وينزل في الهاشمية العاصمة الجديدة ثم انه بعد ذلك تخلص من ابي سلمة الخلال علي يدي بعض اتباع ابي مسلم [١]

(١) انظره ابن الاثير ، الكامل ، ج ١ ، ص ٢٣٦ .

وعلي أيام السفاح تم القضاء علي مروان بن محمد - كما سبق القول حدث كل هذا، وأهل الشام - الذين كانوا يكونون المعاء لمروان يتفون موقف المتفرج علي نهاية الدولة التي كانوا يدينون لها بكل شيء. هذا ولو أنهم بعد ذلك حاولوا القيام برد فعل فنقضوا وغلغوا في بعض المدن مثل: حران وقنسرين ودمشق.

واهم تلك الثورات ثورة قنسرين، اذ قامت القيسية بها ونادت بأبي محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية ودعوا اليه وقالوا: هذا السفيناني المنتظر. ولكن عبد الله بن علي تمكن من تشتيت شمل الثوار في أواخر سنة ١٣٣ هـ. ووقع أبو محمد بين أيدي العباسيين وهو يمر الي الحجاز وذلك علي أيام المنصور [١].

وعصر أبو العباس لم يبلغ خمس سنوات، وعمل السفاح بمعلونه أخيه أبي جعفر علي أن يتقلد الهاشميون مقاليد الأمور في الدولة، فعهد الي أخوته وأبنائه وأبناء عمومته بالقيادات العسكرية وولايات الأقاليم كما بدأ سياسة غريبة تهدف الي التخلص من كبار الاتباع والعمال الذين يحس بخطورتهم.

الثورات علي عهد أبي العباس:

وعلي عهد أبي العباس قامت بعض الثورات في خراسان، وعلي إقليم ماوراء النهر ولكن الجيوش العباسية الخرسانية استطاعت أن

(١) ابن الأثير، ج ١، ص ٢٣٤-٢٣٥.

تلقني عليها بسهولة وكذلك استطاعت جيوش الدولة ان تحرز انتصارات في المشرق وان تدفع بحدود الدولة نحو اواسط آسية .

ثورة بخاري:

ثورة بخاري هذه خطيرة اذ تزعمها رجل اسمه شريك المهري من قبيلة مهرة . هذا الرجل كان يؤيد ال البيت في اول الامر، ولكنه نقم علي السياسة التي انتهجها ابو مسلم عندما توسع في استغلال سفك الدماء . والتف حوله اكثر من ٣٠ الف رجل من منطقة بخاري ومنطقة خوارزم وأرسل ابو مسلم جيشا لقتال هذا الثائر علي رأسه زياد بن صالح الغزاعي، وعاون ابن صالح ملك بخاري واخذت الثورة بكثير من العنف والقسوة ويقال ان المدينة تركت طعمة للنيران لمدة ثلاثة ايام، كما صلب الاسري علي أبوابها [١]

وظهر علي اطراف الدولة خطر جديد، ذلك ان الصين بدأت تتدخل في شئون ما وراء النهر . ولكن زياد بن صالح بعد ان قضي علي ثورة بخاري استطاع ان يحرز نصراً عظيماً علي القوات الصينية في وقعة تسمي طراز وتنازع الروايات العربية في ذلك النصر فتقول ان المسلمين قتلوا حوالي خمسين الفا واسروا نحو عشرين الفا، وهرب باقي الجيش الي الصين .

وأسمرت الصين في سياستها التي تهدف الي «سعادة الحكام

(١) انظر، النرشخي، تاريخ بخاري، ترجمة الدكتور ابن عبدالمجيد بدوي، نصر الله، مبشر الطرازي طبعة دار المعارف، مصر، ص ٩١-٩٣ ابن الاثير، ج ٤، ص ٣٤١، ٣٤٢.

الوطنيين، علي الخروج علي الحكم العربي. ولكن عامل بلغ الذي عينه ابو مسلم هو ابا داود خالد بين ابراهيم نجع في قمع ثورة الختل التي فراميرها الي بلاد الصين، وكذلك قتل دهقان كش ونسف.

وهكذا استطاع ابو مسلم ان يحرز نجاحا كبيراً في سياسته الخارجية بتأمينه لحدود الدولة الخارجية كما نجح في سياسته الداخلية. وهذا النجاح الكبير زاد بطبيعة الحال من هيبة الداعي الهاشمي واثار الخوف في نفوس العباسيين.

خروج زياد بن صالح:

ففي سنة ١٣٥ هـ قامت ثورة في أرض ماوراء النهر، بقيادة زياد بن صالح ومعه سباع بن النعمان الأزدي - وهو الذي كان قد أرسله السفاح الي زياد بن صالح وأمره ان رأي فرصه ان يثب علي ابي مسلم فيقتله. وكان ابو مسلم قد عينهما واليين لما وراء النهر. والظاهر انهما رفعاً رايه العصيان بتحريض من السفاح، ولكنهما لم ينجحا في ثورتها تلك فقتل سباع بمدينة امل. أما عن زياد بن صالح فقد انفض عنه جده وهرب الي دهقان قرية باركت فقتله فبعث راسه الي ابي مسلم [١].

ولم يكن هذا يعني انتهاء محاولات الخليفة ضد عامله الكبير وذلك، انه ربما قرر ابو العباس السفاح بالاتفاق مع اخيه ابي جعفر

(١) انظر، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤٧، ص ٤٦٦ - ٤٦٧، ابن

الانبار، ج ٤، ص ٣٤٤.

التخلص من ذلك المنافس الخطير . ولكن المنية وافت ابا العباس
فتوفي في ١٣ من ذي الحجة سنة ١٣٦ هـ / يونية ٧٥٤ وهو في
ريعان شبابه في الانبار وقد راح ضحية الحمي التي المت به، اوفي
وباء الجدري [١]

القضاء علي ابي سلمة الخلال:

كان ابو مسلم شديد الحسد لتزايد نفوذ ابي سلمة في العراق
وتذكر الروايات انه اقترح علي الخيفة التخلص منه وانه كتب اليه
يقول له "قد احل الله لك يا أمير المؤمنين دمه لأنه قد نكث وغير
وبدل" ولكن السفاح رد علي ذلك بأنه لا يريد ان يبدأ عهده بقتل
رجل من شيعته مثل ابي سلمة لجهوده في نشر الدعوة [٢] . كما
كلمه ايضا ابو جعفر [المنصور] أخوه وداود بن علي عمه في ذلك .
وكان ابو مسلم قد راسلها وطلب منها ان يشير ا علي السفاح
بقتله .

ولكن ابو مسلم كما نستشف من الروايات ارسل جماعة من ثقاته
لقتل ابي سلمة وانتهاز فرصة انصرافه من عند السفاح من الانبار
وليس معه احد . "فوثب عليه اصحاب ابي مسلم فقتلوه" واشيع ان
ابا سلمة قتله الخوارج، وكان مقتله في رجب سنة ١٣٢ هـ .

(١) خليفة تاريخ خليفة، ج ١٢، ص ٦٢٩، احداث سنة ١٣٦ هـ وقارن
المسعودي، مروج الذهب، ج ١، ص ٩٤ حيث يقول "ومات بالانبار في
مدينته التي ابناءها، وذلك يوم الاحد لاشني عشرة ليلة خلت من ذي
الحجة، ابن الاشير، ج ١٤، ص ٣٤٦ .

(٢) انظر، المسعودي، ج ١٤، ص ١١٥-١١٦ .

الفصل الخامس

خلافة المنصور

خلافة المنصور

١٣٦ - ١٥٨ هـ

بعد ابي العباس تبوأ عرش الخلافة اخوه ابو جعفر عبدالله بن محمد بن علي بن-عبدالله بن عباس الملقب بالمنصور بالله.

ويعتبر ابو جعفر المؤسس الحقيقي للدولة العباسية .

وأول المشاكل التي واجهها المنصور هي أحقية ولايته لعهد ابي العباس إذ تذكر الرواية أنه في سنة ١٣٦ هـ أخذ ابو العباس البيعة بولاية عهد المسلمين وبالخلافة من بعده لاختيه ابي جعفر عبد الله بن محمد، ومن بعد ابي جعفر ولد أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن علي وأنه "جعل العهد في ثوب وختمه بخاتمه وخواتيم أهل بيته" .

رغم كل هذا فإن اعتلاؤه العرش لم يتم دون نزاع فعندما تولي ابو العباس السفاح، كان اخوه ابو جعفر اميرا للحج، وبصحبته ابو مسلم وقام بأخذ البيعة لابي جعفر، عيسى بن موسى ولي العهد الثاني الذي كان واليا للكوكة . وكتب عيسى الي ابي جعفر يعلمه بموت السفاح والبيعة له، كما كتب الي الامصار يطلب البيعة

للخليفة الجديد [١] .

ثورة عبد الله بن علي العباسي:

وفي ذلك الوقت كان عم الخليفة عبد الله بن علي، بطل وقعة الزاب والذي كان واليا علي بلاد الشام، وكان قد سار علي رأس قوامه من الشاميين والخرسانية علي الصائفة وهو يقصد بيزنطة . وعندما وملة خبر وفاة ابو العباس وولاية المنصور توقف عن المسير ودعا قواده ورجاله الي مبايعته، وكان لابد ان يبرر موقفه هذا ويظهر احقيته في المطالبة بالخلافة فقال: ان السفاح حين اراد ان يوجه الجنود الي مروان بن محمد لم ينتدب غيوري وعلي هذا خرجت من عنده وهذا يعني انه كان يري ان قتال الخليفة الأموي حقا للخليفة الذي سيحل مكانه وان انتداب الخليفة له للقيام بهذا الأمر ،عنايه نيابته عنه وانه لا يتنازل عن هذه النيابة ولا يعترف بما حدث بعد ذلك من التغيير والتبديل والعهد لغيره . ووقف الي جانب عبد الله عدد من القواد وبايعوه بالفعل . والذي لاشك فيه ان تشجيع أهل الشام عصبية الدولة الأموية - كان من الاسباب التي قوت عبد الله وجرأته علي الثورة .

سار عبد الله بن علي ونزل حران . وقفل ابو جعفر من الحج ليجد نفسه امام ثورة عمة ولم يجد مفرأ من الاستنجاذ بأبي مسلم رغم ماكان يكنه له من الحقد، رغم ماكان يظهره الخراساني من تعال

(١) انظر الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٧، ص ٧١، انظر ابن الاثير الكامل، ج ٤، ص ٣٤٧، وقارن خليفة بن خياط تاريخ خليفة ص ١٢٩، البسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ١٢٨ .

وما كان يشعر به في قرارة نفسه من الافضال والخدمات الكبيرة التي اداها للدولة حتي انه غلب علي ابي جعفر، الذي كان اميرا للحج، فكان ابو مسلم يكسو الاعراب ويصلح الابار، والطريق، وكان الاكر له" [١] .

امر المنصور ابا مسلم بالمسير لحرب عبد الله بن علي .
والظاهر ان عبد الله خشي غدر جنده من الخرسانية الذين كانوا يدينون بالطاعة والولاء لابي مسلم فتخلص منهم وقتل منهم الكثيرين ولم يبق له الا اهل الشام .

سار ابو مسلم الي حران وانسحب عبد الله بن علي من حران الي نصيبين وتحصن هناك، ولم يرد المنصور ان ينفرد ابو مسلم بالقيادة فاستدعي القائد المشهور الحسن بن قحطبة من ارمينية، وكان واليا عليها وأمره ان يوافي ابو مسلم فلحق به في الموصل . وتقدم ابو مسلم حتي نزل قريبا من عبد الله من ناحية نصيبين . والظاهر ان مراكز اهل الشام كانت حصينة منيعة فلجأ ابو مسلم الي خطة سليمة لزعزعتهم عن مراكزهم الاستراتيجية فكتب الي عبد الله بأنه لم يأت لقتاله وانما ولي الشام بأمر من الخليفة وانه متوجه لتقلد ولايته وعدد خشي اهل الشام من الخراسانية أصحاب ابي مسلم علي ديارهم وطلبوا ان يسيروا الي بلادهم لحمايتهم . وكان عبد الله يعلم ان ما اعلنه ابو مسلم لم يكن الا خدعة . وأنه لابد ان يغاصبه القتال ولكن اهل الشام لم يقتنعوا بذلك فقرر عبد الله الرحيل معهم نحو

(١) انظر، ابن الاثير، الكامل، ج ٤، ص ٣٥٠ .

الشام وعندئذ تحول ابو مسلم فنزل في معسكر عبد الله بن علي في
الموضع الحصين. "وغور ماحوله من المياه والقي فيها الجيف"
وأضطر عبد الله والشاميون الي النزول في موضع عسكر ابي مسلم.
واستمر الصراع بين الفريقين مدة طويلة زادت الي اكثر من خمسة
أشهر. وكان اهل الشام اكثر فرسانا، ورعم حصانة المواقع التي
احتلها ابو مسلم، فان الشاميين استطاعوا بعد شهر من المناوشات
من توجيه هجمة قوية نحو المعسكر العباسي وتمكنوا من زحزحته
عن مواضعه.

وتشير النصوص الي مهارة ابي مسلم في تسيير دفة القتال
فقد اقام عريش كان يجلس عليه فيسيطر الي رجاله فاذا رأي خلا في
بعض صفوفه أرسل الرسل الي مختلف القواد لاتخاذ الموقف
المناسب.

ولم يستطع اهل الشام ان يستفيدوا من ذلك النجاح المحقق الذي
احرزوه، وفي شهر جمادي الثاني سنة ١٣٧ هـ دارت المعركة
الحاسمة يتخلص تكتيك هذه الموقعة في أن ابا مسلم امر الحسن
بن قحطبة ان يعبئ الميمنة اكثرها الي الميسرة وان يترك في
الميمنة جماعة اصحابه واشدائهم ولما رأي ذلك اهل الشام كشفوا
ميسرتهم وانضموا الي ميمنتهم بازاء ميسرة ابي مسلم وهنا امر
ابو مسلم اهل القلب والميمنة ان يهجموا علي ميسرة اهل الشام.
ونجحت هذه الخطة وانهزم اصحاب عبد الله وتركوا عسكرهم.

أكتفي أبو مسلم بالانتصار فأعلن الأمان في الناس وأمر بعدم الانتقام من المهزمين ولما كتب الي المنصور يعلمه بالنصر وبلاستيلاء علي معسكر عبد الله أرسل المنصور مولاة ليحصى الغنائم . وكان ذلك من الأسباب التي اثارته غضب أبو مسلم، وعملت علي زيادة الجفوة بينه وبين الخليفة . تقول الرواية ان ابا مسلم قال: أنا أمين في الدماء خائن في الأموال [١] .

أما عبد الله بن علي وأخوه عبد الصمد بن علي الذي كان معه فلجأ عبد الله الي اخيه سليمان الذي كان واليا علي البصرة وحواري عنده حتي سنة ١٣٩هـ . وعندما عزل سليمان وطلب اليه المنصور ان يبعث بعبد الله بعد ان امنه ولكنه سجن وانتهي الأمر بقتله فيما بعد [٢] .

لجأ عبد الصمد الي موسى بن عيسى ولي العهد في الكوفة وطلب اليه الأمان وانتهي هو الآخر نهاية شبيهة بعبد الله [٣] .

وهكذا تغلب المنصور علي اولي المعاب التي اعترضته بعد

(١) ابن الاثير، الكامل ج٤، ص ٣٥٠ وقارن المسعودي مروج الذهب ج٤ ص ١٣٩ حيث يقول " فبعث اليه المنصور بيقطين بن موسى لقبض لخزائن، فلجأ دخل يقطين علي ابن مسلم قال: السلام عليك ايها الامير، قال: لاسلم عليك يا ابن اللخناء اوتين علي الدماء ولاوتين علي الاموال" .

(٢) انظر ابن الاثير، ج٤، ص ٣٥٠ ج ٥ ص ٢٤ احداث سنة ١٤٧هـ المسعودي، مروج الذهب ج٤، ص ١٦٠-١٦١ .

خلافته وهي ثورة أهل الشام بزعامة عمه عبد الله وذلك بفضل رجل الدولة أبي مسلم الخراساني الذي لم يلبث أن يلاقي مصرعه بدوره علي يدي الخليفة .

مقتل أبي مسلم الخراساني:

مما سبق يتضح لنا أن سلطان أبي مسلم في خراسان كان قد حوَّط بعد تخلصه من العرب الذين كانوا يتوقعون الي تقلد الأمور في ولاية خراسان وازدادت سلطة أبو مسلم .

والحقيقة أن النزاع بين أبي جعفر وأبو مسلم الي سنة ١٣٢هـ الي أوائل أيام السفاح وذلك بعد مقتل أبي سلمة الخلال وعندما أرسل السفاح أخاه أبا جعفر الي أبي مسلم بخراسان ومعه العهد لأبي مسلم بولاية خراسان وبالبيعة للسفاح ولأبي جعفر من بعده فلم يهتم الزعيم الخراساني بولي العهد أي بأبي جعفر الذي كان يقول لأخيه اطعني واقتل أبا مسلم فوالله أن في رأسه لغدره [١]

وحاول أبو العباس التقليل من نفوذ أبي مسلم واغتياله عدة مرات من ذلك ماتقول الرواية من أنه أمره بأسقاط من لم يكن من أهل خراسان من جنده ليقفل من نفوذه ولكن أبا مسلم أدرك الحيلة [٢] وتجلت قوة أبي مسلم في نفس الوقت عندما أرسل

(١) انظر العيون والحقائق ص ٦١٣-٦١٤ ابن الأثير الكامل ج ٤ ص ٣٥٤-٣٤٦ .

(٢) انظر الجهشيارى كتاب الوزراء والكتاب ص ٩٤ .

السفاح عمه عيسى بن علي واليا بفارس وتقول الرواية ان عمال ابي مسلم هناك تصدوا له بل وبلغ الأمر ان بعضهم اراد قتل عيسى بن علي، وعلي ذلك كان من الطبيعي أن يفكر السفاح وأبو جعفر في التخلص من " امين ال محمد " بعد ان تخلصوا من " وزير آل محمد " وذلك حسب السياسة التي رسمها والتي كانت ترمي الي تأكيد سلطان الهاشميين . ويظن أن السفاح وافق علي التخلص من أبي مسلم ولكنه عاد واجل ذلك لفرصة اخري . وأخيراً في نهاية سنة ١٣٦هـ طلب ابو مسلم من السفاح ان يوليه امرة الحج وان يكون نائبه يوم عرفة ولكن السفاح جعله تحت امره أخيه ابي جعفر الذي اخذ امرة الحج لنفسه وحضر من ولايته ارمينية من اجل ذلك وتأثر ابو مسلم وأسرها لأبي جعفر وعمد الي الظهور بجانبه . ثم انه عندما وصله نبأ موت السفاح وهم في طريق العودة لم يسارع أبا مسلم ببيعه المنصور الا بعد ان لفت الأخير نظرة الي ذلك في كتاب ارسله اليه . وأثناء قتال عبد الله بن علي لاحظ الحسن بن قحطبة ان أبا مسلم كان يهزأ ويستخف بالكتب التي كانت تصله من أمير المؤمنين فكتب بذلك الي الوزير ابو ايوب [١] . وأخيراً زاد التوتر عندما ارسل المنصور مولاة ليحصى الغنائم التي استولي عليها في معسكر أهل الشام .

وأحس المنصور خطورة الرجل وحاول ابعاده عن خراسان معقله وموطن سلطانه، فعرض عليه ان يوليه بلاد الشام ومصر، وطلب اليه

(١) ابن الاثير، الكامل، ٤٤٣ هـ، ص ٣٥٠-٣٥١ .

ان يسير الي ولايته الجديدة . وشعر ابو مسلم بما يضمه الخليفة فلم يقبل ما عرض عليه . وقرر العودة الي ولايته خراسان . ولكن المنصور رغبة ورهبة واتصل بنائب ابي مسلم في خراسان الذي هدد ابا مسلم وجعله يخضع لاوامر الخليفة . ويفضل اغراء بعض اصحابه سار ابو مسلم الي المنصور ليعتذر له عما بدر منه ، وكان المنصور في ذلك الوقت قد سار من الانبار الي المداخن ليتنظر مكان العاصمة الجديدة . وقابل رجال المنصور ابا مسلم قبولا حسنا ، واظهروا له آيات الاجلال وطمانونه ثم دخل ابو مسلم علي المنصور ، فأقبل عليه الخليفة يعاتبه ويعدد له هفواته وسقطاته . واعتذر ابو مسلم عن ذلك ببلاده وماكان منه ، وماقام به فكان رد المنصور . "يا ابن الخبيثة والله لو كانت امه مكانك لاجزأت انما عملت في دولتنا وبريحنا فلو كان ذلك اليك ماقطعت فتيلاد [١] . وامر به فقتل تحت ناظرية في ٢٥ شعبان سنة ١٣٧ هـ .

وتقول النصوص ان جعفر بن حنظلة لما نظر الي ابي مسلم مقتولا قال للمنصور يا أمير المؤمنين عد من هذا اليوم خلافتك" [٢]

وبعد مقتل المنصور لابي مسلم خطب الناس وحلرهم من الخروج من انص الطاعة الي وحشة المعصية وبرر موقفه من الرجل الذي ابلي في سبيلهم أحسن البلاد بقوله ، ولم يمنعنا الحق له من انشاء الحق فيه" [٣]

(١) ابن الاثير ، الكامل ج ٤٤ ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٢) نفس المصدر السابق ص ٣٥٥ .

(٣) ابن الاثير ، ج ٤٤ ص ٣٥٦ .

الموقف في خراسان عقب مقتل ابي مسلم

ثورة سنباذ:

لم يمر موت ابي مسلم بسلام وذلك انه قامت بخراسان ثورة تطالب بدم ابي مسلم هذه الحركة تزعمها رجل من احدي قري مدينة نيسابور اسمه "سنباذ" . واستجاب لدعوة هذا الرجل التي قالت بعودة ابي مسلم "وانه لم يموت ولن يموت حتي يظهر فيملاء الارض عدلا [١] كثير من الناس .

واستطاع سنباذ ان يستولي علي نيسابور وقومس والري . واتي بالكثير من أعمال العنف والتخريب والنهب ولكن جيوش الخليفة تمكنت من عزيمته بين همدان والري وانتهى الامر بقتله [٢] .

ولكن هذا لايعني خضوع خراسان الا ستظل البلاد ارضا خصبة صالحة لقيام الحركات المعادية للدولة الا تقول الرواية انه في سنة ١٤١ هـ قام الراوندية من اهل خراسان ممن يدينون بانكار ابي مسلم ويعتقدون بتناسخ الارواح، ونادوا بالوهية المنصور وساروا من خراسان الي الهاشمية وحاول الخليفة ان يستعمل معهم اللين والسياسة ولكنه لم يوفق في ذلك مما اضطره الي التشدد معهم واستعمال العنف والقوة فحبس زعماءهم ولكن الامر تطور الي ان قاموا بثورة هددت المنصور نفسه. اذ كسروا السجن واخرجوا

(١) المسعودي، مروج الذهب، ج٤، ص ١٤٤ .

(٢) انظر ابن الاثير، ج٤، ص ٣٥٧ .

أصحابهم واتجهوا نحو الخليفة الذي أظهر شجاعة نادرة في قتلهم
والتنكيل بهم.

وسيطل حزب أبي مسلم هنا قائما وسيضم إليه كثير من أهل
البلاد واتخذ هذا الحزب المناوئ للدولة شعارا مضادا شعارا الدولة
الآ وهو اللون الأبيض وعلي ذلك أصبحوا يسمون بالمبيضة [١].

هذا عن ثورات المشرق ذات الأفكار الخارجة .

كذلك عرفت الدولة بعض الثورات مثل: ثورة الخوارج في
الجزيرة تلك الثورة التي اخمدتها الدولة [٢].

والثورة التي قام بها القائد - الذي هزم سبناذ في سنة ١٣٨
هـ وهو جمهور بن مرار العجلي - هذا الرجل بعد أن هزم سبناذ
واستولي علي خزائنه، رفع راية العصيان، ولكن انتهى الأمر بهزيمة
جمهور، ومقتل الكثير من أصحابه . وهرب جمهور الي اذربيجان ولكن
أصحابه قتلوه وحملوا رأسه الي المنصور .

ثورة عبد الجبار بخراسان

في سنة ١٤١ هـ قام والي خراسان عبد الجبار بن عبد الرحمن
الأرذي بثورة وسير اليه الخليفة ابنه ولي عهده المهدي الذي تمكن

(١) ابن الأثير، ج ١، ص ٣٦٥-٣٦٦ .

(٢) ابن الأثير، ج ١، ص ٣٥٨-٣٥٩ .

من القضاء علي الثورة بسهولة . ولكن المنصور حرص علي الا يضيع نفقات الحملة التي كان قد جهد في تجهيزها فوجهها الي بلاد طبرستان .

وفي سنة ١٤٢ هـ قام والي السند عيينه بن موسي بن كعب، الذي كان بعيداً في أقصى المشرق بالثورة ولكن الدولة استطاعت أن تقضي عليه، كما أنها اقترت الأمور وقضت علي الثورة التي قامت في بلاد الديلم وهذه الحملات حمت حدود الدولة وصانتها [١] .

موقف العلويين:

أن العباسيين كما نعرف - عندما قاموا بثورتهم انما قاموا بها باسم آل البيت وانتقاما وثارا لمقتل العلويين واستغلوا عطف الناس علي العلويين خاصة في بلاد الحجاز . وحين بدأ محمد بن علي بن عبد الله بن العباس دعوته السرية كان حذرا واستند في ادعائه بالخلافة الي وصية ابي هاشم عبد الله، كما كان شعار الدعوة الي "الرضا من آل محمد" واستطاع ابنه ابراهيم الامام الذي خلفه في زعامة الدعوة ان يوجه جهوده الي خراسان حيث توجد القبايل العربية المتلمزة من الادارة الاموية . وكللت جهوده بالنجاح الا انه قتل قبل وصول الشيعة العباسية الي العراق واحتلالها الكوفة .

وقد بايع زعماء الدعوة ابا العباس عبد الله بن محمد خليفة

(١) انظر، ابن الاثير، الكامل، ج ٤، ص ٣٦٨ .

للدولة العباسية وما ان تسلم العباسيون مقاليد السلطة حتي نظروا الي العلويين نظرة ريبة باء تبارهم المنافسين لهم علي الخلافة ويشكلون مصدر خطر علي الدولة الجديدة . أما الشيعة العلويون فقد نظروا الي العباسيين كمغتصبين للسلطة من اصحابها الشرعيين . وهكذا دخل النزاع حول الخلافة مرحلة جديدة حيث أصبح نزاعا بين الهاشميين انفسهم . بين العباسيين والعلويين [١] .

علي أن العلويين لم يكونوا متحدين او متقنين علي زعامة واحدة تنظم كفاحهم المسلح وغير المسلح تجاه العباسيين . ثم ان كثرة القيادات العلوية يعني بالتالي ان ولاء الشيعة في تلك الفترة لم يكن باتجاه واحد واضح نحو فرع علوي معين .

قامت حركة العلويين ضد أسرة بني العباس في المدينة ، وكانت المدينة مركز الأسرة العلوية الكبيرة ، وكان المنصور ، يعتقد أن للعلويين سلطانا كبيرا هناك ولذلك فهو شديد الحرص علي قمع حركتهم وعلي بسط سلطانه علي الحرمين بصفته الامام . واجتهد المنصور في طلب مدبري الثورة وهما : محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن الذي يلقب " بالنفس الزكية " [وكان يدعي بالنفس الزكية لزهده ونسكه كما يقول المسعودي] واخوه ابراهيم . وكانت الدعوة للنفس الزكية والسبب في مطالبة محمد بن عبد الله بن الحسن

(١) انظر ، د. ماروقي - عم ، بحوث في التاريخ العباسي ، الطبعة الاولى بيروت ، لبنان ١٩٧٧ ، ص ٩٣ (موقف العلويين السياسي من العباسيين اولا : الموقف كما تعكسه الرسائل المتبادلة بين المنصور ومحمد النفس الزكية) .

بالخلافة انه كان يري احقيته في الملك وذلك من قبل ان يلي المنصور وربما قبل أخيه ابي العباس . وتقول الروايات ان ابا مسلمة كان قد راسل عبد الله بن الحسن ابو محمد هنا وانه عرض عليه الخلافة وان عبد الله قبلها . وكان يرسل جعفر الصادق ولم يقبلها ولولا تأخر الرسول في العودة لربما انتقلت الامامة فعلا الي الفرع العلوي .

وتقول الرواية ان عبد الله عندما عرض عليه هذا الامر قال :
انما يريد القوم ابني محمد لانه مهدي هذه الامة [٩] .

وكان محمد النفس الزكية واخوه ابراهيم قد تخلفا عن الحضور مع من حضر عنده من بني هاشم مع من حج علي ايام السفاح . والظاهر ان محمد ادعي ان المنصور كان قد بايعه في مكة في اواخر ايام مروان بن محمد وعلي هذا الاساس قام هو بالدعوة لنفسه . وهناك تفاصيل عن مطالبة المنصور لمحمد ولأخيه ابراهيم فند سنة ١٤٠ هـ الي سنة ١٣٦ هـ حينما اعلن الثورة .

في هذه الفترة تجشم العلويات الكثير من المشاق واضطر الي التنقل بين البصرة والمدينة والسند والكوفة كما ارسل محمد اخوته

(١) نفس المرجع ، ص ٩٣ .

وابناءه في سائر الامصار والبلدان للدعوة له، فأرسل ابنه عليا الي مصر يدعو اليه ولكنه قتل بها [١].

وحاول العلويون ان يدبروا مؤامرة لقتل المنصور في موسم الحج في سنة ١٤٠هـ ولكن هذه المؤامرة فشلت وراح ضحيتها بعض اصحاب محمد الذي كان قد عاد الي المدينة وتمكن بفضل تساهل واليها من الخروج عنها . وعزل المنصور هذا الوالي وعين مكانه محمد بن خالد بن عبد الله القسري وأمدّه بالاموال وفوض اليه سلطات واسعة في كشف «تفتيش» المدينة ولكنه لم ينجح في مهمته . فعين المنصور عاملاً اخر مكانه اسمه رياح بن عثمان بن حيان المري [٢] وذلك في سنة ١٤٤هـ وجد الوالي الجديد في طلب محمد ولكنه لم ينجح فلجأ الي سجن كل العلويين من أبناء الحسن من الفرع الحسيني وليس من الفرع الحسيني فقيدوا بالحديد والسلاسل وعذب بعضهم بقسوة في حضرة المنصور، بل قتل البعض . ويسير بعدد منهم الي الكوفة حيث حبسوا . وازاء هذه الاجراءات التعسفية اضطر محمد ان يضع حدا لهذه المأساة وذلك بأن اعلن الثورة في سنة ١٤٥هـ وعلم الوالي بما يدبره محمد فحاول تلافئ الثورة وحمل اهل المدينة المسئولية الجماعية . وكان يساند الحركة العلوية من الناحية الشرعية القانونية الفقية مالك بن انس صاحب المذهب المالكي . من ذلك ان مالك بن انس حلل الناس من البيعة ومن يعين

(١) ابن الاثير، ج ٤، ص ٣٧٤.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٣٧٣.

الولاء للمنصور فقال لهم " انما بايعتكم مكرهين وليس علي مكره
يمين [٦] ولذلك لم يفلح التهديد وتشاور العلويون وكسروا السجن
وحرروا اقاربهم ممن كانوا قد سجنوا وتوجهوا الي دار الامارة
واستولوا عليها وأسروا الوالي.

وبعد أن استولي محمد علي المدينة بدأ في تنظيمها الاداري
فاستعمل واليا وقاضيا وصاحب بيت السلاح وصاحب الشرط، وكذلك
انشأ ديوتا للعملاء وسجل في الديوان اسماء اعوانه واتباعه.

وبدا محمد يرسل الولاة الي الاقاليم المختلفة، لدولته الناشئة،
فأرسل واليا الي مكة هزم واليها العباسي وبعث باخر الي اليمن،
وبثالث الي بلاد الشام. ولكن هذا الاخير لم يستطع ان ينجح في
مهمته.

ويمكننا ان ننظر الي اختيار محمد للمدينة كمركز لثورته علي
انه عمل لا يدل علي بعد النظر السياسي، والظاهر أن محمد نفسه
كان يعرف ذلك اذ تقول الرواية أنه قال في خطبته في المسجد:
"أن أحق الناس بالقيام في هذا الدين ابناء المهاجرين والأنصار"
وقال: اني والله بين أظهركم وانتتم عندي أهل قوة ولاشدة ولكني
اخترتكم لنفسي [٢] هذا يعني ان المسألة في نظرة كانت مسألة
تقليد وسنة لاتقوم علي اعتبارات اقتصادية أو بشرية وهذا لا يكفي

(١) نفس المصدر السابق، ص ٣٧٣.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٣.

وهذا لا يكفي بطبيعة الحال لأن الظروف كانت قد تغيرت عما كانت عليه في الفترة الأولى في بداية الإسلام.

وعندما بلغ المنصور خبر الثورة جزع وطلب النصح من كل مايمكنه نصحه رغم علمه بعدم خطورة ثورة محمد في المدينة فإنه لجأ الي استعمال السياسة والهداية وكتب الي محمد ويطلب اليه العودة الي الطاعة ويعطيه الامان المطلق له ولاهله ولكل من بايعه مع الوعد بالزرق والعطاء الجزيل كما انه سوغه ما أصاب من دم أو مال . ورد محمد بالرفض بطبيعة الحال .

وهذه المراسلات التي دارت بين المنصور وبين محمد النفس الزكية تبين الاسانيد الشرعية والجدل الفقهي الذي كان يستند اليه كل من الفريقين فمحمد يقول: "فإن الحق حقنا وانما ادعيتهم هذا الامر بنا وخرجتم له بشيعتنا"، كما يقول "أن ابانا عليا كان الوصي وكان الامام فكيف ورثتم ولايته وولده احياء؟ ثم يقول: "وانا بنوام رسول الله صلي الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو في الجاهلية وبنو بنته فاطمة في الاسلام".

ثم هو بعد ذلك يؤمن المنصور ان دخل في طاعته واجاب دعوته علي نفسه وماله وعلي كل امر احدثت الا حدا من حدود الله أوحقا لمسلم أو معاهد فقد علمت مايلزمني من ذلك [١] .

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٥

وهذا الشرط الأخير يدل علي صلابة في الرأي فيما يتعلق بالأمور الدينية وهو يدل في نفس الوقت علي عدم بعد النظر السياسي . كما أنه يلاحظ أن أمان المنصور لا يعتد به ويذكر بالأمان الذي أعطاه لابن هبيرة ولعمه عبد الله بن علي والأمان الذي أعطي لأبي مسلم .

ولم يكن من العسير علي الخليفة العباسي أن يفند ادعاءات العلوي فهو يلتفت نظره الي أنه فخر بقرابة النساء لتضل به الجفاة والافوغاء ولم يجعل النساء كالعومة لأن الله جعل العم أبا . يحتج أن العباس من أعمام النبي صلي الله عليه وسلم أسلم تبعاً لما تقوله الآية : "وانذر عشيرتك الأقربين" بينما لم يسلم أبو طالب ثم هو يفند حقوق علي بن أبي طالب في الخلافة ويدفع بعدم كفايته لأنه رغم سابقته في الإسلام دعا النبي عندما مرض غيره للصلاة بالناس ثم أنه لم ينتخب يوم السقيفة . ولما كان في الستة الذين عينهم عمر تركوه كلهم دفعا ولم يروا حقاً له فيها .

وبعد أن يروي له قصة جهاد العلويين وفشلهم علي أيام علي الذي اجتمع الحكمان علي خلعه وحسن الذي باعها من معاوية وحسين الذي قتل ثم تقتيل الأمويين لهم . ويقول أن العباسيين هم الذين طلبوا ثأرهم وأدركوا بدمائهم وأنه لا يجوز له أن يأخذ ذلك حجة عليهم [١] .

هنا عن دفع العلويين وتفنيد حججهم ثم هو بعد ذلك يبين

(١) ابن الأثير ، ج ١ ، ص ٦٠٦ .

ادعاءات العباسيين في مطالبتهم بوراثة خلافة النبي فيقول ان العباس كانت له سقاية الحج . وولاية زمرم في الجاهلية والاسلام ثم يذكر حقوق العباس التي لا تنازع في هذا الميراث وهو انه لم يبق من بني عبد المطلب بعد النبي غيره بمعني انه يريد ان يجعل الخلافة تركه يرثها اقرب الناس الي النبي وهذه هي وجهة نظر اقارب النبي والشيعة . وهي في الحقيقة بعيدة عن السنة وعن روح الاسلام .

تلك كانت حجج كل من الفريقين . وكان علي القوة ان تقرر لمن تكون الخلافة . وندب المنصور عيسي بن موسي ولي العهد لمحاربة العلوي وارسل معه ابنه محمد واقترب عيسي من المدينة ، واستشار محمد النفس الزكية اتباعه فاشار عليه البعض بالخروج من المدينة ولكنه اخذ برأي القائلين بالمقام ثم انهم بتفكيرهم المثالي التقليدي الساذج فكروا كما فعل النبي في حفر خندق يحميهم من المهاجمين . هنا مع ان بعضهم لم يرغب عنه . . ضعف هذا الموقف من الناحية العسكرية الاستراتيجية .

ولم يكن تأييد اهل المدينة لمحمد قويا ، كما خرج اناس من اهل المدينة بلراديهم واهليهم الي الاعراض والجبال وبقي محمد في شردمة يسيره وامر المنصور نائبه الايقاتل اهل المدينة الافيا ندرو ان يتسامح معهم ، ولكنه الح عليه في القبض علي محمد وعدم تمكينه من الهرب وان يعلن مسئولية جميع القبائل اذا تمكن النفس الزكية

من الفرار . وعرف محمد خنوع المدنيين واتخذ معهم بعض الاجراءات
العنيفة ولكنه سمح في اخر الامر لمن يريد الخروج منهم ان يخرج .
وحاصر عيسى المدينة وسد منافذها وتمكن جنده من الوصول الي
الخدق فردموه وتفرق معظم اتباع محمد النفس الزكية الذي سقط
قتيلا بعد قتال سريع مجيد وذلك في منتصف رمضان سنة ١٤٥هـ
كانون أول «ديسمبر» ٧٦٢م [١]

ولم يكن للثورة العلوية من رد فعل في المدينة الا اضطراب
السودان في البلد الذين استولوا علي بعض امتعة الوالي الجديد ولكن
أمرهم انتهى الي الهدوء [٢]

وهكذا يقضي المنصور علي محمد النفس الزكية ولكن بقي اخوه
ابراهيم الذي خرج في البصرة والتي كانت ثورته اشد خطرا علي
المنصور .

ثورة ابراهيم بن عبد الله بن الحسن اخي محمد
بالبصرة:

كان ابراهيم يدعو - كما سبق القول - لآخيه محمد، واغلب
الظن ان الاخوين كانا قد اتفقا علي أن يعملوا منفصلين، وذلك حتي
تتم المباغطة للدولة وحتى اذا ما انهزم احدهما نجا الآخر ولو عرف
ابراهيم كيف يستغل الظروف ويسير بجيوشه ضد المنصور وقت ان

(١) ابن الاثير، الكام، ج ٥، ص ٨-١١.

(٢) ابن الاثير، ج ٥، ص ١٣-١٤.

كان المنصور في ضعف نتيجة لانتشار قواته في اطراف الدولة لربما انتهت ثورته في البصرة بالنجاح.

وكما تقول الروايات اتخذ ابراهيم المشرق مجالاً لنشاطه. وذلك في فارس وكرمان والاهواز وذلك قبل قدومه البصرة واستقراره بها.

وبدا ابراهيم حركته في البصرة في شهر رمضان سنة ١٤٥ هـ [١] بداية طيبة وكانت الظروف مواتية له اذ تقول رواية - خليفة بن خياط، التي ترجع الي شهود عيان للاحداث ان الوالي سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب سلم دار الامارة الي ابراهيم من غير قتال [٢] ثم قوي امره بما استولي عليه من دواب الجند وما أخذه من الأموال بعد الاستيلاء علي دار الامارة . واستطاعت طلائع قواته وان تحرز بعض النصر علي القوات العباسية فاستولت علي الاهواز بعد ان الحقت الهزيمة بواليتها، كما نجحت في دخول فارس وتمكنت من تملك مدينة واسط، وهي المركز الاستراتيجي الممتاز في سنة الوقت.

ولم يكن لدي المنصور، إلا قلة من العسكر، اذ كانت جيوش الدولة موزعة في الحجاز وفي خراسان وفي الفريقية التي كانت مضطربة ايضا، واحس المنصور بخرج موقفه فأظهر الزهد والتبسك والتعشف. ولكن سرعان ما استعاد رباطة جأشه فاستدعي عيسى بن موسي من المدينة وطلب بعض جيوشه التي كانت بالرجي وكتب الي

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ١٦.

(٢) ابن الاثير، تاريخ خليفة بن خياط، ج ٢، ص ٦٤٩.

المهدي ابنه يأمره بارسال القوات لاستعادة الاهواز ووجه عيسي بن موسى الي قتال ابراهيم وطلب اهل الكوفة من ابراهيم المسير ليستعين بهم ولكن النصوص تقول انه كان مثاليا فخشي ان خرج اهل الكوفة اليه ان تفتك خيل المنصور بنسائهم واطفالهم [١] .

وأخيرا خرج ابراهيم من البصرة للقاء عيسي ونزل في موضع يعرف باسم باخمرا "علي بعد ١٦ فرسخ من الكوفة" وحسب تقاليد هؤلاء الثوار المثاليين، وكما حدث في المدينة رفضوا ان يقاتلوا فرقا حتي اذا ما انهزمت فرقة خرجت فرقة غيرها للقتال واصروا علي ان يقاتلوا مفا مثل اهل الاسلام رغم ما قيل لهم من ان الصف اذا انهزم تداعي سائره واقتتل الناس قتالا شديدا، وانتصر اصحاب ابراهيم في البداية ولكن الامر انتهى بهزيمتهم وبمقتل ابراهيم في ٢٥ من ذي القعدة سنة ١٤٥ هـ .

وبذلك اندحرت الثورة العلوية وخلص الامر للعباسيين .

بناء مدينة بغداد:

انصرف اهتمام المنصور، الي تشييد حاضره جديدة للدولة . وكان قد شرع في ذلك، عقب توليه الخلافة مباشرة . فتقول النصوص انه كان يبحث عن موضع مناسب لتلك العاصمة . وكان السفاح قد استقر في الانبار في الهاشمية وهي التي استقر فيها المنصور في اول

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ١٥ - ص ١٨٠ .

عهده - ولما كانت الهاشمية علي الضفة اليسري للفرات فانها كانت قريبة من الكوفة . والكوفة كانت مركز العلويين وهي التي سببت الكثير من القلاقل للدولة الاموية ربما كان هذا هو السبب في عدم اختيار ذلك الموضع لبناء العاصمة الكبرى .

وتجمع الروايات علي أن المنصور لم يبن مدينته الجديدة في مكان قفر خال من السكان بل ان الكتاب يذكرون عددا من الأماكن العامة بالقرب منها ويذكرون من بين هذه الأماكن بغداد علي الضفة الغربية لنهر دجلة وربما كانت هذه القرية نواة عاصمة المنصور المستديرة .

واسم بغداد يعني "عطية الله" وتقول النصوص ايضا ان المنصور عندما بناها سماها "مدينة السلام" وكان يطلق علي المدينة ايضا اسم المنصورية وذلك نسبة الي بانيها وكذلك عرفت باسم الزوار .

وكان اختيار المنصور لذلك الموضع موقفا وذلك ان ازدهار المنطقة يرجع الي مركزها الممتاز من نواحي كثيرة . فالارض في هذا المكان خصبة جيدة بسبب وقوعها بين دجلة والفرات في ذلك الموضع الذي تضيق به المسافة بين النهرين، فكان يمكن تهيئة وسائل الري فيها بسهولة عن طريق القنوات التي تصل بين النهرين والتي كانت مألحة للملاحة . ووجود هذه القنوات كان يجعل المدينة في

موضع استراتيجي حصين فتقول الرواية انه قيل للمنصور عندما اختار هذا الموضع: "ات بين انهار لا يصل اليك عدوك الا علي جسر أو قنطرة فاذا قطعت الجسر واخربت القنطرة لم يصل اليك. ودجلة والفرات والصرافة خنادق هذه المدينة، وانت متوسط للبصرة والكوفة وداسط الموصل والسواد وانت قريب من البر والبحر والجبل" [١].

ووضع المنصور بيده اول لبنة في بناء المدينة في سنة ١٤٥ هـ وقال "بسم الله والحمد لله والارض لله يورثها من يشاء من عبادة والعاقبة للمتقين ثم قال ابنوا علي بركة الله" [٢]

وبعد تخطيط المدينة، وبلوغ السور مقدار قامة، قامت الثورة العلوية في المدينة والبصرة فصرف المنصور كل همه اليها وترك البناء حتي تم له القضاء علي النفس الزكية واخيه ابراهيم.

واستلزم البناء جمع عدد كبير من الصنائع والفعلة من مختلف الجهات وهناك تفصيلات عن العمال ومراتبهم من: الاستاذ الي الروزكاري. وأشرف علي البناء وحساب النفقات قوم من ذوي الفضل والعدالة والفقهاء وذوي الامانة والمعرفة بالهندسة من هؤلاء الفقيه الشهير ابو حنيفة النعمان صاحب المذهب الحنفي [٣].

وقسمت المدينة الي أربعة مناطق تسمي ارباع وذلك تحت

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ١٤

(٢) نفس المصدر السابق، ص ١٥.

(٣) ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ١٥.

اشراف اربعة من القواد يسهرون علي العمل الذي استمر طوال اربع سنوات. وخططت المدينة ورسمت حسب خطة جعلتها تتسع في شكل دائري. فالتص يقول "وجعل المدينة مدورة لئلا يكون بعض الناس اقرب الي السلطان من بعض وبدئ ببناء قصر الخليفة في وسطها، والي جانب القصر بني المسجد الجامع. ويفهم من النصوص ان مدينة المدائن القديمة امتدت ببغداد بكثير من مواد البناء الكبيرة التي قامت عليها. وحول نواه المدينة اي حول القصر والجامع تجمعت ببغداد في شكل دائري وقسمت الي احياء منفصلة تخترق هذه الاحياء طرق عريضة مستقيمة كان يبلغ عرض الطريق منها ٤٠ ذراعا واتسعت المدينة وعملت فيها مجاري المياه، وأقيمت فوقها القناطر وانشئت الصهاريج، وحصنت المدينة تحصينا قويا حتي تكون الاقامة فيها مأمونة ثم احيطت بسورين أحدهما من الداخل والاخر خارجي، وكان السور الداخلي اعلي من السور الخارجي. وكانت المنطقة بين السورين تسمى الفصيل. وجعل للمدينة أربعة ابواب المسافة بين كل من باب من ابوابها والباب الذي يليه تقدر بميل. ومن هذه الابواب باب خراسان وكان يسمى باب الدولة لاقبال الدولة العباسية من خراسان وهو في الشرق وباب الكوفة الذي يسمى ايضا باب الكوخ في اتجاه الكوفة وفي اتجاه الحجاز وفي الغرب باب الشام، وفي اتجاه الجنوب باب البصرة، وهو يوصل الي منطقة الاهواز وفارس وخورسنان. ويقال ان المنصور لم يصنع للمدينة ابوابا جديدة ولكنه استجلب لها الابواب من مدينة واسط باستثناء باب الشام الذي صده المنصور. وشعر المنصور بضيق قصره وسط المدينة التي تموج بالسكان، وبني بعد الانتهاء من المدينة المدورة وخارج اسوارها

الشرقية قصرا ثانيا هو قصر الخلد . وحدث شغب بين أهل السوق
فاضطر الخليفة ان يخرج اهل الاسواق من المدينة وان يسكنهم في
منطقة الكرخ في الجنوب . وبني ايضا المنصور الجزء الشرقي من
بغداد وأنشأ في هذا المكان الجديد وشمال القصر الذي خصص ليكون
معسكرا لولي العهد المهدي قصر "الرصافة" [١] ووزعت الاراضي
المحيطة بالمدينة كاقطاعات لأقارب المنصور ولعواليه وللكبار رجال
الحاشية .

ومن هذا الوصف يمكن ان نرجع ان المنصور عندما بني مدينته
كان يهدف الي بناء 'معسكر لجنده الخراسانية بعيدا عن مدينة الكوفة
بمعني أن نشأة بغداد كانت اشبه ماتكون بنشأة المدن التي بنيت في
مصر الاسلام مثل: البصرة والنسطاط والقيروان التي أسست لتكون
قواعد عسكرية للجند العربي في تلك الاقاليم .

بعض مظاهر نظم الدولة :

وظهرت المدينة الجديدة بمظهر يختلف عن مدينة دمشق حاضرة
الامويين فالخليفة العباسي ظهر بمظهر الامام أولا وقبل كل شيء
وكلمة الامام هنا لها معني دينيا اكثر من كلمة الخليفة او كلمة
امير المؤمنين فالامام هنا مشتقة من امانة الصلاة .

وعمل العباسيون علي تأكيد صفتهم الدينية هذه فكانوا يرتدون

(١) انظر الاشارة الكتاب ١ ج ٥ ص ٣٣-٣٤ .

البردة التي كان يلبسها الرسول «صلي الله عليه وسلم» هذا في الوقت الذي عهدوا فيه بجزء كبير من سلطانهم الزمني الي الوزير . ووظيفة الوزير تعتبر تجديدا عباسيا فيما يتعلق بادارة الدولة وذلك ان اللقب لم يعرف عند الامويين قبل ذلك . كان اللقب عند الامويين هو لقب الكاتب (١) .

واحاط الخليفة العباسي نفسه بمظاهر الابهة والعظمة .

اما عن البلاط العباسي، فكان يظهر فيه الي جانب افراد الاسرة وآل النبي صلي الله عليه وسلم، وهؤلاء كانوا يكونوا طبقة الاعيان، الي جانبهم كان يظهر كبار رجال الدولة والموالي، كما كان هناك القراء والفقهاء والاطباء وعلماء الفلك والشعراء والموسيقيون والمضحكون والخصيان . كل هذا يعني ان خليفة بغداد لم يعد شيخ قبيلة بل اصبح وريث ملوك فارس .

ولم تعد الوظائف الكبيرة في الدولة وفقا علي النبلاء بل اصبحت تمنح وكذلك اصبحت الملابس الرسمية التي تعرف بالخلع هي السمة المميزة لاصحاب الرتب الكبيرة، وكذلك القلائس الطويلة التي أمر المنصور كبار موظفيه بلبسها .

واذا كان الامويون قد عرفوا وظيفة الحاجب وهو الرجل الذي

(١) انظروا الجهشيارى، كتاب الوزراء، ص ٤٩٤، ص ٨٤-٨٥ .

ينظم مقابلات الخليفة فان الخليفة العباسي اصبح بعيدا كل البعد عن العامة بفضل عدد كبير من الحجاب والموظفين ورجال الدولة الذين كانوا يزدادون عددا من مرور الوقت.

والي المنصور يرجع الفضل في وضع نظم الدولة العباسية فقد حافظ علي النظام الساساني البيزنطي الذي كان معمولا به علي أيام الامويين كما أنه جدد بناء هذا التنظيم فأصبح علي كل ولاية عامل او وال وكان لافراد الاسرة نصيب كبير في هذه الولايات.

البريد

وبفضل نظام البريد الذي عرفه الامويون والذي توسع فيه المنصور استطاع الخليفة ان يفرض رقابة شديدة علي ادارة الولايات المختلفة .

وكان علي اصحاب البريد ان يقوموا بكل الاستعلامات رغم ان عملهم كان يتركز في امداد الخليفة بالمعلومات المتعلقة بقيام الولاة باداء مهام وظائفهم في أعمالهم . وكانت تقارير اصحاب البريد لها أهمية خاصة فعن طريق هذه التقارير كان تعرف حالة المحاصيل فتتخذ الاجراءات المناسبة في الوقت المناسب عندما يكون الوقت وقت جذب . وكانت احصاءات البريد هذه المصدر الذي استقي منه الجيل التالي علم الجغرافية الذي ازدهر عند العرب .

وتقول النصوص ان المنصور قال: "ما احوجني ان يكون علي بابي اربعة نفر لايكون علي بابي أعف منهم هم اركان الدولة ولايصح الملك الايهم. اما احدهم فقاص لاتأخذه في الله لوحة لآدم، والاخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي وماحب حراج يستقصي ولايظلم الرعية فاني عن ظلمها غني ثم عض علي اصبعه السبابة ثلاثة مرات يقول في كل مرة اه اه قيل: ماهو ياامير المؤمنين؟ قال: صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء علي الصحة [١] .

الفقه:

وضم المنصور الي بلاطه كبار الفقهاء وأصحاب المعرفة بعلم الحديث والفقه . وكان تقرب الفقهاء يعني ان الدولة المثالية التي تعتنى بنشر العدل والشرع اصبحت حقيقة واقعة .

وفي ذلك الوقت كان مؤسسا المذهبين الكبيرين الا وهما: المذهب الحنفي والمذهب المالكي علي قيد الحياة كانا يميلان الي العلويين يقال ان ابا حنيفة كان يميل الي ابراهيم بن عبد الله عندما قام بثورته في البصرة .

وأبو حنيفة النعمان بن ثابت كان من الموالي هلا ولوان اصحابه وتلاميذه سيضعون له نسبا يرجع الي ملوك آل ساسان .

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٤٦

وعاش ابو حنيفة في الكوفة وكان يشتغل بتجارة الحرير، وتوفي ابو حنيفة في سنة ١٥٠هـ / ٧ في بغداد . وكان قد قام بالقاء الدروس في الكوفة وكانت له اراؤه الفقهية وفتاويه . وتتميز مدرسة ابوحنيفة في التوسع في استعمال "الرأي" وكذلك القياس

اما عن مالك بن انس مؤسس المذهب المالكي بالمدينة فقد عرف بعميله للعلويين ايضا، والظاهر أنه عوقب وضرب بالسياط لهذا السبب وذلك بعد ان فشلت ثورة النفس الزكية . ولكن الخلفاء سيقدرون مالك فيما بعد وسيزوره هارون الرشيد عند ادائه فريضة الحج وذلك قبل موته بقليل . وبينما كان اتباع مالك ينشرون مذهبهم في بلاد العرب خاصة وفي الاندلس، دخل الحنفيون في خدمة النولة وعملوا علي نشر مذهبهم وخاصة بعد أن شغل أبو يوسف واحد تلاميذ ابو حنيفة منصب قاضي القضاة، فأصبح المذهب الحنفي هو المذهب الرسمي .

ومدرسة مالك بن انس مبنية علي الأحاديث وذلك بسبب وجوده في مدينة الرسول صلي الله عليه وسلم وهويهتم بالمتن أكثر من اهتمامه بالاسناد وهو علاوة علي اتخاذ القرآن والسنة كأصلين للتشريع يضيف اليهما ما تعارف عليه اهل المدينة . أي انه يري ان الأجماع هو اجماع اهل المدينة .

فتنة الموصل سنة ١٥٨هـ:

وبتأسيس العاصمة الجديدة بغداد أصبحت سياسة الدولة شرقية ورغم أن المنصور اهتم اهتماماً كبيراً بتأمين وصيانة حدود دولته فعمل علي تعقب الخارجين والقضاء عليهم فان هذه السياسة الحازمة لم تمنع قيام الثورات في كثير من الجهات من ذلك ثورة الخوارج بالموصل سنة ١٥٨ هـ والقتال التي أثارها الاكراد بهذه الجهات مما جعل المنصور يستعمل خالد بن برمك علي الموصل فتهر خالد المفسدين وكانت له هيبة في نفوس الناس [١].

ثورة استاذ سيس:

قامت بخراسان ثورة بقيادة رجل يعرف باسم استاذ سيس وذلك في سنة ١٥٠هـ، وكانت هذه الثورة خطيرة مثلها في ذلك مثل الثورات المذهبية التي قامت بايران. فيقال ان هذا الرجل ادعي النبوة وان اصحابه اظهروا الفسق وقطع السبيل، وانضم الي جانب هذا الرجل كثير من الاتباع "وغلب علي عامة خراسان". واستطاع ان يوقع الهزيمة بعدد من الجيوش العباسية، ولكن امره انتهى بالهزيمة بعد ان سبب للدولة متاعب شديدة [٢].

(١) ابن الاثير، الكامل، ٥٣، ص ٤٦-٤٧.

(٢) ابن الاثير، الكامل، ٥٣، ص ٢٨-٢٩.

السياسة الخارجية:

الحرب ضد بيزنطة:

أما عن السياسة الخارجية فإنها كانت تتلخص في الصراع الذي أصبح تقليديا بين الاسلام وبين الدولة البيزنطية، ولقد طال الصراع ضد بيزنطة لمدة زادت علي أربع قرون هي التي بدأت بالتوسع الاسلامي. وإنتهت سنة ١١٩٥هـ بالحروب الصليبية . ورغم طول هذه الفترة كانت هذه الحرب سقيمة لم يستطع احد طرفيها ان يحرز اثناءها انتصارا حاسما وخلال هذه الفترة عرفت بيزنطة عصرا من القوة علي ايام الابطارة الايسوريين وكان هذا من اسباب رجحان كفة بيزنطة ولكن اتت مسألة النزاع الداخلي في بيزنطة من اجل عبادة الصور ثم الاضطرابات التي دلتها فاضعفت من قوة بيزنطة وهكذا كانت الفرصة مواتية للمصور في سنة ١٤٩هـ ولكي يوجه هجوما ضد البيزنطيين .

والحقيقة ان الامبراطورية البيزنطية لم تكن مهددة تماما من جانب الخلافة كما ان الخلافة كانت أقل عرضة للخطر من جانب البيزنطيين ولهذا السبب يطلق بعض الكتاب الافرنج علي هذه الحرب اسم "حرب العظمة" فهو يري ان هذه الحرب لم تكن ضرورية ولكن الاسلام كان عليه ان يشعر دولة الكفار بسلطوته وهيئته ولهذا كانت تقوم القوات الاسلامية بتلك الحملات التي تعرف باسم "الصوائف

والشواتي" وهو يرى ان المصالح الاقتصادية بين بيزنطة وبين الاسلام كانت توجب قيام اتفاق ودي بين الطرفين

وعلي أية حال كان مجال العمليات العسكرية ضد بيزنطة هي المنطقة المحاذية لجبال طوروس في الشرق وهي المنطقة التي رقت عند الكتاب باسم "العواصم" أو "الثغور" ومعناها الحد الذي يفصل بين دولة الاسلام وبين دولة الكفر خلف هذه المنطقة كانت توجد الممرات والمنافذ في الجبال وكانت هذه الممرات محمية بالقواعد والقلاع، وهذه القواعد كانت مدنا اغريقية قديمة جددتها العرب واعادوا بناءها وحولوها الي حصون وأهم هذه الحصون ادنه وطرطوس والمصيصة وسميساط وملطية، ومرج دابق، وخلف هذه القلاع كانت تمتد اقاليم اسية الصغرى وهي ارض الروم وهذه الارض كانت هدف القوات الاسلامية خلال الصوائف والشواتي ترهب بها الاعداء وترجع بالسبي والمغانم اما عن الهدف الحقيقي للجيش الاسلامي فكان هو عاصمة الدولة البيزنطية . ولكن قوات الاسلام لم تستطع تحقيق الاستيلاء علي القسطنطينية .

والذي يلاحظ هو ان الصوائف لم تكن تذهب علي ايام المنصور الي بيزنطة الا اذا كان العسكر غير منشغلين في اخماد ثورة تقول الرواية في سنة ١٣٧هـ "لم يكن للناس في هذه السنة صائغ" لشغل السلطان بحرب سباز" [١]

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٤، ص ٣٥٨.

ولهذا السبب نجد انه في السنة التالية يتمكن الامبراطور قسطنطين من اخذ ملطية وبهدم اسوارها ولكن المسلمين استطاعوا ان يستعيدوها واعادوا بناءها وعمرها .

وبعد ذلك عقدت معاهدة في سنة ١٣٩ هـ بين المنصور وبين الامبراطور قسطنطين وعلي ذلك فلم تعد الغارات الا في سنة ١٤٦ هـ بعد ان انتهى المنصور من حرب العلويين [١] .

خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد والبيعة للمهدي:

اضطر عيسى في سنة ١٤٧ هـ ان يحل الناس من البيعة له وذلك بعد ضغط شديد من المنصور استعمل فيه الكثير من الاساليب العنيفة واخذ المنصور البيعة لابنه المهدي بدلا من عيسى الذي اصبح يلي المهدي في ولاية العهد - وتقول الرواية ان عيسى قال "انا ذا أشهد ان نسائي طوالق ومعاليكى احرار وما املك في سبيل الله تصرف ذلك فيمن رأيت يا أمير المؤمنين" .

ويقال ان الناس تندروا بعد ذلك بقولهم: "هنا الذي كان غدا فصار بعد غد" [٢]

(١) نفس المصدر السابق، ج ٤٤ ص ٣٥٩ - ٣٦٠ .

(٢) نفس المصدر، ج ٤٥ ص ٢٢-٢٣ .

وفاة المنصور:

وفي شهر ذي الحجة من سنة ١٥٨ هـ توفي المنصور وكان في طريقه الي الحج بالقرب من مكة .

وكان المنصور كما تصفه الروايات من الحزم ومواب التدبير وحسن السياسة علي ماتجاوز كل وصف [١] فقد كان يشغل صدر نهاره بالامر والنهي والولايات والعزل وشحن الثغور والاطراف وامن السبل، والنظر في الخراج والنفقات، ومصلحة معاش الرعية . . فاذا صلي العصر جلس لاهل بيته فاذا صلي العشاء الاخيرة جلس ينظر فيما ورد من كتب الثغور والاطراف . . وشاور سماره فاذا مضى ثلث الليل قام الي فراشه وانصرف سماره، واذا مضى الثلث الثاني قام فتوضا وصلي حتي يطلع الفجر ثم يخرج ليصلي بالناس، ثم يدخل فيجلس في ايوانه [٢] .

(١) البسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ١٦٣ .

(٢) ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٤٧ .

الفصل السادس

خلافة المهدي

خلافة المهدي

١٥٨ - ١٦٩هـ

مات المنصور - كما سبق القول - بالقرب من مكة وهو في طريقه لأداء فريضة الحج، واحتفل بتأيينه وأخذ البيعة لابنه المهدي.

ويفهم من النصوص أن الذي أخذ البيعة للمهدي هو ابنه موسى «الهادي» وكان من بين الحاضرين عدد من كبار رجال الدولة، وبعض عمومه الهادي بل وتذكر الرواية أن عيسى بن موسى، ولي العهد الثاني، كان حاضراً بدوره كان متردداً، والنص يقول: "أبي من البيعة" . ولكنه بايع [١]

ووصل نبأ وفاة المنصور إلى المهدي الذي كان ببغداد في منتصف شهر ذي الحجة وأرسلت إليه إشارات الملك وهي: بردة النبي صلى الله عليه وسلم، والقضيب وخاتم الخلافة .

وفي بغداد تمت البيعة الثانية للخليفة الجديد وهي "بيعة العامة وأولي" المشاكل التي اعترضت المهدي هي ولاية العهد، فقد كان عيسى بن موسى هو ولي العهد الثاني، ومر عيسى بن موسى بنفس المحنة التي عرّفها في عهد المنصور، فقد التعرض للأضطهاد

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٥، ص ٥٠.

والتهديد والترغيب ومحاولة اقناعه عن طريق الفقهاء والقضاة خلع نفسه في أوائل سنة ١٦٠هـ، وبايع للمهدي، كما بايع ابنه موسى الهادي بولاية العهد. ثم جلس المهدي في الغد، وأحضر أهل بيته وأخذ يبعثهم، وخرج إلي الجامع ومعه عيسى بن موسى فخطب الناس وأخبرهم بخلع عيسى والبيعة للهادي فأسرع الناس لمبايعته،

أما عن العلويين فلا تذكر الروايات أنه قام بأعمال عنيفة ضدهم وكان المهدي كما تقول الرواية محببا إلي الخاص والعام. لأنه افتتح أمره ببرد المظالم وكف عن القتل وأمن الخائف وأنصف المظلوم. -
إلا أن المهدي كما يفهم من النصوص استثنى بعض العلويين من التمتع بالعفو، وهو الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن علي مما اضطره إلي الهرب من سجنة وأقلق ذلك الخليفة ولكن الأمر انتهى بطلب العلوي الأمان من الخليفة فأمنه المهدي ووصله

وأطلق المهدي كما تقول الرواية ابني داود بن طهمان، الذي كان ينصر إبراهيم في البصرة وقرب ابنه يعقوب - بن داود - تقريبا شديدا واستوزره وقرب داود بدوره الزيدية من العلويين "فجمعهم وولاهم أمور الخلافة في الشرق والمغرب" وكان ذلك من الأسباب التي دفعت الشاعر بشار بن برد إلي أن يقول بيتية المشهورين:

بنى أمية هبوا طال نومكم ان الخليفة يعقوب بن داود

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الناي والعود

والظاهر ان الخليفة ادرك خطورة امر ترك مقاليد أمور الدولة الي وزيره فتخلص منه، سجنه، وذهب بصره في السجن، وبقي محبوسا حتي عهد هاروق الرشيد، اذ شفع اليه فيه يحيى بن خالد بن برمك، فأمر الرشيد باخراجه من سجنه، واحسن اليه ورد اليه ماله، وأختار يعقوب الإقامة في مكة فاقام بها حتي مات في سنة ١٨٧هـ [١] .

موقف الخوارج:

كان الخوارج يلجأون كعادتهم الي القيام بأعمال العنف والشدة من ذلك ما تذكره النصوص من قيام ثورة خارجية بخراسان في سنة ١٦٠ هـ تزعمها رجل يعرب باسم يوسف بن ابراهيم ويلقب "بالبرم" وقد قيل أنه كان حروريا واستطاع التغلب علي بوشنج ومرو الروذ والجوزجان، ولكن جيوش الخليفة استطاعت القضاء علي الثوار والقبض علي يوسف هذا الذي سبق الي الرصافة حيث قطعت يدها بها ورجلاه وقتل هو اصحابه وصلبوا علي الجسر .

وفي اواخر هذه السنة قامت ثورة خارجية أخرى بنواحي الموصل، ينفرد بذكر تفاصيل دقيقة عنها خليفة بن خياط في تاريخه، كما ينفرد بإيراد نص الرسائل المتبادلة بين الثائر الخارجي

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٦٦ .

عبد السلام الإشكوي والخليفة المهدي وقد سببت حركة الإشكوي -
الذي استولي علي معظم ديار ربيعه - الكثير من المتاعب للدولة،
وذلك قبل ان يقضي عليها ويقتل زعيمها .

الحركات المذهبية:

حركة المقنع:

أما عن الحركات المذهبية التي اشتهرت بها خراسان منذ مقتل
ابي مسلم فانها انتجت علي أيام المهدي ثورة كبيرة قام بها رجل
يعرفه الكتاب بلقب "المقنع" وهذا الرجل كان يؤمن بالتناسخ، واسم
هذا الرجل هاشم وهو من مرو الروذ، واعتنق هاشم فكرة التناسخ
والحول فقال: "أن الله خلق آدم فتحول في صورته، ثم في صورة
نوح- وهلم جرا الي ابي مسلم الخراساني ثم تحول الي هاشم . وكان
هذا يعني ان روح الله قد تجسستته وعلي ذلك يقول بعض الكتاب أنه
ادعي الألوهية . وبدأت الدعوة التي قام بها المقنع في منطقة كش
ونسف - من أرض ما رواء النهر - والتف حوله جمع كثير وأيده
أعداء الدولة من أتباع مذهب ابي مسلم الذين عرفوا بالمبيضة ببخاري
والصغد، وساعد هذه الثورة قيام الثورة الخارجية في خراسان «ثورة
البرم» وكذلك اعانة الترك الذين استنجد بهم فتمكن المقنع من
السيطرة علي الاقليم في وقت قليل، كما استطاع ان يحقق عددا من
الانتصارات علي قوات الخلافة التي سارت ضده: وكان الرجل يظهر

امام الناس مرتديا قناعاً، هذا القناع منسوج بخيوط الذهب حتي يبهر الابصار عن طريق اشراق الانوار الالهية كما كان يدعي . وتقول النصوص ان اتباعه كانوا يسجدون له، ولهذا السبب عرف بالمقنع وربما كان السبب في ارتدائه ذلك القناع هو محاولته اخفاء تشويه وجهه . اذ تقول الرواية "انه كان أعور" [١] .

وبعد عدة حملات كللت بالظفر استطاعت الجيوش العباسية هزيمة الثوار في منطقة بخاري بعد ان ضيقوا عليهم الخناق وحاصروهم حوالي اربعة اشهر ولكن المهزمين لم يستسلموا اذ لحقوا بالقوات الرئيسية للمقنع وطالت المناوشات طوال سنة ١٦٠ هـ دون جدوي في السنة التالية وهي سنة ١٦١ هـ تجمعت قوات الخلافة وتقدمت نحو التأثير، وشدت عليه الحصار حتي اضطر كثير من اتباعه الي الاستسلام وذلك بعد أخذ الامان سرا منه وبقي المقنع في قلة من اصحابه زهاء الفين، وعندما أيقن بالهلاك اضطر الي القاء نفسه هو وأهله ونسائه وخوامه في النار وذلك بعد ان احرق كل ما في قلعته . ومن دابة وثوب غير ذلك، وتقول الرواية انه قال: من أحب أن يرتفع معي الي السماء فليلق نفسه معي في هذه النار . [٢]

ورغم القضاء علي الفتنة، وقتل امير بخاري، فان ذلك المذهب

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٥٢٠ .

(٢) نفس المصدر، ص ٥٨٠ .

ظل باقيا في كش وبغض قري بخاري ونهاية هاشم الغريبة هذه كانت سببا في افتنان من بقي من اصحاب كما تقول النصوص [١].

وتقول النصوص ان المهدي^١ جد في طلب الزنادقة والبحث عنهم في الاثاق وقتلهم [٢] كما تقول الرواية انه قال لولي عهده الهادي وقد قدم اليه زنديقا فقتله وامر بصلبه يابني اذا صار الامر اليك فتجرد لهذه العصابة يعني اصحاب ماني - فانها تدعو الناس الي طاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا، والعمل للآخرة ثم تخرجها من هذا الي تحريم اللحوم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تخرجها، ثم تخرجها الي عبادة اثنين، احدهما النور والاخر الظلمة، ثم تبيع بعد هذا نكاح الاخوات والبنات والاعتسال بالبول وسرقة الاطفال من المهدي لينقلوهم من ضلال الظلمة الي هداية النور. فارفع فيها الخشب وجرد السيف فيها وتكرب بأمرها الي الله [٣]

وحوالي ذلك الوقت عهد المهدي بالتفتيش علي الزنادقة الي موظف خاص يعرف باسم المتولي لأمر الزنادقة او صاحب الزنادقة . وتذكر الرواية أن اول من تقلد هذا المنصب الجديد هو عمر الكلواذاني [٤] الذي توفي سنة ١٦٨، فولي مكانه محمد بن عيسى بن حمدويه الذي كان عنيقا "فقتل عن الزنادقة خلقا كثيرا" [٥].

-
- (١) ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٥٨٨.
 - (٢) انظر ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٦٩.
 - (٣) نفس المصدر، ص ٨١.
 - (٤) ابن الاثير، ج ٥، ص ٦٩.
 - (٥) ابن الاثير، ج ٥، ص ٦٣.

ولاشك في أن تهمة الزندقة هذه كانت تحقق للخليفة ولعماله هدفين في وقت واحد اول هذه الهدفين هو التخلص من الاعداء السياسيين والثاني كسب حب الشعب . وهناك نصوص نستشف منها ذلك فعندما يود الخليفة التخلص من وزيره يرميه بالزندقة وتذكر الرواية ان المهدي عندما تجهز لغزو الروم في سنة ١٦٣هـ، أرسل وهو بجلب - فجمع من يتلك الناحية من الزنادقة فجمعوا لقتلهم وقطع كتبهم بالسكاكين [١٦] .

ونهج خلفاء المهدي نفس السياسة فوجهوا تهمة الزندقة الي كل من ارادوا التخلص منه بل والي كل اصحاب الآراء التي لا ترضي الخليفة .

اما عهد المهدي فهو عهد ازدهار ورخاء . وقد قصد بابه الشعراء فآكرمهم واغدق عليهم . ويرجع الفضل الي المهدي في انشاء شبكة من الطرق وكذلك تحسين نظام البريد . وعلي ايام المهدي غدت مدينة بغداد المحطة الرئيسية لتجارة الهند، ويفضل اهتمام الخليفة ازدهرت الصناعة واهتم المهدي اهتماما خاصة كما تقول النصوص بالحرمين، فأمر ببناء المحطات للقوافل علي طول الطريق الي مكة، وأمر ببناء المصانع «الصهاريج» لخزن المياه، وحفر الآبار، وقلد هذا العمل لموظف خاص أطلق عليه "صاحب المصانع" [٢] . كما أمر المهدي كما تقول الرواية في سنة ١٦٧هـ باقامة البريد بين مكة

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٦٣ .

(٢) انظر، ابن الاثير، ج ٥، ص ٦٠، ص ٦٤ حيث تقول الرواية ان المهدي سار للحج، فاما بلغ العقبة وراي قلة الماء خافا ولحق الناس مطش شديد حتي كادوا يهلكون، فغضب المهدي علي يقطين لانه صاحب المصانع .

والمدينة وكذلك بينهما وبين اليمن "ولم يكن هناك بريد قبل ذلك" [١] وعلي أيامه جددت كسوة الكعبة، كما أمر بالزيادة في المسجد الحرام ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم [سنة ١٦٧هـ] فدخلت فيه دور كثيرة .

وعلي عهده أيضا تم بناء مسجد الرصافة وسورها وخدمتها، كما زاد في مسجدي البصرة والموصل [٢]

وتنسب إليه النصوص انه وضع في سنة ١٦٢هـ ديوان الازمة كما "اجري علي المجلدين وأهل السجون الازراق في جميع الاقالق" [٣] .

السياسة نحو بيزنطة:

وكانت سياسة المهدي ازاء بيزنطة، نفس السياسية التقليدية للدولة العربية الاسلامية، وينسب للمهدي تجهيز حملات قوية ضد بيزنطة ولكنها لم تحرز انتصارات حاسمة .

ففي سنة ١٦٣هـ تذكر الرواية أن المهدي تجهز بنفسه وأعد عدة عظيمة وجمع الاجناد من خراسان وغيرها، وخرج علي رأس قوات كبيرة، وكان بصحبته ابنه هرون «الرشيد» بينما استخلف علي بغداد

(١) انظر، ابن الاثير، ص ٦٨ .

(٢) ابن الاثير، ٥٢ ص ٥٥٧ ص ٦٩ .

(٣) ابن الاثير، ٥٢ ص ٦٩ .

ابنه موسى ((الهادي))، وسار الي الموصل الجزيرة ومن هناك عبر
الفرات الي حلب، ثم رافق ابنه هرون حتي جاز الدرب ((أي الممر))
المؤدي الي ارض الروم، وهناك ودعه وعاد ادراجه ليزورييت
المقدس [١] .

وسار الرشيد بأرض العدو وكان بصحبته عدد من كبار القواد
منهم عيسى بن موسى والحسن بن قحطبة، كما كانت امانة الحملة من
امور العساكر والنفقات والكتابة موكولة الي يحيى بن خالد الذي كان
كاتب الرشيد واغلب الظن ان هذه الحملة لم تأت بنتائج كبيرة وذلك
انها تمكنت من فتح احد الحصون فقط بعد حصار استمر أكثر من
شهر، ولي سنة ١٦٤ هـ أي السنة التالية ردت بيزنطة بأن تقدم
البطريق ميخائيل وتحدي المائفة الاسلامية التي اضطرت الي
الانسحاب وعادت مما اثار سخط المهدي علي قائد المائفة حتي انه
رغب في قتله [٢] .

وترتب علي ذلك انه في سنة ١٦٥ هـ سار المهدي ابنه هرون
((الرشيد)) علي رأس حملة عظيمة بلغت حوالي ((٩٥ الف رجل كما
تقول الرواية)) [٣] والظاهر انها لاقت نجاحا اذ أن القائد البيزنطي
اضطر الي الانسحاب امام هرون الذي توغل هو والخرسانية في أرض

(١) نفس المصدر، ص ٦٣ .

(٢) ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٦٤ .

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٦٥ .

الروم الي أن وصلوا الي خليج البوسفور . وخافت ايرين «أمراة اليون
كما يقول بن الاثير» الوصية علي ابنها قسطنطين السادس واضطرت
الي عقد الصلح او الهدنة لمدة ثلاث سنوات علي ان تدفع الجزية
السنوية ، وسينقض البيزنطيون هذه الهدنة قبل حلول اجلها وذلك في
أواخر سنة ١٦٨ هـ أي قبل وفاة المهدي [١] .

أما عن موقف المهدي ازاء المغرب والأندلس فسراه بتفصيل
فيما بعد اما من جهة المشرق فتقول النصوص أن المهدي أهتم
بالمشرق حتي بلاد الهند وذلك انه ارسل حملة بحرية الي هذه البلاد
١٦٩ هـ وكانت هذه الحملة تحوي كثيرا من الجند النظامي
والمطوعة ، وهاجمت هذه الحملة احدي المدن الساحلية الهندية ،
وخربت معبد المدينة البوذي "البد" واخذت المدينة ، وعاد المسلمون
محملين بالأسري والمغانم ولكن الحملة انتهت نهاية اليمة قرب ساحل
فارس اذ عصفت بها الرياح فتكسرت معظم المراكب . [٢] .

موت الهدي:

وفي سنة ١٦٩ هـ مات المهدي، بعد خالفة دامت عشر سنين،
وترك الخالفة لابنه موسي الذي تلقب بالهادي . [٣]

(١) انظر، ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٦٥ .

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٥٥ .

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٧١ .

الفصل السابع

خلافة الهادي

خلافة الهادي

١٦٩ - ١٧٠ هـ

بويج لموسي «الهادي» بالخلافة، في بغداد في نفس اليوم الذي مات فيه المهدي وكان مقيما بحرجان، يحارب اهل طبرستان وكتب الرشيد الي الافاق ب وفاة المهدي واخذ البيعة للهادي [١] ونستشف من الروايات قيام نزاع خفي بين ابني المهدي وهما: موسي «الهادي» الذي تنازل له عيسي بن موسي «الذي مات سنة ١٦٧ هـ» [٢] عن ولاية العهد، وهارون الرشيد، الذي أخذت له البيعة كولي ثان للعهد في سنة ١٦٦ هـ [٣] والذي كانت أمه الخيزران تهتم بشئون الحكم منذ عهد زوجها المهدي وأغلب الظن انه مما ساعد علي دقة الموقف ان المهدي اشرك الاخوين في الحكم علي أيامه فعهد بمشرق الدولة الي ولي العهد موسي كما عهد بمغربها الي ولي العهد الثاني هارون وكان لكل منهما ديوانه الخاص. ففي سنة ١٦٣ هـ ولي المهدي هارون الرشيد المغرب كله من الانبار حتي الريقية، وأضاف الي ذلك اذربيجان وأرمينية وجعل لهارون كاتب علي الخراج هو ثابت بن موسي، وعلي ديوان رسائله يحيي بن خالد بن برمك. وزاد في حرج الموقف أن المهدي كما تقول الروايات مال في اخر اخر ايامه الي عزل ابنه موسي الهادي والبيعة للرشيد بولاية العهد وتقديمه عليه، ويقال ان المهدي مات وهو خارج للهادي وهو بمنطقة جرجان ليخلعه بعد ان بعث اليه في القدوم عليه لهذا الغرض وامتنع الهادي ولهذا تحاول بعض الروايات ان تفسر موت المهدي فتقول انه لم يمت

(١) ابن الاثير، ج ٥٥، ص ٧٣-٧٤.

(٢) ابن الاثير، ج ٥٥، ص ٦٩.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٦٦.

ميتة طبيعية وانه مات في حالة صيد اومات مسموما [١] .

ولن تطول خالدة الهادي اكثر من سنة وثلاثة أشهر أرقته «شغلته» فيها مسألي ولاية العهد، وذلك أن الهادي شعر بخطر أخيه هاروق الذي كانت تؤيده أمه «الخيزران» وكانت تتدخل في شئون الحكم، فعمل علي الحد من سلطانها كما حاول أن يحمل الرشيد علي التنازل عن ولاية العهد وبدأ يتخذ اجراءات مشددة ضد أخيه، وسلبه امتيازاته كولي للعهد فالنص يقول: "امر الهادي - ان لايسار بين يدي هرون بالحربة فاجتنبه الناس وتركوا السلام عليه [٢] .

ونستبين من النصوص أن الرشيد كان مستعدا للتنازل عن ولاية العهد لابن أخيه جعفر وربما تم ذلك لولا صغر سن ابن الهادي ونصح يحيى بن خالد بن برمك للرشيد بعدم الاستجابة لطلب أخيه الخليفة، وعرف الهادي تاثير يحيى علي الرشيد، فبعث اليه وتهدهدته ورماه بالكفر" ولكن ابن برمك تمكن من اقناع الخليفة بترك هذه المسألة بعض الوقت، ونصح به بالآ يحمل الناس علي نكت الايمان اي حثت الايمان أي تحللهم من البيعة وبين له ان ابنه جعفر لم يزل صغيرا وسأله "أتظن الناس يسلمون الخلافة لجعفر - وهو لم يبلغ الحنث - أو يرضون به لمصلاتهم وحجهم وغزو" ثم رغبة في أن يكون ابنه ولي العهد الثاني .

(١) ابن الاثير ج ٥٥ ص ٧١ .

(٢) انظر ابن الاثير الكامل ج ٥٥ ص ٧٩ (من الحد من شؤنه امه)

ثورة الحسين بن علي بالمدينة

أما عن العلويين، فأنهم قاموا بالثورة في المدينة ومكة وستفشل هذه الثورة في الحجاز كما فشلت سابقتها من قبل، ولكنها ستجفع في بلاد المغرب الأقصى وتزعم هذه الثورة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي أبي طالب المعروف بقتيل فخ عند مكة .

أما عن سبب اشتعال الثورة فهو ان والي المدينة وهو حفيد عمر بن الخطاب اسمه عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب - اقام الحد علي احد العلويين الذي يعرف باسم الزفت وذلك لشربه النبيذ . واحتج العلوي وهو الحسين بن علي علي عقاب المتهمين وقال للوالي ان اهل العراق لا يرون به بأسا، وكفل الحسين بن علي الثائر ابا الزفت «أي ضمنه» ولكن ابا الزفت تغيب عن العرض الذي كان يجب عليه ان يحضره وكان في هذا حرج للضامن، الذي لم يجد سوي الثورة ردا علي رهانات الوالي وجاء العلويون صباحا الي المسجد فبايعوا الحسين علي كتاب الله وسنه نبيه للمرتضي من آل محمد" وتمكن الثوار من هزيمة الوالي ونهبوا بيت المال، الا ان اهل المدينة لم يجيبوهم فخرجوا بعد احد عشر يوما . وذهب الحسين الي مكة وتمكن من ضم كثير من العبيد حوله وذلك بعد ان اعلن تحريرهم . وكان في مكة كثير العباسيين، وكان معهم المهالي والسلاح فاجتمع العباسيون "بذي طوى" وقادهم محمد بن سليمان بن علي والي البصرة وقاتلوا العلويين ودمكهم من الخاق

الهزيمة بهم، وقتل المطالب بالخلافة وتمكن كثير من الثوار من النجاة باختلاطهم بالحجاج. وتمكن أحد العلويين وهواد ادريس بن عبدالله من الهرب الي مصر وهناك حملة صاحب البريد الذي كان يتشبع الي بلاد المغرب حيث وصل الي مدينة "وليلي" في منطقة طنجة وهناك استجاب له بريد اورية وكون دوله الادراسة وبني مدينة فاس التي ستصبح عاصمة المغرب الاقصى [١].

الخـوارج

اما عن الخوارج فانهم ثاروا بالجزيرة وهزموا الوالي قرب الموصل ولم يقض عليهم الا بعد ان قتل زعيمهم غيله [٢].

الزنادقة:

اما عن الزنادقة فتقول الرواية ان المهدي اوصي الهادي بمحاربتهم دون شفقة وانه كان قد أمر باعداد الف جلع لصلبهم ولكن الموت لم يمهله [٣] - اذ خرج الي الموصل وعاد منها شديد المرض، والظاهر انه لم يميت ميتة طبيعية بسبب معاودته التفكير في خلق اخيه هرون من ولاية العهد. وهناك روايات يستشف منها أن الخيزان هي التي دبرت موته [٤].

(١) انظر، ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٧٤-٧٦.

(٢) ابن الاثير، ج ٥، ص ٧٧.

(٣) ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٨١.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٧٨-٧٩.

الفصل الثامن

خلافة الرشيد

خلافة الرشيد

١٧٠ - ١٩٣هـ

ببيع لهرون الرشيد بالخلافة في الليلة التي مات فيها الهادي .
واستمر حكم هرون الرشيد حوالي ٢٣ عاما شهدت الدولة العباسية
خلالها اوج مجدها وعظمتها .

وفي السنوات الأولى من حكم هارون تركت أمور الدولة لوزير
الخلافة يحيى بن خالد . ويحيى هذا كان واقعا تحت تأثير الخيزران
ام الخليفة التي ماتت في اواخر سنة ١٧٣هـ .

وعلى ايام المهدي قام يحيى بن خالد بن برمك بولاية اد ربيحان
ثم أنه استدعي الي بغداد، وعندما عين الرشيد واليا للولايات
الغربية من الدولة بالإضافة الي ارمينية وادريجان كان يحيى بن خالد
علي ديوانه وظل يحيى مخلصا للرشيد فنصحه بعدم التنازل عن ولاية
العهد عندما حاول الهادي ان يرغمه علي ذلك وربما لقي يحيى بعض
العنت في هذا السبيل فتقول بعض الروايات انه سجن بعض الوقت
وان الهادي كان يفكر في قتله وقد اعترف له الرشيد بوفاته واخرجه
من الحبس واستوزوه، وادار يحيى مقاليد الأمور في الدولة
بالاشتراك مع ابيه الفضل وجعفر من ١٧٠-١٨٧هـ .

وبينما كان الفضل يلي الولايات الشرقية تمكن من تحقيق أعمال

عسكرية كبيرة فاعضع الديلم، وغزا ما وراء النهر وبلغ نفوذه هناك حتى منطقة اشروسنة وكذلك حقق الفضل أعمالاً سلمية هامة غالية ينسب بناء المساجد والرباطات الكثيرة في اقليم خراسان.

وفي نفس الوقت كان أخوه جعفر ببغداد مقرباً الى الخليفة تاركاً الولايات التي كانت تابعة له لنوابه وكان يستفيد من غلاتها فقط. ولكن صداقته للخليفة انتهت. وهناك عدة روايات تبين الاسباب التي ادت الي حنق الخليفة عليه وأخرها قصة حريم فتقول النصوص أنه لم يحترم الزواج السوري الذي كان عقده الخليفة له علي أخته العباسة وذلك لكي يتمتع الرشيد بمحضرها [١].

ومنذ سنة ١٧٣هـ عند وفاة ام الخليفة أعلي جعفر من حمل الخاتم الذي كان يحمله حتي ذلك الوقت، وعهد به وكذلك ببعض شئون الدولة الي الفضل بن الربيع [٢].

وفي سنة ١٨٧هـ عندما قفل الرشيد من اداء فريضة الحج وكان حريصاً علي القيام بها باستمرار قتل جعفر في اول سفر، وكان جعفر يبلغ من العمر حوالي ٣٧ عاماً وعرض رأسه علي الجسر الاوسط ببغداد كما عرض نصفه علي الجسرين الآخرين حتي أدر بأحراقهما فيما بعد سنة ١٨٩هـ.

أما عن والده وأخوته فإنه قبض عليهم وصودرت املاكهم

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٥٥، ص ٨٢، ص ٩٩.

(٢) ابن الاثير، الكامل، ج ٥٥، ص ١١٤.

وأموالهم وسينتهي الأمر ببيحي في أن يموت محبوسا سنة ١٩٠هـ له من العمر ٧٠ عاما وسيتوفي الفضل في سنة ١٩٣هـ له من العمر ٤٤ عاما [١]

لم تنقطع الاضطرابات الداخلية في الدولة علي أيام هارون الرشيد كما نستبين من الروايات فقد سرت هذه الاضطرابات في دمشق والموصل والجزيرة وحتى مصر ايضا واشترك فيها العلويون والخوارج معا .

الفتنة بدمشق:

ففي سنة ١٧٦ هـ قامت الفتنة في دمشق بين العصبيتين المصرية واليمية وساد البلاد الفوضى نحو سنتين ووقع بين العصبيتين معارك سقط فيها كثير من الناس . ورغم عزل والي دمشق عبد الصمد بن علي واستعمال عامل جديد هو ابراهيم بن صالح بن علي فان الفتنة لم تخمد بل زادها الوالي الجديد تأججا اذ انه وقف الي جانب اليمية ضد اعدائهم وانتصر القيسية علي اليمية ونهبوا مواضعهم قرب دمشق بل واستولوا علي دمشق وعندئذ اضطرت اليمية الي طلب الامان، وأراد ابن الوالي ان ينتقم من الثوار فكان ذلك نذيرا بتجدد المعارك، ولم يقف القتال الا عند وصول قائد الرشيد الذي قبلت القيسية طاعته .

(١) انظر ابن الاثير، الكامل، ج ١٥ ص ١٢٤، ص ١٢٨-١٢٩ .

ولم يستمر الهدوء طويلاً إذ يوجد في حوليات سنة ١٨٠ هـ ذكر لمسير جعفر بن يحيى بن خالد الي الشام بنفسه ومعه القواد والعساكر والتسلح والأموال وذلك "للعصبة التي بها" فتمكن من تسكين الفتنة واطفأ الثائرة وعاد الناس الي الأمن والسكون [١]

الفتنة بالموصل:

وشهدت الموصل الكثير من الثورات منها ثورة سنة ١٧٧ هـ التي تزعمها رجل من الازد تمكن من السيطرة علي الناحية وحبى خراجها مدة سنتين حتي خرج اليه الرشيد بنفسه، وهدم سور المدينة وأقسم ليقتلن من لقي من أهلها لولا أن أفتاه القاضي أبو يوسف ومنعه من ذلك ولم يتمكن الرشيد من القبض علي الثائر الذي فر الي ارمينية واستعمل الرشيد علي الرئاسة وال أساء فهم السيرة وظلمهم وطلبهم بخراج سنين مضت فهاجر أكثر اهل البلد عنها [٢].

خراسان

أما عن بلاد خراسان فانه الي جانب الثورات الخارجية التي عرفتها شهدت أيضا حدوث اضطرابات وفتن منها ثورة قام بها رجل يعرف بابن الخصيب وذلك بمدينة نسا في سنة ١٨٣ هـ واتعب هذا الرجل والي خراسان وهو علي بن عيسى بن ماهان تعباً شديداً وذلك

(١) نفس المصدر، ص ٩١-٩٣، ص ١٠٣-

(٢) نفس المصدر، ص ٩٦، ص ١٠٣.

انه بعد أن طلب الامان عاد ونقض وغدر بابن الوالي وتغلب علي
ابيورد وطوس ونيسابور وحاصر مدينة مرو ولكنه عجز عن
اخذها واضطر عيسي بن ماهان الي المسير اليه في سنة ١٨٦هـ الي
نسا "فقتله وسبي نساءه وذرائه واستقامت خراسان" [١]

والظاهر أن الخليفة - كما نستبين من النصوص - كان مسئولاً
الي حد كبير عن اضطراب بلاد خراسان وذلك ان الوالي علي بن
عيسي استغل البلاد استغلالاً سيئاً وكتب كبراء أهل البلد واشرافها
الي الرشيد في سنة ١٨٩هـ يشكون سوء سيرة ابن ماهان وظلمه
واستخفافه بهم وأخذ أموالهم "سار الرشيد الي الري لينظر في أمر
خلع الوالي ولكن الاخير اتاه من خراسان وأهدي له الهدايا الكثيرة
والأموال العظيمة وأهدي لجميع من معه من أهل بيته وولده وكتبه
وقواده من الطرف والجواهر وغير ذلك. وانتهى الأمر بطبيعة الحال
بأن رده الخليفة الي ولايته من جديد" [٢].

ولكنه في سنة ١٩٠ هـ اضطرب مشرق الدولة من جديد وذلك
عندما ظهر [شار] رافع بن الليث بن نصر بن سيار بسمرقند من أرض
ماوراء النهر وذلك لأسباب تتعلق بالأخلاق. ووجد رافع وقيد وطيف
به علي حمار ليكون غطاة لغيره غثار واستطاع أن يستولي علي
المدينة وقتل عاملها وهزم جيشا أرسله اليه عيسي بن علي بن ماهان
وغلب رافع علي بقية ما وراء النهر ثم انه بعد ذلك استمال الترك
المقيمين في هذه النواحي وتمكن هؤلاء من قتل عيسي بن علي.

(١) انظر، ابن الاثير، ج ٥، ص ١٠٦، ص ١٠٨، ص ١١٠، ص ١١٣.

(٢) نفس المصدر، ص ١٢٠-١٢١.

وعندما سار علي بن عيسى الي مرو ليحميها من رافع عزله الرشيد
كما نستبين من النصوص طمعا في امواله واستعمل بدلا منه هرثمة
بن اعين وقبض ابن أعين علي الوالي المعزول واخذ امواله بأمر من
الرشيد . وجد هرثمة في حرب رافع فحاصره بسمرقند واستعان بظاهر
بن الحسين القائد المشهور في قتاله واهتم الخليفة بأمر رافع واشفق
من تزايد خطره حتي انه عزم علي الخروج اليه بنفسه . ولكن الرشيد
سيهوت في الطريق وذلك قبل القضاء علي ثورة رافع بن الليث التي
ستستمر حتي سنة ١٩٥هـ [١] .

أما عن الخوارج فان ثوراتهم لم تنقطع خاصة في اقليم الجزيرة ،
وكذلك في خراسان .

وفي اول عهد الرشيد قام احدهم بالجزيرة وهزم الوالي وتقدم
نحو الموصل وهزم حامية المدينة ولم تتمكن جيوش الخليفة من
النيل منه الا بعد عناء شديد .

وفي سنة ١٧٥هـ خرج احد الموالي من القيسية وهو حصن
الغارجي بخراسان وهزم والي سجستان، واستولي علي عدد من المدن
واستطاع كما تقول الروايات وهو في قلة من قواته لم تتجاوز
الستمانه رجل ان يهزم الجيش الذي سيره والي خراسان وكان يبلغ
اثني عشر الفا .

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٥ ، ص ١٢٢ .

وظل الثائر بيعث في البلاد فسادا حتي قتل سنة
١٧٧هـ [١] .

واثناء ثورة الحصين، قام خارجي آخر بالجزيرة وقدم الموصل
وتمكن من هزيمة عسكرها وذلك قبل ان يقتل [٢] .

أما الثورة الخارجية التي ازعجت الخليفة فهي ثورة الوليد بن
طريف التغلبي الذي خرج بالجزيرة سنة ١٧٨هـ وفتك بالسلطة
العباسية في نصيبين وقوي امره فدخل ارمينية واذريجان وارض
الجزيرة وعاث فيهم واتعب قائد الرشيد يزيد بن مزيد الشيباني وبعد
مقتل هذا الثائر قام الرشيد باداء العمرة شكرا لله [٣]

وفي سنة ١٧٩هـ خرج بخراسان ثائر خارجي اخر هو حمزة بن
اترك السجستاني الذي دوخ جيوش علي بن عيسي بن ماهان، حتي ان
الوالي "قصد القري التي كان أهلها يعينون حمزة فاحرقها وقتل من
فيها" وتورد النصوص ان هذا الثائر قام باعمال فظيعة منها انه كان
يقتل الغلمان بالمكاتب كما كان يقتل معلمهم . واضطر طاهر بن
الحسين عامل ابن ماهان علي بوشنج الي القيام باعمال رهيبة ضد
الخوارج المحاربين منهم والقاعدين غير المحاربين ومن لهم ديوان ومن
لا ديوان لهم تقول الروايات انه كان يشد الرجل منهم في شجرتين
يجمعهما ثم يرسلهما فتأخذ كل شجرة نصفه وذلك حتي طلبوا الامان
في سنة ١٨٥هـ .

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٨٩ .

(٢) ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٩٤ .

(٣) ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٩٧، ص ١٠١ .

الفتنة بمصر:

هذه الاضطرابات التي سرت في أرجاء الدولة بلغت ارض مصر
الامنة المطمئنة بدورها فقام في سنة ١٧٨هـ أهل الحوف وهم من
قيس قضاة بالثورة وقاتلوا عاملهم الذي استجد بعامل فلسطين.
وبعد أن أخذت الثورة امر الخليفة بعزل والي مصر وعين آخر
مكانه.

الشيعة:

أما عن العلويين «الشيعة» فكان لهم نشاطهم المعادي أيضا ولو
أن نشاطهم لم يصل الي درجة خطيرة كما هو الحال بالنسبة
للخوارج. ففي أول عهد الرشيد أطمأن العلويين وظهر من كان
مختفيا منهم مثل ابراهيم بن اسماعيل المعروف بطباطبا، وعلي بن
الحسين بن ابراهيم بن عبدالله بن الحسين. وفي سنة ١٧١ هـ
تذكر النصوص أن الرشيد أمر باخراج الطالبين من بغداد الي مدينة
النبي صلي الله عليه وسلم ماعدا العباس بن الحسن بن عبدالله بن
عباس [١].

ظهور يحيى بن عبدالله بالديلم

قام يحيى بن عبدالله بن الحسن بالثورة علي الرضا في بغداد

(١) انظر ابن الاثير، الجوامع، ٤٥٢، ج ١، ص ١٨٣، ١٨٥، ١٨٥.

الديلم في سنة ١٧٦هـ وازعج هارون، فندب لقتاله الفضل بن يحيى،
ومعه مناديد القواد، وولاً، جرجان وطبرستان والري وغيرها. ولجأ
الفضل الي السياسة فكتب يحيى ولاطفه، كما اتصل بصاحب الديلم
وبدل له الاموال وأخيرا استجاب يحيى للملح علي أن يكتب له
الرشيد امانا بخطه وأن يشهد علي هذا الأمان. "القضاة والقضاة
وجلة بني هاشم ومشايخهم" فاجابه الرشيد الي ذلك، وعظمت منزلة
الفضل عنده، وقدم الفضل معه يحيى بن عبدالله بغداد فاستقبله
الرشيد استقبالا حسنا، الا أن أمانة ووعدده لم يكونا بأهم من امان
أسلافه وذلك انه لم يحترم ذلك الأمان وأمر بحبس العلوي. وتمكن
الرشيد من اعطاء نقضه العهد صفة الشرعية فأنتاه بعض القضاة بأن
هذا الأمان منتقض من وجوه كثيرة وظل يحيى في سجن الرشيد حتي
وافاه الأجل [١].

السياسة الخارجية

الصراع ضد بيزنطة

فيما يتعلق بالسياسة الخارجية في الدولة فقد استمر الصراع
ضد بيزنطة طوال عهد الرشيد وزادت حدته بسبب اهتمام الرشيد
اهتماما خاصا بالجهاد وذلك منذ ايام والده المهدي الذي كان يعهد
اليه بقيادة الحملات في بلاد الروم.

(١) نفس المصدر السابق، ص ٩٠.

وبدا الرشيد خالفته في سنة ١٧٠ هـ باجراء اصلاح- رئيسي علي الحدود البيزنطية وذلك أنه اصلح الثخور جميعها وشحنها بالحاميات من الخرسانية وجعل من هذه المنطقة ولاية مستقلة واسماها " العوامم" وكانت الصوائف ووفي بعض الاحيان الشواتي تسير الي ارض الروم بانتظام وكان الاسطول يساعد في البحر في كثير من الاحيان. وفي سنة ١٨١ هـ سار الرشيد بنفسه علي رأس الجيوش وافتح عددا من الحصون. وتم الاتفاق بين البيزنطيين والمسلمين علي فداء الاسري، وتولي ذلك من قبل المسلمين القاسم بن الرشيد ومعه الاعيان من أهل الثغور والعلماء وتم التبادل قرب طرسوس وكان عدد الاسري المتبادلين ثلاثة الاف وسبعمائة [١].

وفي سنة ١٨٧ هـ توغل القاسم بن الرشيد في أرض الروم وحاصر عددا من الحصون حتي اضطر البيزنطيون الي شراء انشحاب المسلمين عن طريق دفع الجزية وتحرير اكثر من ثلاثمائة وعشرين اسير مسلم وفي هذه الاثناء قامت ثورة في بلاط بيزنطة كان من نتائجها خلع ايرين «ريني» واعتلاء وزير ماليتها نقفور العرش. وعمل الامبراطور الجديد علي نهج سياسة مناهضة الخلافة ورفض الجزية واستلزم قيام حملة قادها الرشيد بنفسه فحاصر مدينة هرقله ونشر الخراب حتي اضطر نقفور الي دفع الجزية الا انه نقض الاتفاق بعد رجوع الرشيد مباشرة فاضطر الخليفة الي الرجوع الي ارض الروم اثناء الشتاء رغم قسوة البرد.

(١) انظر، ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ١٠٥-١٠٦.

واشتدت الحرب بعد ذلك وتذكر النصوص انه قتل في الحرب من الروم في سنة ١٨٨هـ اربعون الفا وسبعماية . ولكن هذه المائفة لم تكن لها نتيجة ملموسة [١] .

وفي سنة ١٩٠هـ استطاع الرشيد الانتقام لغدر نفقور فسار علي رأس جيش كبير تصالح النصوص في عدده فتقول انه زاد علي مائة الف وخمسة وثلاثين الفا "سوي الاتباع والمتطوعة ومن ديوان له" وحاصر هرقله حصارا شديدا طوال شهر حتي سقطت وسارت طواوير المسلمين في مختلف انحاء آسيا الصغرى تخرب وتذهب وتنشر الدعر في كل مكان . وانتهى الأمر بخضوع نفقور واضطر الي دفع الجزية ولكن هذه النتيجة كانت مؤقتة . ولم تكن الحملات الاسلامية التي تلت ذلك ناجحة تماما . اذ تذكر النصوص ان الروم استطاعوا ان يقفوا امام المسلمين ان يزعموهم في بعض الاحيان الي الانسحاب، وعلي ذلك لم تستطع الدولة ان تحقق انتصارات حاسمة وطال الصراع لمدة طويلة دون ان ياتي بثمرة بالنسبة لأي من الطرفين المتنازعين [٢] .

ومات الرشيد في مدينة طوس سنة ١٩٣هـ وهو متوجه لاجهاد الثورة التي قام بها حفيد نصر بن سيار في المشرق . وترك الخلافة محل نزاع بين ابنية الامين والمامون، وقد اشرك الرشيد ابنية معه في الحكم وقد بدأ الرشيد بأن عهد الي ابنه محمد بن زبيدة ولقبه

(١) نفس المصدر، ص ١٢٠ .

(٢) ابن الاثير، الكامل، ٥٣، ص ١٢٢ .

بالأمين وكان طفلاً صغيراً بلغ من العمر حوالي خمس سنوات . ثم
شعر بالغبن بالنسبة لابنه عبدالله وكان من أم ولد خرسانية ، فعهد له
سنة ١٨٢ هـ بولاية العهد بعد الامين واشركه في الحكم فولاه
مشرق الدولة - أي خراسان ومايتصل بها الي همدان ولقبه المامون
وعهد بتدبير شلونه الي جعفر بن يحيى بن خالد ولم يكتف الرشيد
بهذا بل بايع لابنه الثالث وهو القاسم بولاية العهد بعد المامون
ولقبه بالمؤتمن ولكنه جعل للمأمون حرية التصرف في تثبيتته
اوخلعه . وكان للدين الثالث ولايته هو الآخر في الجزيرة والشغور
والعواصم . [٢] .

وفي سنة ١٨٦ هـ عندما سار الرشيد الي مكة لاداء فريضة
الحج اصطحب معه أبناءه ، وفي مكة دعا الفقهاء والقضاة وكبار رجال
الدولة وكتب كتابا أشهد فيه علي الامين بالوفاء لله للمأمون كما
كتب كتابا اخر اشهد فيه علي المأمون الوفاء للامين وعلق الكتابين
في الكعبة [٢] ولكن عندما توفي الرشيد في سنة ١٩٣ هـ قرب
طوس ال عسكره جميعا الي المامون الذي كان مصاحباً له .

(١) نفس المصدر ، ص ١١٢ .

(٢) نفس المصدر السابق ، ص ١١٣ .

الفصل التاسع

الصراع بين الأمين والمأمون

خلفه الأمين

«١٩٢ - ١٩٨»

«٨٠٨ - ٨١٢»

الصراع بين الامين والمأمون

المقدمات

يموت الرشيد أوشكت الدولة العباسية ان تنقسم الي قسمين ينازع كل منهما الآخر: الجزء الغربي حيث مدينة الخلفاء ، بغداد، وعلي رأسه الامين والجزء الشرقي اي خراسان والولايات الشرقية حيث يقيم المأمون بمدينة مرو، ويعود الفضل في هذا التقسيم الي الرشيدكما رأينا بل ولربما تحقق الانفصال فعلا بين مشرق الدولة ومغربها عقب وفاته مباشرة ولو ان كلا من الابنين احترم وصية ابيه . والظاهر ان هذا الانفصال كان لابد منه اذ ان المشرق الايراني كانت له امانيه واماله السياسية التي يعمل علي تحقيقها، والتي ظهرت جليا بقيام الدولة العباسية نفسها . وسنري فعلا ان المشرق الايراني سيحقق استقلاله فعلا - ان لم يكن شكلا علي عهد الطاهرين وعلي ايام المأمون .

ويفهم من ذلك ان مسألة الصراع بين ابناء الرشيد لن تأخذ شكل نزاع عائلي من اجل وراثة العرش بل سيكون لها شكل النزاع الشعبي او العصبي بين العرب والفرس . وعلي ذلك فلن يكون للمطالبيين بالخلافة رأي كبير في سير الحوادث هذا علي ان ظهر المأمون، وغلبته علي الامين، أن هو الا انتصار للمشرق الايراني علي المغرب العربي يعود الي الاذهان قيام امر العباسيين علي اكتاف

الخراسانية وزحف هؤلاء نحو الغرب وتغلبهم علي العالم العربي الشامي، أحس بذلك وزير المأمون الفضل بن سهل الأيراني الأصل، الحديث، الأسلام «منذ خمس سنوات» فكان يشبه أصحابه بنقباء الحركة العباسية الأولى [١] كان يقول للتميمي نعيمك مقام موسى بن كعب وللربيعي نعيمك مقام أبي داود، وخالد بن إبراهيم نعيمك مقام قحطبة .

بدأ الاختلاف بين الأمين الذي له بالخلافة وبين المأمون عندما رفض الأمين - بصفته صاحب السلطان - الاعتراف بما أوصي به الرشيد، من أن يؤول عسكره وكل مافيه من الأموال والامتعة والعدد الي المأمون . وعمل علي أن يعود هذا الجيس بكل اثقاله اليه، بفضل الفضل بن الربيع الذي حضر وفاة الرشيد، وغيره من القواد الذين ارسل اليهم بتعليماته . ولكي يخفف من روع المأمون كتب ايضا يهون عليه من الامر . ويأمره بترك الجزع وأخذ البيعة لهما، وكذلك لأخيها القاسم «المؤتمن» .

وقام ابن الربيع بدعوة الجند الي الانفضاض من حول المأمون والعودة الي بغداد . فعلا اجابه كثير منهم رغم ما قام به قواد المأمون علي رأسهم ابن سهل من تذكير الناس ببيعة المأمون وسؤالهم الوفاء وتحذيرهم الحث «قال ابن الربيع انما أنا واحد من الجند» نتج عن ذلك ان اشفق المأمون عن حرج الموقف ولكن ابن سهل طمأنه ورسم له السياسة الواجب اتباعها، والتي تتلخص أولا

(١) انظر، د.د. سعد زغلول، التاريخ العباسي، والاندلسي، ص ١١٤ .

في الاعتصام بخراسان، اذ ان الخراسانية اخواله «المأمون» وهم بحكم قرابتهم هذه لن ينقضوا البيعة التي له في اعناقهم «ثانيا انتهاج سياسة دينية رزينة بدعوة الفقهاء الي الحق والعمل به واحياء السنن». ثم الاهتمام شخصا بأموارالدولة ورد المظلم واطهار التقشف والزهد. وبدأ تنفيذ هذا البرنامج بعمل موفق، وذلك انه وضع اوخفض ربح الخراج عن خراسان مما كان له وقع حسن عند أهل البلاد «قالوا بن اختنا وابن عم نبينا». كما أنه لاین الامين في نفس الوقت الذي عمل فيه علي توطيد مركزه في ولايته الشرقية، بأن كتب اليه وعظمه واهداه الهدايا.

أما عن الامين فانه من جهته لم يرض عن موقف اخيه، وعمل علي اعادة الوحدة للدولة وعلي ان يحقق لنفسه السيادة الفعلية وبدأ ذلك علي حساب الاخ الثالث، وهو القاسم «المؤتمن» الذي كان يلي الجزيرة وما يتبعها بأن نحاه عن جزء كبير من ولايته واقره علي قنسرين والعوامم فقط وكانت هذه هي الخطوة الاولى "في السنة التالية ١٩٤هـ «٨١٠م» خطا الخطوة الثانية وكان فيها تهديد مباشر للمأمون ومايمكن ان نسميه بتمهيد للأغارة علي حقوقه في وراثة العرش والخلافة. اذ امر الامين باغراء وزيره الفضل بن ربيع بالدعاء لابنه موسي. الذي كان طفلا صغيرا في خطبة الجمعة الي جانب الدعاء لأخويه.

وكان من الطبيعي ان لايسكت المأمون - تحت ضغط وزيره

الفضل ابن سهل هو ايضا - علي هذا العمل غير الودي واجاب عليه بالمثل بأن تجاهل خليفة بغداد، وقطع كل علاقة به «استقط اسمه في الطرز ومن الطغود وقطع عنه البريد». و زاد ذلك من تأزم الموقف، إذ كشف الامين عن نواياه وارسل بعثه الي المأمون يطالبه بالحضور عنده ببغداد وكان الهدف من هذه الزيارة هو الضغط عليه للتنازل عن بعض حقوقه في الوراثة. «تقديم موسي بن الامين عليه» وربما في ولايته للمشرق [طلب اليه ان ينزل عن بعض كور خراسان وان يكون عنده صاحب البريد يكاتبه بالاعخبار].

وكان من الطبيعي ان يرفض المأمون اجابة مطلب الخليفة [١] كما لم يوافق حزبه اطلاقا علي خروجه من خراسان، هذا رغم ان الموقف السياسي للطراف الشرقية من ولايته كان ينذر بالخطر. فاذا كان رافع بن الليث قد مال الي الاستسلام والطاعة فان غيره كان قد اعلن العصيان مثل جابغو أو جبغوية الفارلوق «علي سيحون» وخاقان التبت، وملك كابل الذي كان يستعد للانغارة علي خراسان، وملك اترار «مركز الغزو» الذي منع الضريبة.

واستطاع ابن سهل ان يدبر الامور تدييرا حسنا، وان يظهر مقدرة سياسية فائقة. وذلك انه بدا بأن استمال أحد افراد بعثه الامين وهو العباس بن موسي بن عيسي «حفيد عيسي بن موسي الذي خلع علي عهدي المنصور والمهدي» وعدة أمري الموسم ومواقع من مصر - فكان يكتب اليهم بالاعخبار من بغداد ثم انه شدد الحراسة

(١) كتب له المأمون «انما انا عامل من عمال امير المؤمنين وعمون من اعوانه امري الرشيد - معناه تمسكه بوصية ابيه - بلزوم الشجر ولعمري ان مقامي به اراد علي امير المؤمنين واعظم مناه للمسلمين. انظر ابن الاثير، ج ٥، ص ١٣٩-١٤٠.

علي حدود خراسان ومنع العبور الي ولايات الا لشخاص المعروفين .
اما بما يتعلق بملوك الاطراف من الوطنيين فان الفضل نصح المأمون
بارسال خطابات لجابغو والخاقان يؤكد لهما سيادتهما علي بلادهما ،
ويعددهما بالمساعدة ضد اعدائهما وان يرسل هدايا الي ملك كابل وأن
يعفي امير اترار من جزية عام . وفعلا نجحت هذه الاجراءات في
استتباب الامن والسلام في هذه النواحي .

خلع المأمون:

حاول الامين انفاذ الرسل لاقناع المأمون بالعدول عن موقفه
ولكنهم منعوا عند الري من حرية الاتصال باهل البلاد . حفظوا في
حال سفرهم واقامتهم من ان يخبروا او يستخبروا^(١) عندك رأي
الامين ان القطيعة قد تمت وعمل علي أن يعيد توحيد الدولة عن
طريق استعمال اساليب العنف . وفي اوائل سنة ١٩٥ هـ اعلن خلع
المأمون من ولاية العهد واخذ البيعة لابنه موسى بدلا منه ولقبه
"الناطق بالحق" وجعل له ديوانا من شرطة وحرس ووسائل وعهد
بإدارة شلونه وتأديبه الي علي بن عيسي بن ماهان والي خراسان
السابق ثم عهد لابنه الآخر عبد الله ولقبه "القائم بالحق" كما اعلن
عدم صلاحية النقود التي ضربها المأمون والتي لاتحمل اسم خليفة
بغداد للتداول [١] .

وأصبح الامين ذلك بأن ارسل الي الكعبة واتي بكتابي العهد

(١) انظر ابن الاثير ، الكامل ، ٥ ، ص ١٤٦ ، احداث سنة ١٩٥ هـ (ذكر
قطع خطبة المأمون ، سعد زاملول ، ص ١١٧) .

اللذين كتبهما الرشيد ومزقهما . وخرج من حيز الكاظم الي حيز العمل وكلف علي بن عيسي بن ماهان القائم بامر ولي العهد الجديد بالسير الي خراسان للقبض علي ولي العهد المخلوع وتنفيذ مآكله من اجراءات ضده .

ولاشك في ان اختيار بن ماهان للقيام بهذه المهمة لم يكن اختبارا مولقا فالرجل معروف بسوء السيرة في خراسان لجشعه في ابتزاز الاموال حتي اضطر الرشيد الي عزله بعد ان جمع ثروة طائلة وبعد ان كان يقاسمه في استغلاله للبلاد . والظاهر ان الاهواء الشخصية قامت بدورها في هذا الاختبار ، فابن ماهان كان يطمع في العودة الي منصبه القديم المغري . وربما اراد الامين ان يكيد لاهل خراسان فوله هذا الامر نكاية فيهم ، ولكن بلغ عدم التوفيق ، هذا ، حدا قيل معه ان عينا للفضل ابن سهل هو الذي اشار بانفاذه حتي يقاومه اهل خراسان .

بداية الصراع

سار علي بن عيسي علي رأس ٥٠ الف رجل ، وخرج الامين ووجوه اهل دولته لوداعه . واتجه جيش بغداد نحو الري حيث كان طاهر بن الحسين قائد المأمون يعد العدة للدفاع ويستعد للقتال وحاول علي ابن عيسي ان يستغل معرفته السابقة للبلاد والاتصال بالملوك الوطنيين واثارتهم ، هذا ولو أننا لانعرف الي اي حد نجحت

هذه الخطة رغم ما يقوله الكتاب من أن هؤلاء الملوكت اجابوه الي قطع طريق خراسان . ولكن المحقق ان ابن ماهان استهان بأمر طاهر، اذ تقول النصوص بأنه لما طلب اليه اصحابه بث العيون وعمل خندق، قال : "مثل طاهر لا يستعد له" وخرج طاهر من مدينة الري في جيش قليل العدد [نسبياً ٤ آلاف] حيث عسكر علي بعد قليل منها «ه فراسخ». كما حرض جنده علي القتال خالعا الامين داعيا بالغلالة للمأمون. وكان الغرض هو اعطاء موقعة جيشه صفة شرعية حتي لا يخيل للجد انهم يقفون موقف الخلدجين علي صاحب الامر . واتخذ كل من الجيشين تشكيل القتال ووقفت الواحد منهما امام الآخر .

وبدا طاهر بمظاهرة سياسية بان حمل صاحب شرطته بيعه المأمون وعلقها علي رمح، ودعا علي بن عيسى الي- تقوي الله في البيعة التي اخدها ولما خرج احد اصحاب ابن ماهان عليه بالسيف اظهر شجاعة فائقة، اذ حمل عليه واخذ منه السيف بيديه وصرعه ولهذا سمي طاهر ذو اليمينين .

وفي هذه الاثناء حدثت مفاجاة سيئة بالنسبة لطاهر، وذلك ان أهل الري اغلقوا باب المدينة دون عسكرة، ولكن يظهر انه كان يتوقع مثل هذا منهم ولذلك فضل الخروج والقتال بعيدا عن المدينة فامر اصحابه بالاشتغال بمن امامهم فقط . وبدأ القتال في صالح علي بن عيسى فهزمت ميمنته ميسرة طاهر هزيمة منكرة، وعرجت ميسرته علي ميمنة طاهر فزحزحتها عن مواضعها . ولكن طاهر اظهر كفاءة

عسكرية عظيمة فلم يفت سوء الموقف في عضده، فامر اصحابه بالقيام بهجوم خاطف «حملة خارجية» علي قلب علي ابن عيسي . ويفضل ذلك الهجوم القوي تحول الموقف لصالح طاهر فانسحب جناح ابن ماهان، وكثر القتل في اصحابه وسقط هو قتيلا بضربه سهم في الميدان . ولم ينقذ المهزمين الا حلول الليل بعد ان التجأ كثيرون منهم الي معسكر طاهر بعد ان امنهم .

الزحف على بغداد

كانت هذه الواقعة فاتحة سلسلة من الانتصارات قادت طاهر من الري الي بغداد تعيد الي الدهن الحملة المظفرة التي قام بها فحطبة بن صالح من خراسان الي العراق . وتمكن طاهر بعد ذلك من هزيمة قائد الامين عبد الرحمن بن جبلة الذي ولي همدان، والذي كان يأمل ان يلي كل ما يفتحه من أرض خراسان . هزمه طاهر مرتين، حاصر مدينة همدان حتي ضجر اهل المدينة، فطلب عبدالرحمن الامان وخرج عن المدينة، ولكنه كان يضرر الغدر بطاهر اذ شن عليه هجوما شديدا يائسا انتهى بقتله وهزيمة اصحابه كان هذا الرجل متعصبا للامين ضد المأمون في أول الامر فقال لايري امير المؤمنين وجهة ابداء، وبعد الاستيلاء علي همدان عمل طاهر علي تأمين ظهيرة قواته عن طريق احتلال قزوين، ولم ينتظر قائد الامين وجيشه الكثيف وصول طاهر اذ انه رأى الجلاء عن البلاد، فوضع طاهر حامية لمنع مرور أية قوات من هناك .

وبذلك خلت البلاد لطاهر فتقدم يحتل الكور والمدن حتي وصل الي قرب حلوان، حيث عسكر هناك وكان للانتصارين اللذين احرزهما طاهر اثرهما الكبير في اضعاف الروح المعنوية لدي قواد وجيوش الامين. فبعد ان بحث الفضل بن الربيع عن قائد عربي متعصب للعرب، هو اسد بن يزيد ابن مزيد، وبعد ان حرضه من اجل المحافظة علي قوة الشعب العربي [١] فشل في تسييره اذا كان للقاء العربي مطالب مالية [٢]. لم يقابلها الامين بالرفض فقط بل امر بحبسه كذلك واخيرا نجح في تسيير عم اسد وهو احمد بن مزيد لحرب طاهر وسير معه عبد الله بن حميد بن قحطبة ولكنهما لم يتقدما الي ابعد من خانقين. واكتفي طاهر بان ظل في مكانه ودس عليهم الجواسيس والعيون ولم يزل يحتال حتي وقع الاختلاف في معسكر اعدائه [٣] وقاتل بعضهم بعضا حتي اضطر قائدا بغداد الي الرجوع عن خانقين دون ملاقاته طاهر الذي تقدم ونزل حلوان نفسها.

الاضطراب في الشام :

في هذا الوقت بينما كانت الامور مستقرة في خراسان، وبينما كان امر المأمون في تحسن مستمر بدأ مغرب الدولة ومركز الخلافة يضطرب وسارت الامور علي غير مايشتهي الامين حتي أنه وقع اسيرا

(١) قال له: انما نحن شعب من اصل ابي قوي قويننا وان ضعف ضعفنا وبعد ان ينقذ الامين للهوة ومبسه يقول: وقد خشيت ان نهلك بهلاكه وانت فارس الغرب وابن فارسها انظر ابن الاثير، ٥٥٢ هـ ١٤٨-١٤٩.

(٢) طالب بصرف رزق سنة وجهل رزق سنة اخري مع الجبل.

(٣) كان يزحفون ان الامين وضع العطاء.

بين ايدي الثوار، وفقد خلافته لفترة ما . والغريب في هذا الشأن ان بلاد الشام، وهي مركز الدولة العربية السابقة ومعقد آمال الشعب العربي وامانيه في هذا الصراع العنصري كانت ذهب الفتن والقلاقل منذ البداية .

ففي سنة ١٩٤ هـ ثارت حمص علي عامل الامين فعزلهم ولكنه ولي آخرأ مكانه انتقم من أهلها حتي طلبوا الامان ثم هاجوا بعد ذلك فاضطر الي الانتقام من جديد . وفي السنة التالية سنة ١٩٥ واثناء انهزام جيوش الامين امام طاهر ظن اهل الشام ان امر العباسيين ودولة الفرس الي بوار فثارت دمشق ودعت الي عودة الامويين «السفياني المنتظر» اعلنت احمد حفدة معاوية ويدعي ابو العميطر علي «علي بن عبد الله بن خالد» وكان علوي الام «نفيسة بنت عبد الله» مشتغلا بالعلم، ويبلغ من العمر ٩٠ عاما خليفة «ذي الحجة» وتمكن ابو العميطر من اخراج عامل دمشق وذلك بفضل معونة احد موالي بن امية وعندما سير الامين لحربه الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان لم يسر هذا الاخير الي دمشق بل اكتفي بالانتظار بالرقعة .

وأحسن السفياني السيرة أول الامر ولكنه لم يكن ليستطيع القضاء علي الخصومات القديمة بين العصابات العربية من كلب وقيس او التوفيق بينهما ففي اول الامر اتخذ اكثر اصحابه من كلب ولكنه عاد وخاصهم واتفق مع قيس ولكن الزعيم الكلابي محمد بن صالح ابن بيهس اوقع به هزيمة منكرة وحاصره في دمشق وقتل ابنه وارسل راسه للاميين . وحدث ان مرض ابن بيهس فعمل علي الكيد للسفياني

فبايع أموياً آخر بالخلافة «مسلمة بن يعقوب» ونجحت خطته، وتمكن الأموي الجديد من القبض على السفلياني وقرب القيسية فلما عوفي ابن بيهس من مرضه عاد وحاصر دمشق فسلمها إليه القيسية وهرب الأموي والسفلياني بعد أن دامت الفتنة حوالي ٣ سنوات «محرم سنة ١٩٨هـ» وظل ابن بيهس بدمشق حتي وصل إليها عبدالله بن طاهر.

وكان عبد الملك بن صالح، الذي أخرجه الأمين من السجن عند ولايته [١] قد حاول أن يجد علاجاً لنكبة الشام فطلب إلى الأمين أن يوليها إياها ومناه بأنه يمكنه أن يجيش أهل الشام لنجدته. ولكن فشل عبد الملك في مهمته إذ قامت الفتنة بين الخراسانيين وأهل الشام بينما كان هو مريضاً، وانتهت الفتنة بانهازم العرب، فمات الرجل سنة ١٩٦ هـ متأسفاً لنكبتهم وضياع أمله فيهم.

وبئس كذلك الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان الذي كان أرسله الأمين إلى الشام من تقويم الحالة بعد موت عبد الملك فعاد إلى بغداد ولما أراد الأمين أن يحاسبه عما فعل رفع راية العصيان وهزم جند الخليفة وأعلن خلعه [١١٠١] وأخذ البيعة للمأمون. ولم ينقض يومان حتي كان الخليفة أسيراً وهو وأمه زبيدة، وتم ذلك بتدبير العباس بن موسى بن عيسى الذي كان قد استماله الفضل بن سهل كما رأينا ولكن الحسين لم يستطع السيطرة على الموقف فثار به الجند وأطلق الأمين وأعيد إلى كرسي الخلافة. وبذلك قدر للنزاع

(١) وكان الرشيد قد حبسه أيام نكبة البرامكة. انظر ابن الأثير، ج ٥

بين الأخوين ان يستمر مدة اطول.

وفي هذه الاثناء وقعت بغداد فريسة للفوضى وبلغ من حرج مركز الامين انه لم ينتقم من الرجل الذي خلعه بل عفا عنه [١] واكثر من هذا انه لم يجد قائدا غيره للقيام بحرب [٢] المأمون فوجهه لذلك. ولكن الحسين كان قد فقد الثقة في موقف الامين فحاول الهرب الا أنه اخذ وقتل* وظهر الفشل في حزب بغداد بهرب الفضل بن الربيع، وكان القوة المحركة لهذا الحزب واحتفائه بعدمقتل الحسين.

ظهر بجلاء اذن ان موقف بغداد ميلوس منه وكان من الطبيعي ان تتقدم جيوش خراسان بسهولة والايصاف طاهر بن الحسين عقبات خطيرة فتمكن من الاستيلاء علي الاهواز بعد أن حاول واليها الدفاع عنها فلقي حتفه كما ان طاهر اصيب في هذه المعركة بجراح بليغة «نقطعت يده» وباستيلائه علي الاهواز تمكن من السيطرة علي المنامة والبحرين وعمان «علي الخليج الفارسي من شبه جزيرة العرب» ارسل اليها عمالا يلونها من طرفه واستمر تقدم طاهر المظفر دون مقاومة حتي اتي واسط التي استسلمت للخراسانية دون مقاومة هذه المرة ومنها ارسل احد قواده الي الكوفة وكانت قد خلعت الامين واعترفت بخلافة المأمون «كان عليها العباس بن موسي صنيعة ابن سهل، ولم تفلح محاولات بغداد لاستردادها».

(١) قال الحسين عندما طلب الامين «ما انا بمعن ولا مسامر ولا مضحك»

انظر ابن الاثير، ج ٥، ص ١٥١.

(٢) قيل ما هو باقربنا سنة وما هو بكبر منا حسبا ولا به عظمتنا منزلة

ولغنى، انظر ابن الاثير، ج ٥، ص ١٥٢.

وبذلك تم طاهر الاستيلاء علي كل الاراضي الواقعة بين واسط والكوفة كما أعلن والي البصرة خضوعه له، وأعقبه والي الموصل. وبهذا أصبحت بغداد شبة محاصرة. وأنقطعت عن كل الولايات الشرقية والجنوبية، وتم خروج كل بلاد العرب جميعا من سلطان الامين، بدخول مكة والمدينة في طاعة المأمون. ورغم أن موقف الامين كان لا يبشر بأي أمل الا انه ظل جامدا في تصرفاته لا يريد سوي التشبث بعاصمة الخلافة التي أصبحت محاصرة «لم يصبح لها اتصال الا ببلاد الشام المضطربة» فهو لا يريد الخروج منها - كما نصحه بعض الناس - ومحاولة تنظيم قواته من جديد بالشام ولا هو يحاول المرونة واستعمال السياسة ومفاوضة اعدائه في سبيل انقاذ ما يمكن انقاذه اذا كان هناك ما يمكن انقاذه.

في هذه الظروف تقدمت جيوش المأمون، وصارت تقترب من بغداد شيئا فشيئا، وكانت كلها قربت اضطربت امر الجيوش البغدادية وانسحب افرادها. هذا ما حدث بالمدائن «علي بعد ٤ كلم من بغداد» حيث نزل طاهر «بصرصر» وماحدث بالنهروان حيث نزل هرثمة بن أعين. كل هذا والامين لا يفقد الأمل، بل وربما اعتقد في مقدرة بغداد وحدها علي استعادة دولتها المفقودة ففي محاولة أخيرة عمل علي استمالة جيوش طاهر ببذل الاموال والتلويح ببريق الذهب، ودس بينهم الجواسيس ونجحت التجربة جزئيا اذ شغب بعض الجند علي طاهر وانضم فريق منهم الي جانب الامين «حوالي ٥ الاف» ولكن النجاح لم يذهب الي ابعد من ذلك اذ تمكن طاهر بسرعة من

السيطرة علي رجاله وهزم جيش بغداد الذي اقترب من مواقعه فلجأ الي داخل المدينة التي اصبحت مطوقة تماما من جميع الجهات وافلت زمام القواد - الذين كانوا يطلبون المال بجشع والحاج-من يدي الامين وعمت العاصمة الفوضي، فنقبت السجون وخرج أهلها وثار العامة والغوغاء وساد النهب والسلب والاضطراب.

رغم حالة الفوضي التي عمت بغداد لم يكن من السهل اخذ المدينة التي بناها المنصور لتكون أولا وقبل كل شئ معسكراً لجنوده وملجأ يستقر فيه -في امان من مفاجأة الاعداء - فللمدينة سوراها الضخمان، والخندق الممتد بينهما، ثم هي مقسمة بعد ذلك الي احياء «أرباع» شبه منفصلة تتوسطها المدينة الملكية، ويمكن لكل منها أن ينظم دفاعه الخاص. بعد ذلك هناك الاحياء والاسواق خارج الاسوار وهي مكتظة بالعباني والسكان ويمكن الاعتماد بها.

عرف طاهر ذلك وعمل علي ضرب حصار محكم حول المعسكر الضخم. فقسم دائرة الحصار الي اربع مناطق وعهد بكل منطقة الي قائد. ونزل هزيمة بالمنطقة الشرقية «وراء دجلة» بينما نزل طاهر بالمنطقة الغربية من ناحية باب الانبار «باب الكوفة».

ومهم الامين من جهته علي المقاومة المستميتة دون النظر الي العواقب مضحيا بمدينة الخلفاء العالمية. فلما أحوجاه المال ضرب أنية الذهب والقضة وفتحها في اصحابه ولما خرجت عليه احياء

المدينة امر باحراقها رميا بالنقط والنيران وبالمجانيق . ولم يتورع طاهر عن فعل مثل هذا أيضا بالنسبة للأحياء التي ظلت تقاومه وسماها دار النكت «أهل الأرياض ومدينة المنصور واسواق الكوخ والخلد، لامتلائها بالعامه والغوغاء» كما أنه لجأ الي أرباب الاعيان الذين لم يخرجوا اليه من الهاشمين وكبلد القواد في أموالهم وأمالكهم فصادر مزارعهم الموجودة خارج المدينة .

ولم يمض وقت طويل حتي انتهت المقاومة النظامية وانهارت معنويات الجنود وضعفوا عن القتال . كما أستأمن كثير من وجوه المدينة ومن القواد وظل الغوغاء وأهل السوق وباعة الطريق، من أعداء النظام والا من يذهبون ويسلبون ويقامون جنود طاهر . ورغم أنهم لم يكونوا مسلحين أوكانوا يحملون اسلحة بدائية مثل المخالي فيها الصخر والحجارة، ومعها المتاليع فإنهم أمكنهم شل حركة جيوش طاهر النظامية لمدة ما، بل وأكثر من هذا تمكنوا اثناء قتال الشوارع والبيوت من أن يلحقوا بهم في بعض الاحيان خسائر فادحة وان يحرزوا بعض الانتصارات أيضا . واتخذ طاهر ازاء هذه المقاومة اجراءات شديدة فأمر بهدم كثير من الدور والأحياء «ما بين دجلة ودار الرقيق، وباب الشام، وباب الكوفة الي الصراه وريض حميد ونهر كرخايا» حتي عم الخراب واضطر كثير من أهل المدينة الي الجلاء عنها . وبعد ذلك عهد الي منع الاقوات عن المدينة «صرف السفن التي يحمل اليها القوت الي الفرات» لئلا السعر وأصبح الناس في ضيق شديد .

سقوط بغداد ونهاية الامين:

وأخيرا تقدم طاهر من جهة الكرخ وتمكن من دخول المدينة عنوة واحتل أسواق الكرخ ثم عمل علي حصار مدينة المنصور - المدينة الملكية وسط بغداد حيث كان الامين قد التجأ هو وأمه وأهله بعد ان فارقه كثير من جنده وجواربه، واحاط قصورها «قصر زبيدة وقصر الخلد» بالمجانيق - ورغم هذا الضيق الشديد الذي وقع فيه الامين فانه لم يتخل عن عاداته من الانصراف الي الغناء والاستمتاع بالشراب والموسيقى - وربما وجد في ذلك بعض التخفيف من محنته، وكان هذا ايلانا بالنهاية، إذ لم يعد أمامه سوى الاختيار بين احد شيئين: امام القيام بمحاولة يائسة لاخترق صفوف المحاصرين بما تبقي لديه من الخيل وأما الاستسلام وطلب الامان - ولما لم يكن الامين من هؤلاء الرجال الذين يزدادون عزما كلما ازدادت الصعاب شدة، فانه ركن الي طلب الامان - وكل ماقلعه أنه لم يرض ان يكون استسلامه لطاهر بل فضل عليه هرثمة بن أعين -

وكان من الطبيعي ان يثير ذلك طاهرا صاحب الحصار - وتمكن الطرفان من ايجاد حل لذلك، اذ اتفق علي أن يدفع الامين شعار الخلافة والخاتم والقضيب والبردة - الي طاهر - واتي هرثمة بحراقة في دجلة ونقل الامين اليها «وحدة» ولكن طاهرا لم يكن

ليرض أن يفوته شرف استسلام الخليفة . فدبر اغراق الحراقة بأيدي اصحابه تدييرا سافرا . وتنتهي قصة الامين نهاية مأساة روائية «تراجيدية» بأن يؤسر وهو شبه عريان، ويحبس في احدي الدور . وفي ظلام منتصف الليل الذي تبده بعض المشاعل يدخل عليه بعض الرجال من العجم ويدبحونه ذبح الشاة من قفاه «في يوم الاحد ٢٣ محرم ١٩٨هـ» ويسيروا برأسه الي طاهر الذي يرسلها بدوره الي المأمون صاحب العرش دون منافس .

استلمت بغداد بعد اذن، وفي يوم الجمعة التالي «٢٨» من المحرم» دخل طاهر بغداد وصلي الجمعة ودعا للمأمون . وكان المتوقع أن تهدأ الاحوال ويستتب الامن وتستقر الامور بعد موت الامين وخلص الامر للمأمون وهذا ما لم يحدث . فالمسألة كانت اكثر من ذلك تعقيدا، اذ معني انتصار صاحب الولايات الشرعية هو أن مركز الخلافة والحكم كان يتزعزع نحو المشرق . وفعلا لن يدخل المأمون بغداد الا بعد ست [٦] سنوات قضاها في عاصمة ولايته الشرقية . وخلال هذه السنوات الست ستعرف بغداد كما ستعرف الولايات الغربية الوانا من الاضطراب ومنونا من الفتن والثورات وذلك حتي يعود الخليفة من جديد الي عاصمة بغداد .

فبعد دخول طاهر بغداد لم تلبث الثورة أن شبت بالمدينة واشترك فيها الجند الذين طالبوا بارزاقهم ونادوا بموسي بن الامين . وطن طاهر أن في الامر مؤامرة فخرج عن المدينة وعزم علي التنكيل

بأهل الأرباض . ولولا تدخل الأعيان واعتذارهم اليه . وعندئذ حمل
ظاهر ولدي الأمين وهما موسى وعبد الله وأمر بتسييرهما الي
المأمون بخراسان .

الفصل العاشر

خلافة المأمون

خلافة المأمون

« ١٩٨ - ٥٢١٨ هـ »

٨١٣ - ٨٣٣ م

وحسب السياسة التقليدية للخلفاء العباسيين عمل الخليفة الجديد علي التخلص ممن يستشعر خطره من كبار الرجال الذين مهدوا له الطريق الي الملك فكان نصيب الفاتح الكبير طاهر بن الحسين أن أمر بالتخلي عن كل فتوحاته، من كور الجبال والعراق وفارس والاهواز والحجاز واليمن للحسن ابن سهل أخي الوزير الخطير الفصل، الذي استعمله المأمون - بايحاء الوزير من غير شك - ولم يفعل طاهر سوى مدافعتة بتسليم الخراج حتي وفي الجند اذاقهم، وبعد ذلك كان علي طاهر ان يسير حسب أوامر الحسن بن سهل الي الرقة علي رأس قوات غير كافية لحرب احد ثوار الشام من رجال الامين، وهو ابن شيث «نصر بن سيار» الذي غلب علي نواحي حلب وما جاورها من الجهات، وعبر الفرات الي الجانب الشرقي يبغي التغلب عليه وفي نفس الوقت ولي طاهر الولايات المضطربة، والتي لم تكن قد دخلت في الطاعة بعد، وهي الموصل والجزيرة والشام والمغرب. أما عن هرثمة بن اعين فسيكرن مصيره الموت بعد قليل.

العلويون وثورة ابي السرايا:

انتهاز اعداء الدولة وعدم الاستقرار هذا وعملوا علي الاستفادة من الاضطراب والصيد في الماء العكر، كما يقال، فظن العلويون ودعاتهم ان الخلافة العباسية ضد ضعفها الصراع وان الفرمة موالية لقيام دولتهم المنتظرة وفي ١٠ من جمادي الثانية سنة ١٩٩هـ اعلنوا امامة ابي عبد الله محمد بن ابراهيم بن اسماعيل المعروف بابن طباطبا بالكوفة، مركز العلويين ودعوا للرضا من آل محمد، والعمل بالكتاب والسنة .

وربما كانت الظروف التي قامت اثناءها دعوة ابن طباطبا تدعو الي التفكير في موقف قواد المأمون مثل طاهر وهرثمة، وهل كان لهذا الموقف تأثير غير مباشر علي الأقل علي سير الحوادث في ذلك الاتجاه . فتتحية طاهر عما كان اليه من الاعمال التي افنتحها، والعهد بها الي الحسن بن سهل اخي وزير المأمون القوي الذي اصبح يدعي ذا الرئاستين، كان من شأنه ان دارت الشائعات بأن الوزير غلب علي المأمون، وكان من الطبيعي ان يشير ذلك بني هاشم ووجوه الناس وان يهيج الفتن . وهذا عن طاهر، أما فيما يتعلق بهرثمة فان الرجل الذي قام بأمر حرب العلوي اي بقيادة جيوشه هو ابو السرايا الذي كان مخاطر اشبه مايكون بزعماء العصابات والذي كان يعمل تحت قيادة هرثمة اثناء الصراع بين

الأمين والهامون . فلما استتب الأمن عاد الرجل الي سيرته الأولى .
هنا يمكن التساؤل عما اذا كانت علاقة هرثمة قد انقطعت نهائيا
بهذا المخامر ؟ وهل لم يكن من صالح هرثمة ان تقوم امام منافسة
طاهر بعض المعاصير من الصعب أن نجد أجوبة لهذه الأسئلة .

علي كل حال التقى ابو السرايا بابن طبابا واصبح قائده .
وعندما وجه الحسن بن سهل اليهما جيشا تمكنا من هزيمة هذا
الجيش في اخر جمادي الثاني ولكن في الشهر التالي يموت ابن
طباطبا . والظاهر ان أبا السرايا الذي كان يريد أن يكون صاحب
الأمر الفعلي تخلص منه فسمه واقام مكانه غلاما علويا محمد بن
زيد فتحقق له ماكان يبغى وعندما ارسل الحسن بن سهل جيشا
ثانيا تمكن ابو السرايا من القضاء عليه قضاء تاما .

وعندئذ احس الطالبيون بقوتهم فانتشروا في البلاد يبشرون
بدولتهم ودعوا نصر بن شيبث بالشام الي بيعتهم فرفض ، وقال : انما
حاربتهم محاربة عن العرب لانهم يقدمون عليهم العجم * وضرب ابو
السرايا الدراهم بالكوفة وسير قواته الي البصرة واسط
ونواحيهما ، بل وأكثر من هذا ظن ان اطراف الدولة قد دانت له
أو علي وشك أن تدن ، فارسل العمال والولاة الي مختلف الجهات
: الي البصرة والي مكة حيث فسد موسم الحج هذا العام والي
اليمن وفارس والاهواز وفعل غلب رجاله علي البصرة والاهواز
والمدائن واليمن ، كما انسحبت امام قائده جيوش الحسن بن سهل

التي كانت بواسطة الي بغداد، حتي طمع في دخول بغداد نفسها .

وعند استفحل الخطر، اضطر الحسن بن سهل الي استدعاء هرثمة الذي كان قد سار نحو خراسان وهو مختلف مع الحسن . ورضي هرثمة بعد امتناع الذهب لحرب ابي السرايا، وتمكن من هزيمته بسهولة قرب الملائن فارتد ابو السرايا والطلالبيون الي الكوفة حيث قاموا باعمال انتقامية ضد من بها من بني العباس، فهدموا دورهم وانتهبوا وخربوا ضياعهم، ولكن ثم يلبث ابو السرايا ان خرج منها ودخلها هرثمة «في ١٦ من المحرم سنة ٢٠٠هـ» وانتهي الامر بالقبض علي ابي السرايا وقتله وتسيير رأسه الي المأمون .

في هذه الفترة القصيرة التي عرف فيها العلويون سطوة الحكم والسلطان قاموا بأعمال انتقامية شنيعة، كما اساءوا السيرة . فكما حدث في الكوفة حدث في البصرة حتي سمي زيد بن جعفر بزيد النار، لكثرة ما أحرق بالبصرة في دور العباسيين . وفي اليمن اطلق علي ابراهيم بن موسي جعفر" الجزار لكثرة من قتل باليمن وسبي وأخذ من الأموال . وكذلك لم تسلم مكة والكعبة من فعالهم السيئة، فقام الافطس «الحسين بن الحسن» عامل ابي السرايا بالاستيلاء علي وداخعي بني العباس هناك وأخذ اموال الناس ومال أصحابه علي شبابيك الكعبة واخذوا ماكان عليها من أساطين الذهب . اليسيرة وماكان بخزانتها من المال . ولما بلغه موت ابي السرايا الح

علي محمد بن جعفر العجوز في قبول الخلافة واجبروا الناس علي بيعته . وأخيراً تمادي الطالبيون في عيهم وانتهكوا الاعراض [١]

وأخيراً تمكنت جنود هرثمة مع جنود والي اليمن المطرود من هزيمتهم واعتذر محمد بن جعفر بأنها كانت فتنة عمت الارض، وخلع نفسه فسير به الي المأمون بمرور سنة ٢٠١ هـ هكنا قضي تماماً علي الفتنة العلوية التي ربما كان له ضلع في اثارها نكايه في ابني سهل اللذين غلبا علي الخليفة او هلك ماسيتهم به اعداؤه فيغضب عليه المأمون ويموت بعد أيام في حبس الفضل .

الاضطرابات في بغداد:

اما عن بغداد فكان من الصعب عليها أن تعيش مطمئنة بدون خليفة والقيت تبعة عدم مجئ الخليفة الي العاصمة علي ابني سهل وانتهاز الجند تأخر أرزاقهم بعض الوقت، ثاروا ضد الحسن بن سهل وتمكنوا من طرده هو وعماله «ونادوا باسحق بن موسى الهادي نادبا للمأمون علي بغداد» وحاول الحسن ارضاءهم بالمال بعد أن استعمل معهم العنف، ولكن وصول خبر مقتل هرثمة [٢] وهروب بعض العلويين من سجن البصرة زاد من هياج الفتنة . وخرج

- (١) اذ تقول الروايات التي ربما كانت متحيزة ضد العلويين او الانطس وشب علي ٩ مرّة جميلة فامتنت فاخاف زوجها حتى حواري واخذها مدي وشب علي بن محمد بن جعفر غلام اسود وهو ابن القاضي فاحذه فنهراه انظرا ح ٥٥ هـ ١٧٧-١٧٨ .
- (٢) الحسن بن سهل كان يريد ان يوجهه بعد ذلك الي الشام والحجاز فرفض هرثمة وسار دون استئذانه . انظرا ابن الاثير ح ٥٥ هـ ١٧٩ .

قال الحسن بن سهل عن بغداد، وسار الحسن نفسه من المدائن الي
واسط في اوائل سنة ٢٠١ هـ. وفكر الهاشميون واهل بغداد من
الغاضبين علي الحسن بن سهل في مبايعة منصور بن الهديج وعرضوا
عليه الدفنة ولكنه كان مخلصا للمأمون قايي. واخيرا رضي ان
يضبط الامور باسم المأمون اي أن يكون نائباً له ببغداد والعراق
[كانوا يقولون لانرضي بالمجوسي ابن المجوسي]

المطوعة في بغداد:

ازاء اضطراب بغداد هذا، وقيام الفتن بين الناس وانتشار
السلب والذهب والمفاسد، من قطع الطريق الي اخط النساء
أوالمصبيان علانية وقصور السلطات عن ضبط الامور، قامت حركة
شعبية تهدف الي نشر الأمن والطمأنية وحسن المعاملة بين الناس،
واتخذ القائلون بهذه الحركة المبدأ الاسلامي الشهير: وهو الامر
بالمعروف والنهي عن المنكر" شعاراً لهم. معني ذلك أن الحركة
كانت في أول امرها عبارة عن دعوة الي التقوي ولزوم أوامر
الدين. هذه الدعوة ستعطي أعمال الجماعة عندما تضرب علي أيدي
الفساد صفة شرعية، إذ أن هذا العمل من اختصاصات صاحب الامر
الشرعي.

وأول ما فكر في تنظيم هذه الحركة رجل اسمه خالد الدريوش،
دعا هذا الرجل جيرانه واهل محله الي معاونته علي الامر

بالمعروف واليهي عن المنكر وفعلا قاتل اللساق وتمكن من هزيمتهم . كل هذا في حدود الاعتراف بسلطان ولي الامر . وقام بعد ذلك رجل اخر اسمه سهل بن سلامة وعلق مصحفا في عنقه ودعا الناس لمناصرته في دعوته، ولكن لما كان كثير من اصحاب هذين الداعين من عامة الناس وغوغائهم فان منصور بن المهدي الذي دخل بغداد قاومها وهزم اصحابها . وفي هذا الوقت كانت هناك مفاوضات بين الحسن بن سهل واهل بغداد من اجل تأمينهم علي أن يعطي لهم وللجند من الثوار الانزاق، وفعلا تم الاتفاق علي ذلك وعاد الحسن بن سهل الي بغداد (١٣١ شوال سنة ٢٠١هـ) الا أن سهل ابن سلامة ظل علي ما كان عليه من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

العهد للعلويين:

في غمرة الحوادث الدامية هذه وجد المأمون ان الفضل في ما وصلت اليه الدولة من حالة الاضطراب التي تكاد تؤدي بالاسرة العباسية، بل بالاسرة النبوية جميعا، يعود الي مشكلة وراثة 'رش، التي لم يستطع اسلافه ايجاد حل مرض لها، وفكر هو في ايجاد حل لهذه المسألة . وربما كان المأمون خياليا بعض الشيء . فيما فكر فيه، وربما كان فيسلوها يريد أن يصل الي اصل الداء . فعلي حين غرة اعلن العلوي علي بن موسى الرضا وليا للعهد بعده، وكان قد خلع اخاه المولود قبل ذلك سنة ١٩٨هـ .

ويمكن النظر الي هذا الاجراء من وجهين:

١- علي أنه عمل سياسي صرف يرمي الي ارضاء العلويين واتباعهم ومن يعطفت عليهم في انحاء الدولة المختلفة، وهؤلاء كانوا عديدين في العراق والحجاز ارضاء مؤقتا، ورغم سياسة القمع التي كانت الاسرة العلوية هدفا لها لم تزل الاسرة تتمتع بنصيب كبير من التعظيم، كما أن العباسيين كانوا يخشون أن يجلبوا لانفسهم. عن طريق الشدة القاسية كراهية الشعب التي كانت تحسا وشوما علي الامويين.

٢- علي أن المسألة أعمق من هذا، وأنها تتصل بشرعية ولي الأمر وأحقية الفرع العلوي من اسرة النبي هو الآخر في الاشتراك في الحكم اشتراكا فعليا وهذه نظرة الفيلسوف الزاهد الذي يبحث عن الحقائق الصرفة دون اعتبارات اخري. ويمكن التفكير في أن المأمون كان متأثرا في ذلك بآراء وزيره الفضل بن سهل.

ويؤيد وجهة النظر الثانية هذه أن المأمون زوج العلوي ابنته أم حبيب وزوج ابن الرضا وهو محمد ابنة اخري وهي ام الفضل، وفي هذا معني تحقيق وحدة الفرعين العباسي والعلوي. ثم أنه غير اللون الاسود لون العباسيين للرايات والخلع، واحل محله اللون الاخضر شعار العلويين «معني ذلك حل المشكلة السلوية وقيام دولتهم المنتظرة» وربما ايدها أيضا تصرفات المأمون ازاء العلويين بعد وفاة الرضا.

نتائجبيعة الرضا:

ولكن هذا العمل السياسي الغريب يعكس ما كان يتوقع له في العراق، فبدلاً من أن يؤدي إلى الهدوء أثار الغضب ، إذ احتج جميع العباسيين علي اعتزال اوتنحي رئيسهم «قالوا لا تخرج الخلافة من ولد العباس». وفي بغداد رفضوا اداء البيعة للامير العلوي وفكروا في خلع المأمون نفسه «كان أشدهم فيه منصور و ابراهيم ابناء المهدي» وفعلاً تنازعوا هذا الأمر أثناء خطبة الجمعة «٢٧ ذي الحجة». وتفرق الناس دون صلاة بعد ان نودي بعم المأمون . وهو المصغني الموسيقي الهاوي ابراهيم بن المهدي، خليفة ولقبوه "بالمبارك" .

وتمكن ابراهيم من الاستيلاء علي الكوفة مركز العلويين إذ أن هؤلاء في جانبهم لم يرضوا عن البيعة لعلي بن موسى للرضا بعد المأمون الا أن تكون البيعة لرضا فقط . واستولي كذلك علي السواد جميعه، ثم أخذ قصر ابن هيبيرة بفضل اختلاف بعض القواد الحسن بن سهل «١٠ اربيع» وسير ابراهيم جنوده الي واسط حيث كان عسكر الحسن متحصنين ولكنهم انهزموا . وفي بغداد نفسها قبض ابراهيم علي سهل بن سلامة الذي كان يدعو علي رأس رجاله الي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر «كان قائده عيسي بن محمد بن ابي خالد يسميهم القساق» فعاقبه وحبسه . وعندئذ عرف المأمون أن بغداد لا تستطيع ان تعيش بدون خليفة، كما رأي عدم جدوي ولاية

العلوي للعهد فقرر ان يعمل شخصيا ، والظاهر ان وزيره امده بمعلومات خاطئة عن الموقف بالعراق وأن مهره الطالبى هو الذي اوضح له الامر «ابنا سهل اخفى عنه بيعة ابراهيم» .

وكان هناك خطر جديد يهدده في المشرق ، فالحركات المذهبية التي بدأت بتعاليم ابي مسلم، والتي تابعه فيها المقنع عن تناسخ الارواح والحلول الالهى كانت قد انتشرت في اذربيجان بفضل من يسمى بابك الذي اكتسب كثير من الاتباع، والذي ربما بلغت قوته الي حد فصل الولايات الايرانية عن الغرب لو قدر لحركته ان تتسع الي أكثر من ذلك . فهم المأمون اذن خطورة الموقف وحرك مرو وسار الي بغداد . ولحسن حظه تمكن من الخروج من المأزق الذي دبره هو نفسه . ففي الطريق تحدث مأسا اشتهر بها التاريخ العباسي اذ يفتال الفضل بن سهل، ذو الرئاستين بسرخس- بتدبير من الخليفة علي ماتدل الظواهر . واتجه المأمون نحو طوس لزيارة قبر والده والتبرك بالصلاة عليه . وفي طوس مات مهره العلوي مصابا بسوء هضم كما يقال «أكل عنبه وكان يحب العنب»، ولكن من المحتمل انه مات مسموما «ابن الاثير لايعتقد في ذلك»، ودفن الي جانب قبر هارون ولماكان العلويون سيعتبرونه شهيدا في القريب العاجل، بنيت حول قبره مدينة جديدة سميت المشهد الرضوي "او مشهد" التي محت نهائيا مدينة طوس القديمة، والتي تمثل الآن اكبر عتبات الشيعة المقدمة الي جانب كربلاء .

ولما كان أخو الوزير وهو الحسن بن سهل بمنطقة واسط، وكان غريباً بالنسبة للعراقيين فإنه سيجن بعد قليل ، كما يقال وبسجن بهذه الحجة وبناء علي ذلك فإن اهل بغداد بدأوا يهجرون المطالب بالخلافة «ابراهيم بن المهدي» الذي اضطر الي الاختفاء، بعد أن تسلسل قواده الي قواد المأمون وفشل محاولاته للاحتفاظ بمركزه «في ١٦ ذي الحجة سنة ٢٠٣هـ» كما اختفي الفضل بن الربيع ايضاً ثم انه تحول الي قائد المأمون وسمحوا للمأمون بدخول بغداد .

عودة المأمون الي بغداد:

دغل المأمون بغداد في صفر سنة ٢٠٤ هـ / أغسطس ٨١٩ م وبصحبه طاهر بن الحسين الذي كان المأمون قد استدعاه من الرقة «للقدوم عليه بالنهر» وكان المأمون يتخذ لون العلويين الأخضر شعاراً له، ولكنه لن يلبث ان يغيره العباسيين الاسود . «حسب نصيحة طاهر الذي اصبح رئيس شرطة بغداد، وعامل خراج السواد» . عمل المأمون علي تهدئة العراقيين بان خفف الاعباء المالية عن اهل السواد بعض الشيء «وهي نفس السياسة المالية التي اتخذها عند ما اعتصم بخراسان أول امره فقد امر بمقاسمة اهل السواد علي الخمسين وكانوا يقاسمون علي النصف» .

طاهر الي خراسان:

وفي السنة التالية سنة ٢٠٥ هـ سار طاهر الي خراسان بامر

الخليفة الذي ولاه علي المشرق من مدينة السلام الي اقصي عمل المشرق . اذ كانت الاحوال تندي بالاضطراب والفتنة هناك . وبعد قليل من الوقت اصبح السيد ائذي لا ينازع للولاية جميعا . وولاية طاهر لخراسان بفضل تدبيره هو نفسه ، وذلك ان صديقه احمد بن ابي خالد «الوزير» اثار شكوك المأمون حول مقدرة والي خراسان غسان بن عباد «ابن عم الحسن بن سهل منافس طاهر» ، فقال : "اخاف ان تخرج فيه خارقة من الترك فتهلكه" وربما كان احمد ابن ابي خالد مغرضا ، فعندما توجه الي خراسان في ايام طلحة بن طاهر ليقوم بأمره وهب له طلحة ٣ آلاف درهم وعروضا بالفي الف درهم وذهب لابراهيم بن العباس كاتب احمد ٥٠٠ الف درهم . وبعد مسير طاهر الي المشرق حل ابنه عبد الله بن طاهر الذي خلفه في قتال نصر بن شبيب بالرقعة محله ببغداد كصاحب الشرطة كما ولاه المأمون من الرقة الي مصر وكذلك الجزيرة .

وبعد قليل سيشعر طاهر بقوته حتي انه في سنة ٢٠٧هـ ٨١٢م سمح لنفسه باهمال ذكر اسم الخليفة في خطبة الجمعة . ورغم أن هذا الاهمال او السكوت كان معناه العصيان المكشوف او اعلان الاستقلال عن الخلافة ومع ان الشكوك قالت عن طاهر الذي توفي عقب ذلك مباشرة انه مات مسموما بتدبير من الخليفة ، الا أن المأمون عين ابن طلحة واليا لخراسان وسيظل احفاد

طاهر محتفظين بهذا المركز حوالي قرن - بينما شغل افراد الاسرة وظائف مهمة في الغرب منها شرطة بغداد . وهكذا فقدت الدولة حقيقة ولايتها الشرقية المتطرفة . كما سبق ان فقدت الولاية الغربية [ولاية الاغلبة] .

حلب والموصل

ورغم عودة المأمون الي بغداد فان الولايات المختلفة كانت قد تعودت علي الاضطراب، وسيودي عبد الله بن طاهر خدمات عظيمة للدولة فيما يختص بادارة الولايات الغربية . وفي منطقة حلب حيث كان نصر بن شيث وهو تابع الامين المخلص والمتعصب للعرب قد رفض طاعة المأمون وغلب علي الجهة، فان طاهر قام بمحاربته، ولكنه لم يستطع قهره الاسنة ٢٠٩ هـ - ٨٢٥ وسيرباين شيث الي بغداد .

وانتهز أحد العباسيين من أتباع ابراهيم بن المهدي وهو المدعو "ابن عائشة" هذه الفرصة ودبر القيام بانقلاب في العاصمة، ولكن كشف أمره وكان جزاؤه القتل والصلب بعد الضرب والحبس «وهو أول عباسي صلب في الاسلام». وفي نفس هذه السنة «٢١٠هـ» قبض علي ابراهيم بن المهدي نفسه «وكان متنقبا في زي امرأة» ولكنه تمكن من نيل صفح المأمون وعفوه .

أما عن منطقة الموصل فكانت مضطربة كالعهد بها . إذ قامت الحرب بين واليها السيد بن انس وبين علي بن صدقة المعروف بزريق [١] والي ارمينية واذربيجان وانتهت بقتل ابن انس سنة ٢١١ هـ . وفي السنة التالية ارسل المأمون احد قواده «محمد بن حميد الطوسي» لحرب بابك وامره في نفس الوقت ان يصلح امر الموصل فتمكن من هزيمة زريق وأرسله للخليفة «وأصبح هو واليا للموصل» .

الحالة في مصر:

أما عن مصر فانها عرفت الاضطراب هي أيضا علي عهد المأمون، وكان علي عبد الله بن طاهر اقامة الأمن واتباب النظام بها . إذ ثار النزاع القديم بين عرب الجنوب وعرب الشمال بمناسبة النزاع بين الأخوين: فانهم القيسيون للأمين واخذ الكلبيون جانب المأمون . وتحققت وحدة الامبراطورية من جديد ولكن مصر ظلت مضطربة حتي اضطر المأمون نفسه الي القدوم اليها سنة ٢١٦ هـ . ففي سنة ٢١٠ هـ وبعد أن تخلص عبدالله بن طاهر من نصر بن شيث سار نحو مصر وكان قد تغلب عليها عبد الله بن سري . تمكن هذا الرجل من مقاومة القائد الذي ارسله عبدالله بن طاهر . ولكن عندما توجه ابن طاهر نحو العاصمة المصرية انهزم ابن سري ودخل المدينة واعتصم بها . ولكن ابن طاهر شدد عليه الحصار حتي استسلم وحمل الي بغداد . ولكن حدث في نفس الوقت ان غزا من

(١) زريق ازدي مثل ابن انس وهو موصل في الاصل، وكان قد تغلب علي المنطقة ما بين الموصل واذربيجان.

الاندلسيين « ١٥٠ الف رجل » الذين نفاهم الحكم صاحب الاندلس الاموي الاسكندرية واستولوا عليها وأثاروا الاضطراب من جديد . ولكن عبدالله تمكن بعد قليل من ارغامهم علي الانسحاب الي جزيرة كريت وتسيير دولاب الادارة من جديد « هذا الحادث يدل علي مايشبه الوحدة الاسلامية في البحر المتوسط ايام الاضمحلال البيزنطي - سيطر الاندلسيون بكريت حتي يطردهم البيزنطيون منها سنة ٩٦١م » .

وعاد عبد الله بن طاهر الي بغداد فاستقبله المأمون وأهل المدينة استقبال الفاتحين . وبعد موت اخيه طلحة سنة ٢١٣هـ تمكن من وضع يده علي ممتلكات الطاهريين الوراثة في خراسان « قيل أنه ولي خراسان بعد ابيه ولكنه كان قد عهد بها الي اخيه طلحة » وقام ولي العهد ابو اسحق المعتصم بامره مصر ولكنه اظهر عدم كفاءة اذ وثبت العصبيات العربية من قيسية ويعنية بواليه وقتلوه « ربيع اول سنة ٢١٤هـ » فاضطر الي السير بنفسه وقاتل الثوار وقمعهم بالقوة . ولكن الاضطرابات عادت من جديد « واشترك القبط في الثورة » حتي اضطر المأمون نفسه الي المسير من دمشق الي مصر في اواخر سنة ٢١٦ هـ كما قدم القائد التركي الافشين اليها من برقة . واقام المأمون بمصر سنة ٢١٧هـ حتي هدأت الاحوال « اذ طفر الافشين بأهل الفرما وقتل عبدوس الفهري الذي كان قد وثب بعمال المعتصم » وقبل أن المأمون هو الذي امر بحفر التلثة التي في الهرم الكبير .

وعن اليمن، فقد قامت بها ثورة علوية، فرغم المعاملة الخاصة التي حابي المأمون بها الطالبين، دعا عبدالرحمن بن احمد العلوي لنفسه بالخلافة هناك سنة ٢٠٧ هـ «للرضا من ال محمد» منتهزا تدمير اهلي البلاد من العمال . ولكن ما أن وجه المأمون احد قواده «دينار بن عبد الله» الي هناك وخير الطالبين بين امان الخليفة والحرب حتي اعلن الثائر الطاعة فاقتيد الي المأمون .

وكان لهذه الثورة اثرها في نفس المأمون فامر بمنع الطالبين من الدخول عليه كما منعهم من ارتداء لونها الاخضر واسرهم بلبس السواد، وبدأ يكون حذرا بعض الشئ في معاملته لهم، حريضا علي تعقب ابناءهم . فهو عندما تصله شائعات انكرها عن ميل عبد الله بن طاهر الي العلويين لابتورع عن أن يدس عليه رجلا يتظاهر بالدعوة للعلويين حتي يتأكد من صحة رايه في ابن طاهر .

ولكن لم يكن هذا تغييرا جوهريا في سياسته ازانهم فهو دائم العطف عليهم والمحابة لهم يفعل ذلك طبعا لا تكلفا، كما تقول النصوص فهو في نفس السنة ٢١١ هـ ينادي بالخط من شأن معاوية - عدو علي اللدود - ويلعن من ذكره بغير أفضله علي احد من اصحاب النبي . وفي السنة التالية ٢١٢ هـ يعلن تفضيل عن بن ابي طالب علي جميع الصحابة . وكما أنه قبل أن يموت في وصيته لاختيه المعتصم علي احسان صحبة بني عمه اولاد امير المؤمنين علي

والتجاذز علي مسيئتهم.

بداية بابك الخرمي:

هذه الاضطرابات التي حلت بمختلف الولايات لم يكن لها خطورة الحركة المذهبية الخطيرة التي ترأسها بابك باذريجان . هذه الحركة التي ظهرت سنة ١٩٢ هـ في اواخر ايام الرشيد، بداها رجل يسمى جاويدان بن سهل وستظل تقوي وتشتد طيلة عهدي الامين والهامون حتي تصبح خطراً داهماً علي عهد المعتصم الذي سيتمكن بفضل قواد الترك من التغلب علي الثوار . ولاشك في ان الانقسام الذي اضعف الدولة أيام الامين والاضطرابات التي تلت موته كان من الاسباب التي مكنت الثوار من الاعتصام بجهتهم ومقاومة الحملات الضعيفة التي كانت توجهها لهم الحكومة المركزية والحقيقة أنه لو قدر للرشيد أن يعيش بعض الوقت لقضي علي الحركة في مهدها . اذ أنه في نفس السنة التي بدأت فيها الحركة « ١٩٢ هـ » وجه اليهم قائدا علي رأس ١٠ الاف رجل فنكل بهم . وكان الرشيد حازماً ازاء الثوار فامر بقتل اسراهم وبيع سباياهم وطلت الحركة ضعيفة حتي سنة ٢٠١ هـ حين ظهر علي رأسها رجل صعب المراس هو بابك الخرمي الذي اظهر الي جانب كونه داعياً سياسياً ودينياً كفاءة عسكرية ممتازة فدوخ الجيوش تلو الجيوش .

ففي سنة ٢٠٤ هـ كانت الحرب سجلاً بينه وبين قائد الخلافة

يحيى بن معاذ . وفي سنة ٢٠٦ هـ هزم عيسى بن محمد بن ابي خاك، وفي سنة ٢٠٩ هـ، المأمون زريق وهو علي بن صدقة علي، ارمينية واذريجان وأمره بحرب بابك، ولكن هذا اكتفي بان اثار الاضطراب في الموصل والجزيرة كما رأينا وارسل المأمون قائدا اخر [هو محمد بن حميد] فتك بزريق وتوجه الي اذريجان لملاقاة بابك . وتوغل ابن حميد في البلاد الجبلية نحو معقل الثوار متخذا الحيلة في سلوك الدروب والمفاوز وحراستها، ولكن فاجأته قوات بابك في مضائق الجبال من كل وجه فانهزم الجيش وقتل ابن حميد وظل الثائر معتصما بجبال اذريجان حتي وفاة المأمون سنة ٢١٨ هـ .

الي جانب الثورة المذهبية المسلحة هذه، عرف مركز الدولة حركة دينية اشبه ما تكون بحركة الزنادقة علي عهد المهدي، وهي التي تسميها بمحنة خلق القرآن . اذ اهتم المأمون بالمسائل الدينية . وتدخل في الجدل بين المعتزلة واهل السنة . ومع ان العامة لم تهتم كثيرا بمسألة القضاء والقدر الا انها اهتمت اهتماما بالغا بمشكلة خلق القرآن، اذ اعتنق المأمون رأي المعتزلة في أن القرآن مخلوق وأظهر ذلك سنة ٢١٢ هـ وبدأ يجبر القضاة والفقهاء والائمة علي اعلان "خلق القرآن" واتخذ اجراءات شاذة ضد من لم يعتنق هذه الفكرة فترك الاستعانة به وربما ذهب الي ابعد من ذلك لعاقبه .

وكان الهدف من هذه الحركة مزدوجا كما هي العادة . فالخليفة
الي جانب اهتمامه بالحياة الروحية لشعبه ورغبته في شغل رعيته
بهذه المسألة واكتساب محبة الرعية ايضا، كان يعمل علي أن تكون
هذه المشكلة الدينية وسيلة لأن يتخلص «من اعدائه السياسيين ممن
لا يدينون بهذه الفكرة» وعرف المأمون كيف يربط بين الجهاد في
سبيل الله ضد بيزنطة وبين هذه الحركة الدينية . فهو يهتم بها
اهتماما جديا في اواخر ايامه اثناء وجوده سنة ٢١٨ هـ في
شغور الروم، تماما كما حدث ايام المهدي من اهتمامه بامر الزنادقة
اثناء توجهه لحرب الروم . فهو يكتب الي بغداد في امتحان
الفقهاء والقضاة وطلب انقال بعضهم اليه ليمتحنهم شخصا .

ومن المهم متابعة استجابات هؤلاء الاشخاص المهرة الذين
يبحثون عن أجوبة لاتجرح ضمائرهم ولا تضر بمبادئهم فعندما سئل
بشر بن الوليد عن رايه في القرآن قال: قد عرف مقاتلي امير
المؤمنين غير مرة- فلما قيل له قد تجدد كتاب امير المؤمنين
قال: اقول القرآن كلام الله، وعندما رد عليه بأنه لم يسأل عن هذا
وانما المطلوب معرفة ما اذا كان القرآن مخلوقا قال: الله خلق كل
شيء "قبل له" فما القرآن شيء فقال "نعم" قبل له "فمخلوق" .
قال "ليس بخالق" .

ولما سئل احمد بن حنبل، ماتقوله في القرآن قال كلام الله
قيل له "مخلوق هو" كلام الله ما ازيد عليها، فامتحن .

وكتب اسحق بن ابراهيم «المتحن - خليفة المأمون ببغداد» مقالات القرم واحدا واحدا وارسله الي المأمون فاجاب بان ذمهم . ولكنه كتب اليه ان يمتحن بشر بن الوليد وابراهيم بن المهدي «المدعي الخلافة ببغداد سابقا» وامره ان يضرب عنقهما ان لم يجييا، أما عن سواهما فيحملون الي معسكره موثقين بالحديد . رفعا شد احمد بن حنبل في الحديد ومعد اخر «محمد بن نوح» ووجها الي طرسوس في انتظار عودة المأمون من ارض بيزنطة الا ان خبر موت المأمون وصلهم وهم بالركة ، فعادوا الي بغداد .

الحرب مع الروم:

أما عن سياسة المأمون ازاء بيزنطة فرغم أنه لم يكن معتادا قيادة الحملات العسكرية شخصا الا انه اضطر في اخر ايامه الي القيام بالعمليات الحربية بنفسه ضد امبراطورية القسطنطينية . فبعد انقطاع الغارات الاستنامية بمناسبة الصراع بين الامين والمأمون ربما كانت مساعدة البيزنطيين لبابك الذي ظل دائما يرفع رأيه العصيان بالذربيجان والذي ازداد خطره اخيرا سببا في ان يقوم بغارة كبيرة علي أسيا الصغرى سنة ٢١٥ - ٨٣٠ م وخلال ٣ سنوات متتابة استمر الخليفة في الاشتراك في الصوائف .

ففي أول سنة ٢١٥ هـ توجه علي رأس حملة كبيرة الي

ثغور الروم واستصحب معه ابنه العباس، كما استدعي اخاه المعتصم من مصر، والتقي به هذا الاخير قرب الموصل، ومن الموصل اتجه الي منبج ثم دابق ثم انطاكية ثم المصيصة وطرسوس. ومن طرسوس دخل الي الاراضي البيزنطية في جهادي الاول هذه الغارة عمت كثيرا من نواحي اسيا الصغرى. فالعباس دخل من جهة ملطية يخرب ويدمر وفتح المأمون حصن ماجدة بالامان ثم حصن قرة عنوة وهدمه. ووجه القائد التركي اشناس الي حصن سندس ووجه قائدين اخرين الي حصن سنان، فخضع قائد الحصنين لشروط المسلمين. وعندما حل الشتاء عاد المأمون الي الشام «دمشق».

ولما تحسنت الاحوال الجوية في السنة التالية ٢١٦ هـ رجع المأمون الي ارض الاعداء وكان الامبراطور قد قام باعمال انتقامية ضد طرسوس والمصيصة وتمكن المسلمون من الاستيلاء علي عدد كبير من الحصون «٣٠» حصنا افتتحها المعتصم لاسيما هرقله التي خرج اهلها عنها بعد ان اخذوا الامان وكذلك مطمورة. واستمرت الصائفة ٤ اشهر «جهادي الاول - ١٤ شعبان» ثم عاد المأمون من جديد الي الشام.

وفي سنة ٢١٧ هـ حاصر الخليفة اكبر الحصون البيزنطية علي الحدود وهو حصن لؤلؤة طوال الصائفة تقريبا «١٠٠ يوم» ثم

رحل عنه تاركاً أحد قواد «عجيف» علي حصاره واضطر الباسليوس
تيوفيل .

الي طلب السلام بعد سقوط الحصن صلحا «ارسل ملك الروم يطلب
المهادنة فلم يتم ذلك» .

وفي سنة ٢١٨ هـ سيعود المأمون الي ارض شغور الروم
ويوجه ابنه العباس الي طوانة ليحصنها بالحاميات ، وتم بناء
الحصن فعلا وارسل الي البلدان في طلب المقاتلة للحصن
واجري لهم العطاء السخي «الفارس ١٠٠ درهم والراجل ٤٠
درهما» ولو ان هذا لم يتم ففي هذه الاثناء عرض المأمون مرضه
الذي مات فيه اذ فاجاته المنية قرب طرسوس حيث دفن .

الفصل الحادى عشر

التشريع

التشريع

تركنا التشريع في العصر الأموي، وأظهر مميزات انقسامه إلى قسمين: أهل الرأي، وأهل الحديث، وقد تجلي ذلك أكبر جلاء في آخر العهد الأموي، وأول العهد العباسي، وزاد الخلف بين الطائفتين، وتميزتا علي مرور الزمان، وأصبحت أعلام كل مدرسة من المدرستين جليلة واضحة مغيرة لأعلام الأخرى في الشارة واللون وما إلى ذلك، ويجعل أعلام مدرسة الحديث الحجازيون، وخاصة الدينيين، وعلي رأسهم مالك بن أنس وتلاميذه، ويحمل أعلام مدرسة الرأي العراقيون وخاصة الكوفيين، وعلي رأسهم أبو حنيفة النعمان.

ولمخر العراقيون بأنه قد نزل بين أظهرهم أعلام من الصحابة، كعبد الله بن مسعود، وعلي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وعمار بن ياسر، وأبي موسى الأشعري وغيرهم. وقال الحجازيون أن من تفرق من الصحابة في الأمصار أقل عدداً ممن في الحجاز فإن النبي صلى الله عليه وسلم بعد رجوعه من حنين ترك بالمدينة نحو اثني عشر ألف صحابي، مات بها نحو عشرة آلاف، وتفرق في سائر الاقطار نحو ألفين.

وفي الواقع اذا حصرنا نظرنا في الحديث، وجدنا الأولوية للحجازيين، فأكثر الصحابة كانوا بالمدينة، وهم أعرف الناس بحديث رسول الله، وأخبر بقوله وعمله حتي من رحل منهم إلى العراق وسائر الأمصار فانما كانوا عارية من الحجاز. وقد خلف هؤلاء - كعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود - الحديث في المدينة كما خلفوه في

العراق، ففضل الحجازيين في هذا لا ينكر، ولهذا اذا تجادل الحجازيون والعراقيين في هذا الباب كان الحجازيون أقوى وأقهر، بل عابوا علي العراقيين أنهم يتزايدون في الحديث الصحيح، ويكثرون من الحديث الموضوع. قال مالك: "اذا جاوز الحديث الحرتين ضعفت شجاعته"، وكان مالك يسمي الكوفة "دار الضرب" يعني أنها تصنع الأحاديث وتضعها، كما تخرج دار الضرب الدراهم والدنانير، وقال ابن شهاب: "يخرج الحديث من عندنا شبرا فيعود في العراق ذراعاً".

وسبب ذلك أن حديث رسول الله بدأ وختم في الحجاز، والمعتصمين لرسول الله كثيرون، ومن العسير الكذب في حادثة شاهدها الكثير، أو في قول سمعه الجم الغفير وليس الشأن كذلك في العراق، فبعده عن الحجاز يجعل اصطلاح القول ممكناً. هذا إلي أن اخلاط المسلمين من الأمم المختلفة كانوا في العراق أكثر منهم في الحجاز وفيهم من لم يصل الايمان إلي أعماق نفسه فلا يتخرج من اختلاف حديث أو رواية خبر غير صحيح، مادام ذلك يعلي شأنه ويؤيد دعواه، وعامل آخر، وهو ظهور المذاهب المختلفة في العراق، من معتزلة ومرجلة وأصناف من المتكلمين، وليس يجاريهم في ذلك أهل الحجاز، لبساطة أهل في الحياة والعقيدة، وفي كل صنف من هؤلاء، من رأي أن يؤيد حجته ورأيه بتأويل آيات القرآن واختلاق الحديث كما أسلفنا.

علي أن الحجازيين وان بزوا العراقيين في الحديث، فقد بزهم العراقيون في الرأي، وهو ما يسمي "القياس"، وكان ذلك طبيعياً أيضاً، لأن الأحداث تتبع في كثرتها وقلتها المدنية، فإذا كانت

معيشة قوم ساذجة بسيطة؛ كما هو الشأن في الحجاز كانت مسائلها الاقتصادية والجناية وأحوال الأسرة ساذجة بسيطة وأن تعقدت الحياة وعظمت المدينة كما هو الشأن في العراق، تعقدت الأحداث الاقتصادية والجناية والاجتماعية وتنوعت، وكل هذه الأحداث تحتاج إلى تشريع وأحاديث رسول الله [ص] التي كانت معروفة بالحجاز تكفي بنصها على وجه التقريب للالتاء بما يقع في الحجاز من أحداث، للشبه الكبير بين عهد مالك وعهد النبي [ص]، وليس كذلك الشأن في أحداث العراق، فهي كثيرة معقدة، متنوعة . بالعراق دجلة والفرات وما يتطلب ذلك من ري وخراج ليس مثلها في الحجاز، وفي العراق مال وفير يصب صبا، والمال يتبعه الترف والنعيم، واللهو والأجرام، وخلق مشاكل تحتاج إلى فتاوى ليس مثلها في الحجاز، وبالعراق اختلاط من فرس ودم ونبط وغير ذلك لهم عادات اقتصادية واجتماعية وليس مثلها في الحجاز فلئن كفي الحديث في الحجاز وحاجتهم قليلة وحديثهم كثير، فليس في العراق وحاجتهم كثير وحديثهم قليل - لذلك اضطروا إلى أعمال الرأي فيما لم يرد فيه نص، والتوسع في النص بالوضع - ورأينا النزاع يشتد حول القياس وجوازه وعدم جوازه، وكانت معركة كبيرة نجمل أمرها فيما يلي:

لعب القياس دوراً كبيراً في العصر العباسي، وشغل حيزاً كبيراً من العلوم، فالقياس في أصول الفقه، وفي الفقه، وفي اللغة، وفي النحو، وفي المنطق، والذي يهمنا الآن منه في التشريع.

أصل القياس أن يعمل حكم في الشريعة لشيء فيُقاس عليه أمر آخر لاتحاد العلة فيهما، ولكنهم توسعوا في معناه أحياناً فأطلقوا على

النظر والبحث عن الدليل في حتم مسألة عرضت لم يرد فيها نص، وأحياناً يطلقونه علي الاجتهاد فيما لانص فيه . وبعبارة أخرى جعلوه مرادفاً للرأي، ويعنون بالرأي وبالقياس بهذا المعني أن التقية من طول ممارسته للأحكام الشرعية تنطبع في نفسه وجهة الشريعة في النظر الي الأشياء، وتضمن ملكاته علي تعرف العلل والأسباب، فيستطيع اذا عرض عليه أمر لم يرد فيه نص أن يري فيه رأياً قانونياً متأثراً بجو الشريعة التي ينتمي اليها، وبأصولها وقواعدها التي انطبعت فيه من طول مزاولتها، ومن أجل ذلك ذموا الرأي الذي يصدر ممن ليس أهلاً للاجتهاد، والرأي الذي لاتسده أصول الدين، وهذا الرأي أو القياس كان مثاراً للنزاع بين العلماء منذ العصر الأموي كما أبنا ذلك في فجر الاسلام حتي بين اصحابهم فمنهم من كان يتشدد فلا يفتي الا بما ورد فيه نص من كتاب أو حديث كعبد الله بن عمر، ومنهم من كان يبدي الرأي فيما يعرض من الحوادث التي لم يرد فيها نص، كعمر وعبد الله ابن مسعود وغيرهما، يروي في ذلك الشئ الكثير . واستمر النزاع بين النزعتين يقوي ويشدد الي العصر العباسي، وأصبحت رئاسة أهل الرأي لفقهاء الكوفة، وأهل الحديث لأهل المدينة، وفي الواقع لم يخل امام من الأئمة - سواء كلن من أهل الرأي أم الحديث - من القول بالرأي، وهو مضطر الي ذلك لأن التقدم في المدينة يخلق كل يوم حوادث جديدة تحتاج لفتوي الفقهاء، ولايعد فقيهاً حتي يفتي فيها ولكن الفقهاء اختلفوا درجات متفاوتة في مقدار الأخذ بالرأي والاعتماد عليه، فمنهم من ضيق أمره، ومنهم من توسع، ومنهم من توسط كما سيأتي بيانه، وكان هذا من أهم الأصول التي خالفت بين الأئمة في التشريع.

وبينما نرى الخلاف بين الأئمة في الرأي في هذا النحو، نرى مسألة أخرى تثار، لها اتصال كبير علي ما يظهر لي بمسألة الرأي والقياس، هي "مسألة التحسين والتقبيح العقليين"، وهي مسألة اثارها المعتزلة، ومدارها هو: هل في الأفعال صفات من حسن أو قبيح جعلت الشارع يأمر بها، أو ينهي عنها؟ فلو لا ما في الصدق من صفة لها أمر به، ولو لا ما في الكذب من صفة لها نهى عنه؟ أو أن الشارع يأمره بالصدق جعله حسناً، وينهيه عن الكذب جعله قبيحاً؟ ولو شاء لعكس، هذه مسألة عاصرت القياس والرأي، وفي نظري أنهما مسألتان متساندتان، فمن كان يرى أن في الأفعال صفات من أجلها أمر بها الشارع أو نهى، قال: أن هذه الصفات يمكن ادراكها بالعقل، ولذلك يكون الرأي في امكانه كشف هذه الصفات وتعرفها وامدار حكم فيها، وذلك يجعل له حرية كبيرة في التشريع. ومن قال بعدم الصفات اللاتحية، وأن أمر الشارع هو الذي يحسن ويقبح، كان من الطبيعي أن يقف في اجتهاده علي النص، وكل ما يستطيع في الاجتهاد أن يلحق الشبيه بشبيهه، وطبيعي أن يذهب الحنفية إلي الرأي الأول، وأن العقل يستطيع ادراك ما في الشيء من صفات حسن أو قبح، وأن الانسان لو لم تبلغه دعوة فلا عذر له في الجهل بخالقه لدلالة العقل عليه، وهو ملزم بفعل الحسنات وترك السيئات لأن العقل يرشد الي ذلك، وأصبحت هذه المسألة من مسائل أصول الفقه.

وأخذت المسألة دوراً كبيراً في الجدل بين أصحاب الرأيين فيقول - مثلاً أحد الفريقين، وهو المنكر للتحسين والتقبيح العقليين: أنا نرى الشريعة قد فرقت بين المماثلين وجمعت بين المختلفين، ولو كان الأمر بالعقل لجمع بين المماثلين وفرق بين المختلفين، فالشارع أوجب

قضاء السوم علي الحائض دون الصلوة، من أن الصلوة أولى بالمنعظة.
عليها، وحرمة النظر الي العجوز الشوهاء القبيحة المنظر إذا كانت
حرة، وجوزة الي الشابة البارعة الجمال اذا كانت أمة وأكتفي في
القتل بشاهدين دون الزنا، وحرمة المطلقة ثلاثا علي الزوج المطلق ثم
أباحها له اذا تزوجت بغيره، وحالها في الموضعين واحدة، وأباح للرجل
أن يتزوج أربعاً، ولم يبيع للمرأة الا رجلاً واحداً، مع قوة الدواعي من
الجانبين وقطع يد السارق لكونها آلة المعصية، فأذهب العضو الذي
تعدي به علي الناس، ولم يقطع اللسان الذي يقذف به المحصنات، ولا
العضو الذي يزني به، وأوجب الزكاة في خمس من الابل، وأسقطها عن
عدة آلاف من الخيل الخ. الخ. فلو كان الأمر بالعقل لكان الحكم غير
هذا، فكيف نترك الحكم للرأي، وكيف نقول بالحسن والقبح العقلين؟

وقد رد عليهم الآخرون ردوداً طويلة مجملة ومفصلة بأبديت فيها
آراء مختلفة في عصور مختلفة، ومن هؤلاء من توسط فجعل للعقل
سلطان ومقدرة علي المعرفة في غير العبادات، أما العبادات فبما لا
دخل للعقل فيها.

علي كل حال لو رسمنا دوائر تمثل المذاهب في استعمال الرأي
لكان أصغرها دائرة الظاهرية، ثم الحنابلة ثم المالكية، ثم الشافعية،
ثم الحنفية وقد اتخذ بعض أنواع الرأي أسماء خاصة، كالأستحسان،
والمصالح المرسلة. فالأستحسان قد عرفوه تعريفات مختلفة، أقربها إلي
قهم أن يكون في المسألة شبه بمسألة أخرى ورد فيها نص، وكان من
مقتضي ذلك أن يقيس الفقيه هذه المسألة علي المسألة التي ورد فيها
النص، ولكنه لا يفعل ذلك ويترك هذا القياس الي تقدير المسألة

باعتبار العدالة، فهو يبحث عن العدالة المطلقة في المسألة ويصدر
مراعاتها حكمها، وهذا - كما ترى - أوغل في باب الرأي. وقد قال
بالاستحسان الحنفية، وأنكره الشافعية، وروي عن الشافعي في ذمة أنه
قال قال "من أستحسن فقد شرع".

وقريب من هذا ما يسمي "الاستصلاح" أو "المصالح المرسلة" وذلك
أن الشارع - كما قالوا - يدور في تشريعه علي حفظ أمور خمسة
وهي: الدين، والنفس، والعقل، والنسل والمال ولو استقرينا أوامر
الشرع ونواهيه لوجدنا علته كذلك، فإذا عرضت مسألة من المسائل لم
يرد فيها نص فيما يترتب علي الأمر من المصالح والمضار، وقد رنا ذلك
كله، وأصدرنا حكمنا بحله أو حرمة. وقد مثلوا لذلك بكفار حترسوا
بجماعة من أسري المسلمين، فلو كفنا عنهم لقاتلوا وغلبوا علي دار
السلام وقتلوا المسلمين، ولو رمينا الترس لقتلنا مسلماً معصوماً لم
يلذب ذنباً، فقالوا أن المصلحة تقتضي القتال ولو قتل الترس، لأن
مقصود الشرع تقليل القتل، أو منعه عند الامكان، وفي مقاتلته الكفار
تحقيق لهذا، لأنه اذا لم يفعل قتلوا المسلمين ثم قتلوا الأسري،
فالأسير معتول علي كل حال، وأقرب الطرق الي تقليل القتلي هو
مقاتلة الأعداء، ولو حترسوا بالمسلمين، فتري من هذا أنهم يعنون
بالاستصلاح أو بالمصالح المرسلة وزن ما يعرض من المسائل بميزان
المصلحة العامة، أو بأغراض الشارع العامة، أو بالقواعد الأساسية التي
جاءت من أجلها الشرائع، وهو ضرب من الرأي أو مراعاة العدالة يدعو
إلي نوع من الحرية في التشريع.

والآن نستعرض في ايجاز المسلك الذي سلكه أهل الحديث،
والمسلك الذي سلكه أدل الرأي.

توفي رسول الله [ص] وخلف كتاب الله، وأحاديث حدث بها،
وأفعالا فعلها، وقد شاهد ذلك كلد أصحابه وسمعوا منه، ومن الصحابة
من سمع بعض قوله دون البعض، ومن رأي بعض أفعاله دون البعض،
ثم تفرقوا في الأمصار عند الفتح، فممنهم من نزل العراق، وممنهم من
نزل الشام، وممنهم من نزل مصر، وكان كل جمع من الصحابة ينزل
مصرًا يروي ماسمع وما رأي من رسول الله، ولم يكن ذلك كله مدونًا،
أنما كانوا يقولونه شفاهة، وقليل منهم من يكتب. وظهر بعد ذلك
مصدرًا آخر، وهو أن كبار الصحابة وعلماءهم كانت تعرض عليهم بعض
الاحداث ممن لم يعرفوا فيها نصًا من كتاب ولا حديث، فيجتهد برأيه
ويقول فيها قولًا، وكان هذا القول فيما بعد يعد مستندًا من
مستندات التشريع، لأنه صدر عن صحابي كبير، عاشر النبي زمانًا
طويلاً، وعرف مناحي الشريعة ومجراها وأحياناً يتبين أن هذا الرأي قد
صدر فيه حكم النبي، ولكن هذا الصحابي لم يعمل كالذي روي أن عبد
الله بن مسعود سئل عن امرأة مات عنها زوجها، وكان لم يعين لها
مهرًا، فقال: لم أر رسول الله يقضي في ذلك، فالحوا عليه فاجتهد
رأيه وقضي بأن لها مهرًا كالذي يقرض لمثلها، لاوكس ولاشطط،
وعليها العدة ولها الميراث، فقام معقل بن يسار فشهد بأن رسول الله
قضي في مثل هذه المرأة بمثل هذا الرأي، ففرح ابن مسعود فرحة لم
يفرح مثلها بعد الاسلام. وأحياناً يظهر حديث يخالف رأي الصحابي
فيعدل عنه، كالذي روي أن أباهريرة كان يرى أن من أصبح جنباً فلا

صوم له، حتي أخبرته بعض نساء النبي بغير ذلك فعدل عن قوله.

علي كل حال زادت مراجع التشريع مرجعاً وهو فتاوي الصحابة، وليس ماخالفه الصحابة قاصراً علي ماذكرت، بل هناك أمراً آخر وهو أن الحديث قد يكون قد ثبت عن الرسول، ولكن اختلفت أنظار الصحابة في توجيهه وتفسيره وتأويله، أو أن الحديث قد نسخ بحديث آخر بلغ بعضهم ولم يبلغ البعض، مثال الأول ماروي أن رسول الله أسرع في الطواف مرة، فذهب كثيراً إلي أن الرمل في الطواف سنة، وقال ابن عباس ليس بسنة، أنها فعله النبي لسبب عارض، وهو أنه قد بلغه قول المشركين حطمتهم حمي يثرب، فأراد أن يظهر لهم بالأسراع القوة والنشاط، وليس بسنة؟ ومثال الثاني أن النبي رخص في نكاح المتعة عام خبير وعام أوطاس، ثم نهى عنها، فاختلفت الصحابة في ذلك وفي نسخة، وقد يثبت الحديث ايضاً ولكن يختلفون في علته، كالذي روي ان رسول الله قام للجنازة، فاختلفوا في تعليل ذلك، فقال قوم: ذلك لتعظيم الملائكة تحف بالميت، أو لهول الموت، فيعم الوقوف للميت والكافر، وقال قوم: أنها كانت ليهودي، فكرة أن تعلقوا فوق رأسه، فالقيام يخص الكافر الخ.

فلما جاء عصر التابعين زادت المصادر مصدراً علي النحو الماضي، فكان من كبار التابعين من له فتاوي في حوادث لم تكن في عهد النبي ولا الصحابة وكان لكل كبير من كبارهم آراء في تفسير بعض الآيات القرآنية، وآراء في تأويل الحديث وآراء في فتاوي الصحابة، كما كان لهم آراء في تقدير الصحابة وتقويمهم من الناحية الفقهية، فمن التابعين من يفضل أقوال عبد الله بن مسعود علي غيره، ومنهم من

يفضل آراء علي وابن عباس، الي غير ذلك، ويغلب أن هذا الترجيح يرجع الي البلد الذي فيه الصحابي والتابعي وتابع التابعي . فهو يتتلمذ للصحابة الذين كانوا في بلده، ويأخذ بقولهم، يفضل روايتهم .

وجاء بعد التابعين طبقة أخرى تعمل عمل التابعين وهكذا، فعمر وعثمان وعبد الله بن عمر وعائشة وابن عباس وزيد بن ثابت كانوا أئمة المدينة، وجاء بعدهم تلاميذهم، ومن أشهرهم سعيد بن المسيب، وسالم بن عبد الله بن عمر، ومن بعدهما الزهري، ويحيى بن سعيد، وربيعة الرأي ومن بعدهم مالك، لذلك كان مالك أعلم الناس بقضايا عمر وأقوال عبد الله بن عمر، وعائشة ومن ذكرنا، وكان عبد الله بن مسعود وعلي في الكوفة، ثم شريح والشعبي، ثم علقمة وإبراهيم النخعي، وتمت السلسلة الي أبي حنيفة . وتعصب كل قوم لسلسلتهم، فكان مالك ينهج منهج من ذكرنا من أعلم مدرسته، وأبو حنيفة كذلك، قال أبو حنيفة مرة لمناظره: " إبراهيم أفقه من سالم، ولولا فضل الصحبة لقلت علقمة أفضل من بن عمر" . وكما كان مالك أعلم الناس بأحاديث المدينة وقضايا علماء الصحابة المدنيين وتابعيهم وفتاويهم وآرائهم، وكان أبو حنيفة أعلم الناس بقضايا عبد الله ابن مسعود وعلي ابن أبي طالب، وغيرها من صحابة العراق وفتاويهم، وآراء التابعين من الكوفيين . ولما جاء دور التدوين في العصر العباسي رأينا مالكا يجمع هذا الذي ذكرنا في كتابه الموطأ، والعلماء العراقيين يجمعون فتاوي أئمتهم ومشايخهم في الكتب .

ووجد كثير من علماء المدينة كسعيد بن المسيب والزهري يكرهون الرأي والقول به، ويهابون الفتيا ويعدونها محنة، وساعدهم

علي تحقيق نزعتهم ما أشرنا اليه قبل من كثرة الحديث عندهم، وقلة الأحداث التي تعرض لهم. وحملتهم هذه النزعة ايضاً علي أن يرحلوا الي البلاد يجمعون الأحاديث التي لم يروها رجال المدينة، فمنهم من رحل الي العراق، ومنهم من رحل الي الشام ومصر، فإذا استقوتوا رجعوا الي الكتاب، فإن وجدوا فيه نصاً عملوا به، وإلا رجعوا إلي الحديث، فكذا، وإن رأوا أحاديث مختلفة فاضلوا بينها بالراوي من حيث العلم والصدق، فإذا لم يجدوا حديثاً رجعوا الي أقوال الصحابة والتابعين فأخذوا بقولهم، فإن اختلف الصحابة والتابعون فاضلوا بين أقوالهم وخاصة أقوال أئمة بلادهم، فإن لم يكن شيء من ذلك رجعوا الي أصول الكتاب والسنة، فنظروا الي إشارتها ومقتضياتها لعلم يجدون مشبهاً لما عرض، أو يقع في أنفسهم حكمة للأمر أو النهي أو الحل والحرمة تنطبق علي هذه المسألة.

بجانب هؤلاء، كان قوم من أهل الرأي وخاصة في العراق، يتهيبون الحديث كما يتهيب الأولون الرأي، ويستعظمون "قال رسول" كما يستعظم الأولون "اجتهد رأيي" ولعل ذلك سببه أدراك مافي الأمر من صعوبة في اثبات نسبة الحديث الي رسول الله والاستيثاق من صحته. قال إبراهيم النخعي، وهو من علماء الكوفة أقول قال عبد الله [يعني بن مسعود] وقال علقمة أحب إلينا من أجل ذلك قل الحديث عندهم، وكانوا أجراً علي الرأي، بل لم يقتصروا في الافتاء علي مايقع من أحداث، وما أكثرها في العراق، بل تعدوا الي فرض القروض فلو قال رجل لأمراته أنت طالق نصف تطليقة أو ربع تطليقة فماذا يكون الحكم؟ ولو قال أنت طالق واحدة بعدها واحدة فماذا يكون الحكم؟ ونحو ذلك كان الأمر أصبح مرناً عقلياً كمسائل الحساب والجبر

والهندسة، ومرنوا علي ذلك مرناً عجيباً وخاصة أبا حنيفة كما سيأتي. فكان لهم قدرة فائقة علي قياس الأمر بأشباهه، واستخراج العلل والأسباب، ووجوه الفروق والموافقات، وقد اشتراكوا مع المدرسة الأولى في العمل بالكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين، ولكنهم اختلفوا عنهم في أمور:

منها ذكرنا من قلة الحديث والمبالغة في اشتراط صحته، وعدم التحرج من الرأي كالذي أسلفنا، ومنها أن أهل العراق لهم مشايخهم ومحاببتهم، ولأهل المدينة مشايخهم ومحاببتهم، ومنها: أن أهل العراق فلسفوا الفقه بمسيرة المنطق، والتوسع في التعليل العقلي، والتوسع في الاستنباط، والدقة في استخراج وجوه الشبه ووجوه الفرق، وكان طريقتهم جمع ما روي عن جلة الصحابة والتابعين الذين نزلوا في العراق من الحديث والفتوي والاستنباط، ثم يحفظون ذلك فإذا عرضت لهم مسألة فإن ورد فيها شيء من الكتاب والسنة أفتوا به، وأن لم يكن فيها رأي من آراء مشيختهم نظروا فيه، وألا استنبطوا الحكم من علة لهذه الفتاوي أو إشارة أو إيحاء، أو بحثوا عن حكم الحكم ثم عمموا الحكمة في المسألة التي عرضت، أو الفوا علتين أو حكمتين، استنبطوا الحكم منهما، أو جدوا في طلب شبه لهذه الحادثة وقاسوها عليه، فإن لم يكن شيء من ذلك رجعوا إلي ما يكتسبه المجتهد من طول المزاولة وادمان النظر، مما يصح أن نسميه "الذوق القانوني" يري به وجه الحكم، وأي الأحكام أقرب إلي العدل، وأكثر تحقيقاً للمصلحة وقد سموا هذه الطرق في استخراج الأحكام "تخريجاً".

وقد كان في كل مدرسة غلاة متطرفون، كما كان فيها معتدلون،

فمن مدرسة الحديث من غالا فمنع القياس والقول بالرأي، وتصر نفسه علي الفتوي فيها ورد فيه نص من كتاب أو سنة، وهرب من المسائل التي لم يجد فيها نصاً، ومنهم من اعتدل فأجاز العمل بالرأي في حدود معينة . ومن مدرسة الرأي من غالا حتي لم ير العمل بالحديث، لأن الأحاديث يعتورها الشك، فليس يسلم راو من غلط أو نسيان أو خطاً في حديثه، ومنهم من اعتدل فعلم به في حدود معينة، فإذا لم يستوف الشروط لجأ الي الرأي . وقد رأينا قبل أن ابن المقفع نقد حال المشرعين في زمانه، وقال أن منهم من زعم أنه التزم السنة، وقد غالا فيها سماه سنة ومنهم من غالا في استعمال الرأي حتي بلغ الاعتداد به أن يقول في الأمر الجسيم قولاً لا يوافقه عليه احد وتخلص من ذلك الي وجوب وضع قانون يضعه اولو الأمر يلزم به القضاة ويعمل به في الأمصار .

ونحن اذا اردنا أن نسجل التغيرات التي طرأت علي التشريع في العهد العباسي استطلعنا أن نسجل الظواهر الآتية :

١- أول ملاحظة أن الأمويين - اذا استثنيا عمر بن عبد العزيز - لم يكونوا يتصلون برجال التشريع ورجال الدين علي العموم اتصالاً وثيقاً، إلا في أحوال نادرة، كاتصال الزهري بهم، بل قصر الخلفاء انفسهم علي النواحي السياسية من قمع الثورات الداخلية والفتوحات الخارجية، وتنظيم شئون الدولة المالية وما إلي ذلك، وتركوا العلماء يدرسون ويفتون، وعينوا القضاء وتركوهم يقضون بما يرون، كأن السياسة منفصلة عن الدين، وكان وظيفتهم سياسية بحتة، فلما ثارت الثورة علي الأمويين واستقر الأمر في يد

العباسيين، كان من أثرها صبغ الدولة صبغة دينية، ورأينا النزعة الدينية، عند الخلفاء العباسيين الأولين واضحة جلية، ورأينا اتصال الخلفاء بالعلماء ورجال الدين أقوي وأبين، فأبو جعفر المنصور يقرب العلماء ويصلهم، والمهدي يشتد علي الزنادقة ويشي "أدارة" للبحث عنهم وتعذيبهم، والرشيد وأبو يوسف متالزمان، والهاشميون يصدر "مرسوماً" بخلق القرآن الكريم، ويقضي شرطاً من خالفته في مناقشة العلماء في ذلك وتعذيب من أنكره، ويناقش في نكاح المتعة ويريد أن يصدر أمراً في شأنه، وهكذا مما لانجد له مثيلاً في العهد الأموي. وعلي العنوم فقد أراد العباسيون الا يكونوا سياسيين فحسب، بل سياسيين ودينيين معاً وكان من أثر ذلك ان جماعة من اعلام العلماء عذبهم العباسيين لأنهم أبوا ان يخضعوا لوجهة نظرهم، والخضوع لسلطانهم، كمالك وأبي حنيفة وسفيان الثوري، علي حين انا نري الحسن البصري في العهد الأموي يجلس في المسجد الجامع ويتكلم في السياسة، ويستفتي في الخلفاء والأمراء فينقدهم في شدة، ثم لا يصيبه أذى. والذي يهمنا هنا هو الناحية التشريعية، فقد كان لاتجاه العباسيين هذا الاتجاه اثر بين في التشريع وهو صبغ أعمال الدولة كلها صبغة دينية. فنظام الري، ونظام الضرائب وحظر الترع وجباية الأموال، ونظام الدواوين، كلها مسائل دينية يؤلف فيها أبو يوسف القاضي كتابه الخراج، ويستفتي فيها الفقهاء، ويجتهدون فيها اجتهداً دينياً، وهكذا كل ما دق من الأمور وعظم مرجعه فتوي المفتين وقضاء رجال الدين، وهذا من غير شك - يجعل مهمة الفقهاء واسعة النطاق.

٢- ويتصل بهذا الأمر ان الفقه في العصر العباسي تضخم ونما
 نموا كبيرا، وسبب هذا امور ، منها: ما أشرنا اليه قبل من عمل
 العباسيين في صيغ الأمور كلها صبغة دينية، ومنها أن طبيعة النظام
 الذي جرى عليه الفقهاء تجعل المأثور يتزايد مع الزمن، فبعد أن كان
 في عهد الصحابة المأثور هو حديث رسول الله، أصبح في عهد
 التابعين المأثور أقوال الرسول وكبار الصحابة، وفي عهد تابعي
 التابعين المأثور هذا وقول التابعين وهكذا . فكلما جاء جيل ورث-عن
 قبل آراء المجتهدين، وفتوي المفتين، وقضاء القضاة، وسبب ثالث
 وهو أن مدرسة الرأي لم تكتف بما يحدث من أحداث بل كأنها فرحت
 بما لديها من وسائل الاجتهاد وأدوات القياس، والقدرة علي "التخريج"
 فأباحت اشارة المسائل الفرضية، وتبدي فيها رأيها، وتستعمل قياسها
 حتي فرضوا المستحيل والبعيد الوقوع، وأكثروا الفروض في أبواب
 الرقيق والطلاق والايمان والذر وكثرة لاحد لها، وبدأ بذلك
 العراقيون . ثم تبعهم فيما بعد الشافعية والمالكية ومن اسباب
 التضخم أن المملكة الاسلامية أصبحت في صدر الدولة العباسية بعيدة
 الأطراف، تضم بين جوانبها أمما مختلفة لكل أمة عادات اجتماعية،
 وعادات قانونية، وطرق في المعاملات، ولكل أمة دين له تقاليد، فلما
 دخلت هذه الامم في الاسلام واستقرت الأمور في العهد العباسي،
 وصبغت الأمور كلها صبغة دينية، وتفرق الآئمة في الامصار عرضت
 هذه العادات والتقاليد علي الآئمة، فعرضت أمور العراق علي ابي
 حنيفة وأمثاله، وفيها العادات الفارسية والعادات النبطية وغيرها،

وفيهما نظم القضاء الروماني، وماكان يجري في المعاملات وطريقة التقاضي، وعرضت أمور مصر علي الليث بن سعد والشافعي وأقرانهما، وفيها العادات المصرية والرومانية كذلك، ونحو هذا، فكان من عمل هؤلاء الأئمة "تسليم" هذه العوائد والتقاليد، أعني النظر إليها بالقواعد العامة للإسلام وأقرار بعضها وإنكار بعضها وتعديل بعضها، وهذا، وبإدراك باب واسع من الأبواب التي تضمم التشريع وتغذيها، وهذا أيضا قد جعل كل مصر يغذي التشريع غذاء خاصاً، قد لا يكون في غيره. وقديماً كانت مكة تغذي الفقهاء بهناسك الحج وبشؤون التجارة كما كانت المدينة تغذي الفقهاء أكثر من مكة في شئون الزراعة، وبأعمال رسول الله في المدينة. فلما فتحت الأمصار ظل الأمر علي هذا الحال، فدجلة والفرات ونظامهما قد غدياً بأبواب يوسف في آرائه في كتاب العراج، ومعاملة العراقيين في المزارعة والمساقاة والاستمناح غدت لغة العراق، ونظام النيل وعوائد المصريين غدت الشافعي في مذهبه الجديد - كما سيأتي - وعلي الجملة فكانت هناك عوائد عربية في جزيرة العرب، وعوائد فارسية في العراق، وعوائد رومانية في الشام، وعوائد رومانية واغريقية ومصرية في مصر، كلها عرضت علي الأئمة و"سلمت".

فلما كثرت الرحلات بين العلماء - كما أشرنا قبل - وأصبح من واجبات طالب العلم الأولية أن يرحل الي الأمصار المختلفة ويأخذ عن علمائها، زالت الحدود والفواصل التي تميز كل طائفة من المشرعين في مصر، فاستفاد العالم العراقي من الحجازي، والمصري منهما، وكل منهم نقصه، واستفاد فيما هو مقتصر فيه، وأفاد فيما هو غني به.

وهكذا عملت الرحلات في تطعيم كل شجرة من أشجار العلم، كما عملت في تقريب الوانها وطعومها، ومن ذلك التشريع، فنري ربيعة الرأي المديني يرحل الي العراق ثم يعود إلي المدينة، ومحمد بن الحسن العراقي صاحب أبي حنيفة يرحل الي المدينة ويقرأ موطأ مالك ويعود الي العراق، والشافعي يرحل الي المدينة والي العراق والي مصر وهكذا، ومن أجل هذا أصبحنا نري الفروق علي توالي الأزمان تقل بين مدرسة الحديث ومدرسة الرأي بما يأخذ الأولون من رأي الآخرين، وما يأخذ الآخرون من حديث الأولين وأصبحنا نري كتب المذاهب تتشابه، والفروض في كل المذاهب تكثر - وعلي الجملة يتأثر كل ما أمتاز به كل.

٣- من مميزات هذا العصر كذلك، كثرة اختلاف الفقهاء ونشاطهم في الجدل والمناظرة، فقد اختلفوا وتعددت أسباب اختلافهم، من ذلك اختلافهم في قوله تعالى: "والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء"، هل القراء الطهر أو الحيض؟ فذهب الحجازيون من الفقهاء إلي أنه الطهر، وذهب العراقيون إلي أنه الحيض، وكان اختلاف الحجازيين والعراقيين تبعاً لاختلاف الصحابة في هذا أيضاً، فقد روي عن عمر وعثمان وعائشة وزيد بن ثابت أنهم قالوا الاقراء الاطهار، كما روي عن عبد الله بن مسعود أنها الحيض، وفي هذا ما يدل علي ما سبق من انحياز العراقيين لابن مسعود، والحجازيين الي علماء الصحابة في المدينة، وقد يكون الاختلاف سببه تركيب الكلام وتأليف الجمل، وقد يكون سببه حمل الكلام علي الحقيقة او المجاز، وقد يكون سببه ماورد من جملة آيات أو احاديث اذا ألف بعضها مع

بعض اختلافات الهدارك فيما يستلج منها وما لا يستلج، وقد يكون سببه اختلاف الأحاديث الواردة في الموضوع، وإن كل مجتهد ودل إليه بعض دون بعض، أوضح عنده بعض دون بعض، كالذي روي عن عبد الوارث ابن سعيد أنه قال: "قدمت مكة فالتقيت بها أبا حنيفة، فقلت: ماتقول في رجل باع بيعاً . وشرط شرطاً؟ فقال البيع باطل والشرط باطل، فأنتيت أبي ابن ليلى فسألته عن ذلك فقال: البيع جائز والشرط باطل، فأنتيت ابن شبرمة فسألته عن تلك فقال: البيع جائز والشرط جائز . فقلت في نفسي سبحان الله، ثلاثة من فقهاء العراق لا يتفقون علي مسألة، فعدت الي أبي حنيفة، فأخبرته بما قال أصحابه، فقال: ما أدري ما قال لك، حدثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: نفي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع وشرط . فعدت الي ابن أبي ليلى فأخبرته بما قال أصحابه، فقال: ما أدري ما قال لك، حدثني هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: أمرني رسول الله أن اشتري بربرة فاعتقها، فاشتريت أهلها الولاء لأنفسهم، فقال رسول الله، ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل، البيع جائز والشرط باطل قال فعدت الي أبي شبرمة فأخبرته بما قال أصحابه، فقال: ما أدري ما قال لك، حدثني مسعر بن كدام عن محارب بن دثار عن جابر " قال: بعث النبي بغيراً وشرط لي حملاته الي المدينة بالبيع جائز والشرط جائز ، وقد يكون سبب الخلاف ماورد في الحديث يصح عند قوم، ولا يصح عند آخرين . ويشترط قوم لصحة الحديث شروطاً كثيرة إن لم تتحقق فضل عليه القياس، ولا يشترط قوم هذه الشروط ويفضلون الحديث - ولو لم يستوفها - علي القياس، وقد يكون الخلاف سبب اختلاف مقدرة

الفتهاء علي القياس والاستنباط، أو اختلافهم في المقدرة اللغوية والعلم بأساليب العرب ودلالة الكلام، وقد يكون سببه الاختلاف في وجهات النظر، وتاثر كل أمام بما يحيط به من بيئة طبيعية واجتماعية والنخ.

علي كل حال كان الاختلاف بين الفتهاء كثيراً وقديماً، كان هذا الاختلاف بين الصحابة، فقد اختلف ابو بكر وعمر في قتلي مانعي الزكاة، واختلف عثمان وزيد بن ثابت وعلي في عبد تزوج حرة هل يعتبر حال الزوج فيكون اقصي طلاقها طلقتين، وبهذا قال الاولان، أو يعتبر حال الزوجة، فيكون اقصي طلاقها ثلاثاً بذلك قال علي، وكاختلفهم في توريث الاخوة مع الجد، الي كثير من امثال ذلك وكانت كلما أتت طبقة زاد الخلاف لكثرة المسائل المعروضة ولكثرة المقتنين، وحتى اذا تبلورت مدرسة الحديث وتركزت في مالك واصحابه في الحجاز، وتبلورت مدرسة الرأي وتركزت في ابي حنيفة واصحابه في العراق، زاد الخلاف وكثر الجدل، واستمر النزاع، وكان اكبر الفضل في شدة المناظرة راجعاً الي مدرسة ابي حنيفة فان كثرة مسائلهم التي فرعوها، وعدم تخرجهم في ابداء الرأي فيما لم يصح فيه نص عندهم، جعل فتهاء الحديث يردون عليهم في شدة بأنهم أهملوا الحديث الي الرأي فأخطأوا، كما أن استعمال العراقيين للقياس وهو ضرب من المنطق سمح للمنطق أن يتسرب للفقهاء وجعل الجدل يتشكل بالشكل المنطقي، وفي هذا تكثير للجدل والمناظرة، وفي رأيي أن هذا الجدل هو الذي الجاكبار الائمة كالشافعي الي وضع اصول الفقه: فان

المناظرة كانت تدور حول الكلمات وتحديد معانيها، والجمل وتأليفها، وموقف السنة من الكتاب، والكتاب من السنة، وعمل الصحابة وهل هو حجة أولاً، والقياس ومدى استعماله ومتى يصح ومتى لا يصح، فجرد الشافعي وامثاله هذه المسائل التي يكثر فيها الخلاف، واجتهدوا ان يرجعوا المسائل الجزئية التي يتجادلون فيها إلى اصول فكان من ذلك أصول الفقه.

علي كل حال كان الخلاف كثيراً، وكان أكثر ما يكون في العصر العباسي حيث تركزت مدرسة الرأي ومدرسة الحديث، فرأيانهم يتناظرون في المساجد وفي حلقات الدرس، وفي المنازل، وحين اجتماعهم للحج، ويرحلون فيتناظرون، ويلتقون اتفاقاً فيتجادلون، وملئت الكتب بهذه المناظرات والمجادلات. ولنمثل لك بشئ منها، فقد رأى الفخر الزازي: "أن محمد بن الحسن [صاحب أبي حنيفة] قال للشافعي يوماً: بلغني أنك تخالفنا في مسائل الغضب، قال الشافعي: أصلحك الله، إنما هو شئ أتكلم به في المناظرة، قال فناظرني . . . قال محمد: ماتقول في رجل غصب ساحة وبني عليها جداراً وأنفق عليها ألف دينار، فجاء صاحب الساحة وأقام شاهدين علي أنها ملكه، فقال الشافعي: أقول لصاحب الساحة ترضي أن تأخذ قيمتها؟ فإن رضي والا قلعت البناء ودفعت ساحته إليه، قال محمد ابن الحسن: فما تقول في رجل غصب لوحاً من خشب فأدخله في سفينة ووصلت السفينة إلى لجة البحر، فأتي صاحب اللوح بشهدين عدلين، أكنت تنزع اللوح من السفينة؟ قال لا، قال، الله اكبر، تركت قولك، ثم قال: ماتقول في

رجل غصب خيطاً من ابريسم، فمزق بطنه، فخاط بذلك الا بريسم تلك الجراحة، فجاء صاحب الخيط بشاهدين عدلين ان هذا الخيط مغصوب، اكلت تنزع الخيط من بطنه؟ قال لا، قال: الله اكبر، تركت قولك، وقال اصحابه أيضاً: تركت قولك. قال الشافعي فقلت: لاتعجلوا، ارايت لو كان اللوح لوح نفسه، ثم اراد ان ينزع ذلك اللوح من السفينة حال كونها في لجة البحر، امباح له ذلك ام يحرم عليه؟ قال يحرم عليه، قلت ارايت لو كان الخيط خيط نفسه واراد أن ينزعه من بطنه ويقتل نفسه، امباح له ذلك ام محرم؟ قال: بل محرم: قلت ارايت لو جاء مالك الساحة، واراد أن يهدم البناء، ايحرم عليه ذلك ام يباح؟ قال: بل يباح، قال الشافعي فكيف تقيس مباحاً علي محرم؟ فقال محمد: فكيف تمنع بصاحب السفينة؟ قلت أمره ان يسيرها الي أقرب السواحل، ثم أقول له انزع اللوح وادفعه اليه، فقال محمد بن الحسن: قال النبي صلى الله عليه وسلم: لا ضرر ولا ضرار في الاسلام" فقال الشافعي: من ضره؟ هو ضر نفسه، ثم قال الشافعي: ماتقول في رجل من الأشراف غصب جارية لرجل من الزوج في غاية الرذالة، ثم أولدها عشرة كلهم قضاة سادة أشراف خطباء، فاتي صاحب الجارية بشاهدين عدلين أن هذه الجارية التي هي أم هؤلاء الأولاد مملوكة لي، ماذا تعمل؟ قال محمد: أحكم بأن أولئك الأولاد ممالكك لذلك الرجل، قال الشافعي: أنشدك الله أي هذين أعظم ضرراً: أن تنقل الساحة وتردها الي مالكها، أو تحكم برق هؤلاء الأولاد، فانقطع محمد بن الحسن". وأمثال هذه المناظرة كثيرة بين الحنفية والمالكية والشافعية وغيرهم.

هذه المناظرات - وان حكاها كل جماعة بها يتفق وعصبتته

المذهبية - وسعت دائرة الحركة الفقهية، وكونت آراء قانونية لها قيمتها، وحملت الكثير من الفقهاء علي ان يتسلحوا بأسلحة مناظريهم، فالقياسيون يتسلحون بالحديث، والمحدثون يتسلحون بالرأي، وقربت كثيراً من أوجه النظر المتباعدة، وربما كان أقرب مثال لذلك الشافعي ومحمد بن الحسن الحنفي، فكلاهما اطلع علي الناحيتين وتسلح بالسلحين.

ولم يقتصر الأمر علي المناظرة الشفوية، بل تعدى ذلك الي المناظرة بالمكاتبة، فنري الليث بن سعد يكتب من مصر الي مالك في المدينة يجادله في حجية اجماع المدينة، ويرد عليه مالك.

وقد أثرت هذه المناظرات أيضاً في الكتب المؤلفة في ذلك العصر ومابعده أثراً كبيراً، فلو قارنت بين كتاب الأم الشافعي، وكتاب اللحو السيوطي رأيت فرقاً كبيراً بين التأليفين فالأم يغلب عليه الحوار، قال كذا فقلت: رأيت ان زعم كذا؟ فان قال قائل كذا رددت عليه بكذا، قال لي بعضهم كذا فقلت له، الي نحو ذلك مما يغلب عليه الجدل والمناظرة والحوار، وكثيراً مايعرض لآراء المخالفين ويذكر حجتهم ثم يفتدوها بحججه، ويذكر فصلاً يعنونه "كتاب الرد علي محمد بن الحسن" وفصلاً يعنونه "كتاب اختلاف العراقيين" الخ. وهكذا الحنفية في التأليف، ولاتري هذا واضحاً جلياً في كتاب سيبويه، فهو أميل الي تقرير القواعد وتفريعها والاستشهاد عليها. وسبب ذلك الثورة الكبيرة التي كانت في هذا العصر في الآراء الفقهية. والحرية التي أبداهها الحنفية في استعمال الرأي، وجدنا مناظريهم في المحامهم، ونحو

ذلك مما لا يقاس به الخالف النحوي، والمناظرات النحوية، لأن الأمر فيه أغلب ما يكون علي النقل والسمع واستخراج القاعدة العامة من الجزئيات.

٤- ومن مميزات العصر العباسي في التشريع "التدوين" فقد ظهرت حركة التدوين في هذا العصر في كل فروع العلم ومنها الفقه، نعم كان في العصر الأموي نواة التدوين، ولكنها نمت واتسعت في العصر العباسي، وكانت كل مدرسة تتبع منحاه، فقد كان فقهاء المدينة يجمعون فتاوي عبد الله بن عمر وعائشة وابن عباس ومن جاء بعدهم من كبار التابعين في المدينة، وينظرون فيها ويستنبطون منها ويفرغون عليها، كما كان العراقيون يجمعون فتاوي عبد الله بن مسعود وقضايا علي وفتاواة، وقضايا شريح وغيره من قضايا الكوفة، ثم يستخرجون منها ويستنبطون، وقد بدأ الفقه في العصر الأموي الحديث، لأنه يعد مادة الفقه، وخاصة عند مدرسة الحديث، ثم بدأ يبوبون الحديث أبوابا حسب الفقه، فأحاديث الوضوء، ثم أحاديث الصلاة، ثم أحاديث الزكاة وهكذا. ثم بدأ يفرغون المسائل من الحديث، فيروي الذهبي أن عبد الله بن المبارك "دون العلم في الأبواب والفقه" ويقول في أبي ثور: "إنه صنّف الكتب وفروع السنن" يريد أنه جمع الأحاديث المتعلقة بموضوع واحد في باب واحد، وأوسع ماورد إلينا في هذا الباب كتاب الموطأ للإمام مالك، وقد خلا فيه خطوة جديدة في تقنين الحديث.

أبو حنيفة ومدرسته

أبوحنيفة هو النعمان بن ثابت بن زوطي فارسي الأصل، وقد ولد جده زوطي بكابل، واختلف في ولاده أبيه فقيل بالانبار، وقيل ينسا، وولد أبو حنيفة بالكوفة، وكان ثابت مملوكاً لرجل من ربيعة من بني تميم الله بن ثعلبة من فخذ يقال لهم بنوقفل، فكان أبو حنيفة مولى لبني تميم الله فلذلك يقال أبو حنيفة التيمي - يعنون أنه تيمي بالولاء - وقد شعر بعض الحنفية بغضاظة هذا الولاء، فرووا أنه من أحرار فارس ولم يجر عليه رق قط، ومادروا أن أمراً العلم والدين ببعيد عن الاعتزاز بالنسب والمعرفة والولاء وما إليه، وأن العلم لا يقوم أحد بقبيلته ولا ماله ولا وجاهة، إنما يقومه بقيمته الذاتية ومزايه العقلية، وقيل أبي حنيفة كان كثير من سادة الفقهاء من الموالى ابن عمر، وعطاء بن أبي رباح فقيه مكة، وطاوس بن كيسان فقيه اليمن، والحسن البصري وابن سيرين فقيهي العراق وغيرهم. كما أن العصبية المذهبية حملت بعض الاتباع لكل مذهب أن يضعوا الأخبار لأغلاء شأن أممهم، ومن هذا الباب ماروا من الأحاديث بتبشير النبي صلى الله عليه وسلم لكل إمام، من مثل ماروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في أهل العراق: "أن الله وضع خزائن علمه فيهم" ومثل: "يكون في أمتي رجل يقال له النعمان بن ثابت، ويكنى بأبي حنيفة يحيي الله علي يديه

سنتي في الاسلام" الخ، حتي لقد زعموا أن أبا حنيفة بشرت به التوراه، وكذلك فعل بعض الشافعية في الشافعي، والمالكية في مالك، وما كان اعناهم عن ذلك. ومن أجل هذا صعب علي الباحث معرفة التاريخ الصحيح لكل امام، فقد كان كلما اتى جيل تزيد في فضائل امامة، كأن الفضل لا يقوم إلا بالمبالغة فيه، ولذلك نرى أن ترجمة الائمة كلما قاربت عصرهم كانت اقرب الي الصدق وأبعد عن الغلو.

أغلب المؤرخين علي أن ابا حنيفة ولد بالكوفة سنة ٦٠ هـ ومات ببغداد سنة ١٥٠ هـ فيكون قد عاش نحو سبعين سنة، منها ٥٢ سنة في العصر الاموي ونحو ١٨ في العصر العباسي، إذن فقد ولد في عهد عبد الملك بن مروان ولما مات عبد الملك كان ابو حنيفة في السادسة من عمره ونشأ في ولاية الحجاج علي العراق، فقد مات الحجاج وعمر ابي حنيفة خمسة عشر عاماً، فرأي قسوة الحجاج ومعاملته للثارين، وحروبه وسطوته وسلطانه في العراق، وكان شاباً أيام عمر بن عبد العزيز، سمع بعدله وشاهد آثاره، ورأي تدهور الامويين، وشاهد بدء الدعوة العباسية، وسائرهما حتي تمت للعباسيين، والعراق وما اليه كان مهبطاً لهذه الدعوة، وكان مساهماً في حرب الامويين. وشاهد الحجاج بن يزيد بن المهلب أميراً علي العراق يحكم الناس حكماً عريماً عصبياً، كما

شاهد اماره خالد بن عبيد الله القسري، ونصر بي سيار، وما كان فيهما من محن، ورأي انتقال الخلافة من الأمويين الي العباسيين علي يد قومة من الفرس ورأي خروج محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب علي المنصور، وقالوا انه عطف علي محمد، وكان ميله معه، واخيرا رأي استقرار الأمر في يد العباسيين، وبناء المنصور لبغداد، وتحول أبهة الدنيا وحضارتها وجمالها اليها، ثم مات في خلافة المنصور، كل هذه الاحداث مرت علي أبي حنيفة وأعمل فيه فكره، وأثرت في نفسه آثارها المختلفة، وساهم في بعضها وكان خريجها والناشئ في احضانها، والمتكون من ذراتها، والناضح علي نيرانها.

نشأ ابو حنيفة في الكوفة، وكان في زمانه بعض الصحابة وكبار التابعين، ولم نعلم كثيراً عن نشأته الأولى وكيفية تعلمه، وقد روي أنه في السادسة عشرة من عمره حج مع أبيه، وشهد عبد الله بن الحارث أحد الصحابة يحدث بما سمع عن رسول الله. وقد اجتمع عليه الناس في المسجد الحرام، فسمع ابو حنيفة منه حديثاً، كما روي أنه سمع انس بن مالك وأربعة غيرها من الصحابة، وبعض العلماء يشك في ذلك.

ثم رأيناه بعد نشأته الأولى في التعليم يجلس في حلقة

المتكلمين بمسجد الكوفة، وكانت لهم حلقة بل حلقات - بجانب حلقات الفقه وحلقات الشعر وحلقات النحو - يتكلمون فيها في القضاء والقدر، والكفر والإيمان، ويستعرضون أعمال الصحابة في الحروب وغيرها، الي غير ذلك من مسائل علم الكلام فلما بلغ في ذلك مبلغاً كبيراً تحول الي الفقه، وروي زفر بن الهذيل قال: "سمعت ابا حنيفة يقول: كنت أنظر في الكلام حتي بلغت فيه مبلغاً يشار الي فيه بالاصابع وكنا نجلس بالقرب من حلقة حماد بن ابي سليمان، فجاءتني امرأة يوماً فقالت رجل له امرأة يريد أن يطلقها للسنة كم يطلقها؟ فأمرتها أن تسأل حماداً ثم ترجع لتخبرني . . فرجعت فأخبرتني، فقلت: لأحاجة لي في الكلام، وأخذت نعلي فجلست الي حماد .

ويروي عنه أنه قال: "كنت رجلاً أعطيت جدلاً في الكلام فمضي دهر فيه اتردد وبه اخامم، وعنه أناضل، وكان أصحاب العصومات والجدل أكثرها بالبصرة، فدخلت البصرة نيفاً وعشرين مرة، منها ما أقيم سنة وأقل وأكثر وكنت قد تنازعت طبقات الخوارج من الأباضية والصفوية وغيره . . وكنت أعد الكلام الفضل العلوم، ثم علمت انه لو كان فيه خير لتعاطاه السلف الصالح فهجر .

وعلم الكلام قد طعم بالفلسفة قبل أي علم آخر، وتأثر بها

كما تأثر بأراء الاديان الأخرى للاحتكاك بها في المناظرة والدعوة الي الدين - وقد أبنا ذلك قبل - فكان عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وغيرهما في البصرة يدعون الي الاسلام، ويردون طعن الطاعنين، ويبحثون في صفات الله، وفي العاصي الكافر أم مؤمن؟ الخ، ويطلعون علي أقوال أهل الديانات ويفتدونها بمثل حججهم الفلسفية، فالظاهر ان ابا حنيفة بدراسته لبرنامج الكلام، وبلوغه فيه مبلغاً يشار اليه بالاصابع، أكسبه قوة في المناظرة، وقدرة في المنطق، ومراداً علي الأسلوب العقلي في التفكير غير أسلوب المحدثين، فان كان المحدثون يكتفون في الحديث ببحث الرواة، فالمتكلمون يتجاوزون ذلك ايضاً الي النقد الخارجي، وهو موازنة الحديث لمبادئ الاسلام العامة وأصوله، ونحو ذلك كما رأيت. وقد عرف عن المعتزلة رؤساء المتكلمين نقد بعض الصحابة في جراحة، لم يقدم عليها غيرهم، ونقد بعض ما روي من الحديث في صراحة، ونجد لذلك كله اثراً في أبي حنيفة كما سيأتي.

كذلك كان ابو حنيفة بجانب حياته العلمية يحترف التجارة،
فكان خزازا

هؤلاء أشهر رجال مدرسة العراق، وكان لكل منهم يد في
تلويدها وتشكيلها، فابن مسعود فقيه جليل يتأثر عمر بن الخطاب
في دقة نظرة وحرية وعلي بن أبي طالب خلف مجموعة من القضايا
والفتاوي لأهل العراق حفظت عنه وعدت دستوراً وعلامة كان خير
تلميذ ابن مسعود وحامل علمه وفقهه ومسروق خلف لأهل العراق
فتاوي كثيرة كان يستفتي فيها، وشريع مارس القضاء نحو ستين
عاماً في العصر الأموي، فلبس الحياة العملية، وقد دعم مذهب
الرأي بدعائم قوية - وكان له أكبر الأثر في تلوينه وتمييزه،
والشعبي - علي العكس من ذلك - كان يغذي العراقيين بالحديث
والأثار فكانه هو وشريع تعاوناً علي تدعيم المذهب بعنصريه، كان
الشعبي ينقبض للفتوي ويتهيا شأن صاحب الآثار، وكان النخعي
يتهلل لها وينبسط شأن صاحب الرأي، وكان ذلك علي خلاف حياتهما
العملية، فقد كان الشعبي طريفاً منبسطاً فكها، فإذا جاءت الفتوي
وانقبض، وكان النخعي منقبضاً جاداً، فإذا جاء الرأي انشرح ثم جاء
حماد بن أبي سليمان فجمع ذلك كله في صدره وأسلمه لأبي حنيفة
لصاغة مذهباً . ولعلك لاحظت معني كثرة النخعيين في هذه

المدرسة، فعلقمة نخعي والأسود نخعي، وإبراهيم نخعي، ثم مسروق بن الأجدع همداني، ثم عامر الشعبي نسبة إلى شعب وهو بطن من همدان، والنخع وحمدان قبيلتان يمينتان، وشريح كندي، وكندة من اليمن، وخماد بن أبي سليمان أشعري بالولاء وأشعر قبيلة من اليمن ونحن نعلم أن معاذ بن جبل أرسله النبي صلى الله عليه وسلم قاضياً على الجند باليمن يعلم الناس القرآن وشرائع الإسلام ويقضي بينهم وجعل إليه قبض الصدقات من العمال الذين باليمن، كان معاذ من أعلم الصحابة بالحلل والحرام وهو صاحب الحديث المشهور الذي هو دعامة أهل الرأي وهو أن رسول الله «ص» قال لمعاذ بن جبل حين وجهه إلى اليمن بم تقضي؟ قال: بما في كتاب الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: بما في سنة رسول الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: اجتهد رأيي. فلعل هؤلاء اليمينيين كانوا متأثرين بمبدأ معاذ وتعاليمه وفقهه - وبالفعل نجد بعض أعلام هذه المدرسة كالأسود بن يزيد النخعي من تلاميذ معاذ بن جبل.

أخذ أبو حنيفة الفقه عن كثير: فسمع من عطاء بن أبي رباح، وهشام بن عروة، ونافع مولي ابن عمر، ولكن استأذه الذي أخذ عنه أكثر علمه حماد بن أبي سليمان الأشعري - وقد كان حماد واسع العلم فقيهاً، قال فيه النسائي أنه "ثقة مرجح" وكان غنياً سرحاً

كريمًا، مات سنة ١٢٠، كانت له حلقة كبيرة في مسجد الكوفة .
يجلس اليه فيها المتعلمون يعلمهم ويسألونه، ويأتي اليه اصحاب
الحاجات في المسائل التي تعرض لهم فيستفتونه وقد لزمه ابو
حنيفة نحو ثمانية عشر عاما لما رأي من علمه، فقد كان يقول
"حماد أعلم من رأيت" . جالسه اولا نحو عشر سنوات، ثم حدثه
نفسه أن يستقل ويكون لنفسه حلقة خاصة، ثم خجل من شيخه،
وأتيحت له فرصة ذهاب حماد الي البصرة فجلس مكانه يعلم ويفتي،
وعرضت عليه نحو ستين مسألة جديدة لم يسمع فيها رأي شيخه،
فلما عاد سألها فيها فأقره علي اربعين منها، وخالفه في عشرين فلزمه
حتي مات . واذ قد علمنا ان حماداً مات سنة ١٢٠ فيكون ابو
حنيفة قد لازمه الي أن بلغ سنه نحو الاربعين وقد كان يجادل
شيخه ويناقشه ويلزمه حتي روي عنه انه قال: "لزمنا حماداً لزوما
ما أعلم أحد لزم أحد مثل ما لزمته، كنت أكثر السؤال فربما تبرم
مني ويقول: يا أبا حنيفة قد انتفخ جنبي وفاق صدري، وحتى
روي أنه قال له يوم: "الزفتني" - أي اخلت كل ما عندي، وهي
عبارة قيلت قبل من سعيد بن المسيب لقتاده . ولما مات حماد نظراً
اصحابه فيمن يجلس مجلسه، ويتراأس حلقاته، فاختروا ابنه اسماعيل
بن حماد، ولكنه كان اميل الي الأدب من شعر ومعرفة بأيام العرب،
فتنحى عن الحلقة فترأسها موسى بن أبي كثير، ولم يكن بارعاً في

الفقه ولكنه لقي المشايخ والكبار وجالسهم ثم خرج حاجا فجلس مكانه ابوحنيفة وملا مكان حماد، واستمر في هذه الحلقة يعلم الناس ويفتي نحو ثلاثين سنة الي ان مات سنة ١٥٠ .

كل الاخبار تدل علي انه كان في سعة من العيش، ولعل ذلك كان من تجارته، فقد علمنا انه "كان بزازا" وله دكان في دار عمرو بن حريث، وكان طويلا تعلوه سمرة، لباسا، حسن الهيئة وكثير النغطر، يعرف بريح الطيب اذا اقبل واذا خرج من منزله قيل ان تراه .

وقد روي انه أريد علي القضاء مرتين فامتنع، احدهما في العهد الاموي اراده ابن هبيرة . عامل مروان بن محمد آخر بني امية علي العراق - فأبي فضربه بالسوط، وفي رواية انه اراده ليكون علي بيت المال فأبي فضربه، والاخري في العهد العباسي، اشخصه ابو جعفر من الكوفة الي بغداد، ثم اراده علي القضاء فأبي فحبسه فمات في الحبس . والروايات في هذه الحادثة مختلفة فبعضهم يرويها علي هذا الوجه، وآخرون يروون أن المنصور هدده بالضرب فقبل القضاء علي كره، ثم مات بعد ايام، وغيرهم يروي ان المنصور انما استقدمه من الكوفة لانه اتهم بالتشيع لابراهيم

العلوي، فعاش خمسة عشر يوماً ثم سمه فمات فالروايات مجمعة علي استدعاء المنصور له، ومجمعة علي انه مات بعد استدعائه بقليل، وانه مات في بغداد وقبره الي الآن في بغداد شاهد علي ذلك، ونحن نستبعد سم المنصور له، فقد كان للمنصور من القوة ما يغول له القتل علنا ان شاء، وقد سبق ان قتل ابا مسلم الخراساني، وهو ما هو في قوته وتعلق الجند به، كما قتل غير ابي مسلم من ذوي الوجة والعة، ونرجح الرواية الاولى من ارادته علي القضاء وامنتاعه وسجنه وتعذيبه، ويظهر ان هذا التعذيب والسجن ليس عقوبة علي ابائه القضاء، لان امام المنصور كثيرا من العلماء يرغبون في هذا المنصب وقد اراد الديث بن سعد علي القضاء فابي فتركه من غير ان يعذبه كما مر، ولكنه استدل من اباء ابي حنيفة علي صحة ما اتهم به من التشيع وعدم رضاه عن دولتهم. وقد روي عن ابي حنيفة اشياء من ذلك فقد روي زفر بن الهليل ان ابا حنيفة كان يجهر بالكلام «يعني ضد المنصور» ايام ابراهيم «يعني اخا النفس الزكية» وكان قد خرج علي المنصور [جهاراً شديداً، فقلت له: والله ما انت بمنته حتي توضع الحبال في اعناقنا. كما روي ان المنصور كتب كتابين فلامش وابي حنيفة علي لسان ابراهيم بن عبد الله ابي حسن، وبعث بهما مع من يثق به، فقرأ الكتاب الاعمش واطعمه الشاه،

وأما أبو حنيفة فقبل الكتاب وأجاب عنه فلم يري في نفس أبي جعفر منه شئ حتي فعل به ما فعل .

فالعالم ان أبا حنيفة كان أميل - في الفتنة التي قامت بين العلويين والعباسيين - الي محمد بن عبد الله النفس الزكية واخيه ابراهيم . وكان يروي أن محمداً احق بالخلافة، وكان ناقماً علي العباسيين سطوتهم وشدتهم وكثيراً من العلماء في هذا العصر كانوا علي هذا الرأي، كان امتحان العباسيين لهم ولميولهم مظهره عرض الوظائف عليهم، والاستدلال بابائهم أو قبولهم علي ميولهم، كما لا ننكر انه كانت هناك نزعة عند بعض العلماء تري ان في تولي الوظائف السلطانية تعريض الدين للخطر، حتي ان كثيراً من المحدثين لا يروون حديث من تقرب الي السلطان، وان كثيراً عابوا ابا يوسف من أجل توليه القضاء، والحكايات من هذا القبيل كثيرة، قال محمد بن جرير الطبري "انه قد تحامي حديث أبي يوسف قوم من اهل الحديث، من أجل غلبة الرأي عليه وتفريعه الفروع والاحكام، مع محبة السلطان وتقلده القضاء." .

ولعل السببين معاً كانا هما الباعثين لأبي حنيفة علي امتناعه عن تولي القضاء في العهد الأموي، ويرى الدولة قاسية شديدة

مضطربة وقومه الفرس يخرجون عليها ويبثون الدعوي ضدها، وفي الدولة العباسية ظلم وعسف واغتصاب الخلافة من العلويين، هذا الي مافي القضاء من تعرض لغضب السلطان ان ارضي الله، وغضب الله ان ارضي السلطان، وفي بعض الروايات انه قال للمنصور: "لوهددتني ان تعرفني في الفرات أو أن الي الحكم لاخترت ان اغرق فلك حاشية يحتاجون الي من يكرمهم لك فلا اصلح لذلك".

وقد روي بعضهم أن ابا حنيفة تولي للمنصور عد اللبن في بناء بغداد ويقول الخطيب ان العامة هي التي تدعي ذلك.

منحاه في الاجتهاد - مسلك ابي حنيفة في القرآن الكريم
مسلك كل الامة ان اختلفوا في شئ فيه فاختلاف في فهم مدلوله
واشارته وطرق الاستنباط منه اما في الحديث فكان له مسلك خاص،
وهو التشدد في قبول الحديث والتحري عنه وعن رجاله وحتى يصح
وكان لا يقبل الخبر عن رسول الله (ص) الا اذا رواه جماعة عن
جماعة، او كما يعبرون هم اذا كان خبر عامة عن عامة، أو كان
خبراً اتفق فقهاء الامصار علي العمل به، أو روي واحد من
الصحابة الحديث عن رسول الله في جمع منهم، فلم يخلفه احد، لان
هذا يدل علي اقرارهم له ولو كانوا يخافونه لردوا عليه، فكان هذا

بمثابة الحديث . يرويه جماعة ، قال ابو يوسف فعليك من الحديث
بما تعرف العامة ، واياك والشاذ منه ، فانه حدثنا ابن ابي كريمة
عن ابي جعفر أن رسول الله دعا اليهود فحدثوه حتي كذبوا علي
عيسي ، فصعد النبي «ص» المنبر فخطب الناس فقال : أن الحديث
سيفشو علي فما اتاكم عني وافق القرآن فهو مني ، وما اتاكم عني
يخالف القرآن فليس مني " وكان عمر فيما بلغنا لايقبل الحديث عن
رسول الله «ص» الا يشاهدين وكان علي بن ابي طالب لايقبل
الحديث عن رسول الله ، والرواية تزداد كثرة ويخرج منها ما لا
يعرف ولا يعرفه اهل الفقه ، ولايوافق الكتاب والسنة ، فايك وشاذ
الحديث ، وعليك بما عليه الجماعة من الحديث وما يعرفه الفقهاء
فقس الاشياء علي ذلك ، فما خالف القرآن فليس عن رسول الله
«ص» وان جاءت به الرواية . . فاجعل القرآن والسنة المعروفة
لك اماماً وقائداً ، واتبع ذلك وقس عليه ما يرد عليك مما لم
يوضح لك في القرآن والسنة .

فأبو يوسف رسم في هذا القول الخطة التي كان يسير عليها
هو وشيخه ابو حنيفة نحو الحديث ، وخلاصتها تضيق دائرة
مايعمل به من الحديث والاقتصار منه علي المعروف المشهور الذي
عرفه عامة الفقهاء ، وعدم الأخذ بالاحاديث التي لم تستوف هذه

الشروط، وروي عن يحيى بن نصر أنه قال: "سمعت أبا حنيفة يقول: عندي مناديق من الحديث ما أخرجت منها إلا اليسير الذي ينتفع به".

وروي عن أبي يوسف أنه قال: "كان أبو حنيفة لا يري أن يروي من الحديث إلا ما حفظه عن الذي سمعه منه" وقال: «ردي» علي كل رجل يحدث عن النبي «ص» خلاف القرآن ليس رداً علي النبي «ص» ولا تكديماً له ولكنه ردا علي من يحدث عنه الباطل وإلتهمة دخلت عليه ليس علي نبي الله، وكل شئ تكلم به النبي «ص» فعلي الرأس والعين قد آمننا به، وشهدنا أنه كما قال، ونشهد أيضاً أنه لم يأمر بشئ يخالف أمر الله، ولم يبتدع، ولم يتقول غير ما قال الله، ولا كان من المتكلمين. وعلي الجملة فقد كان يشدد في الأخذ بالحديث وهذا - من غير شك - يضطره الي التوسع في القياس والاستحسان فيما لم يكن فيه أثر كتاب والا أثر صحيح، فليس فيه أمام المجتهد إلا القياس والاستحسان.

كذلك كان من مبدئه أعمال عقله فيما اذا روي في المسألة قولان أو أكثر للصحابة فيختار منها أعدلها أو أقربها إلي الأصول العامة، وعدم الاعتماد بأقوال التابعين إلا ان يوافق اجتهاده، فقد

روي عنه أنه قال "أني أخذ بكتاب الله إذا وجدته فما لم أجده
أخذت بسنة رسول الله «ص» والأثر الصحاح عنه التي فشت في
أيدي الثقات فإذا لم أجده في كتاب الله ولا سنة رسول الله «ص»
أخذت بقول أصحابه من شئت وادع قول من شئت، ثم لا أخرج من
قولهم إلي قول غيرهم، فإذا انتهى الأمر إلي إبراهيم والشعبي
والحسن وابن سيرين وسعيد ابن المسيب، فلي أن اجتهد كما
اجتهدوا " وهذا المنهج يسلم إلي عدم التزام العمل بالمأثور عن
التابعين، ثم يسلم بعد إلي القياس والاستحسان.

فهنا التشدد في قبول الحديث، وهذه الحرية في وزن أقوال
الصحابة والتابعين مضافا إليهما مذكرنا قبل من أسباب جعلت
القياس أساساً كبيراً من أسس التشريع في فقه أبي حنيفة.

وفي الواقع كان أبو حنيفة قياساً، سلك في القياس مسلكاً
فاق فيه كل من سبقه وأعانتة علي ذلك ملكاته الخلقية فكان دقيق
النظر، سريع الخاطر في إدراك ما بين الأشياء من فروقات وموافقات،
قوي الحجة كان - كما قالوا لو أراد أن يقيم الحجة علي أن هذه
السارية ذهب لفعل - وزاده ظهوراً في ذلك أنه لم يكن يتحرج من
الفتيات تحرج أهل الحديث، فليس يهمه أوقع الأمر أم لم يقع،

وكان حقيقياً أم فرضياً، بل يقول كما قال لقتاده: "أن العلماء يستعدون للبلاء ويتحرزون منه قبل نزوله". وذكر عنده مرة قول من قال: لا ادري نصف العلم، قال ابو حنيفة: فليقل "لا ادري" مرتين ليستكمل العلم. ولذلك كان كثيراً ما سئل وكثيراً ما اجاب، حتي روي أنه قال ستين الف مسألة، وقال بعضهم ثلاثة وثمانين الفا، وثمانية وثلاثين الفا في العبادات، وخمسة واربعين الفا في المعاملات، ومهما كان العدد مبالغاً فيه فانه يدلنا علي كثرة مسائل وما اجاب وما فرغ وما علم، وهذا لا يتأتى مع الصحة والضبط ودقة النظر الا من عقل قانوني كبير من، حتي كأن اصول الفقه الاربعة هي قواعد الحساب الاربعة، تعرض فيها المسائل فيطبقها علي هذه القواعد، ويحلها في سهولة في مقتضاها، ثم هو يجادل ويعارض فيما يفتي فيقيم الحجج القوية علي ما رأي وما افتي، وقد حكى عنه من هذا الشئ الكثير في كتب المناقب ان بولخ في بعضه فالاصل صحيح وقد نازله فقهاء عصره ونازلهم فانتصف منهم في الاغلب ونسوق لك امثلة قليلة مما روي سئل عن رجلين اشتركا في ثلاثة دراهم دفع احدهم درهمين والآخر واحداً واغتلطت الدراهم ثم ضاع درهمان من الثلاثة، فقال ابو حنيفة: الدرهم الباقي بينهما اثلاثا ثلث لذي الدرهم، والثلاثان لذي الدرهمين، وسئل فيها ابن شبرمة. فقال: أن الدرهم الباقي بينهما نصافاً، لكل نصف حجة ابن شبرمة

ان درهما من الدرهمين الضالعين هو من مال دافع الدرهمين بيلقين،
والدرهم الثاني من الدرهمين الضالعين مشكوك فيه فيكون منهما،
فيكون الدرهم الثاني مناصفة، وحجة ابي حنيفة ان الدراهم الثلاث
لها خلطت اصبح كل درهم مشتركاً لصاحب الدرهم ثلثه ولصاحب
الدرهمين ثلثاه، فاي درهم ذهب فهذا حكمه والدرهم الباقي هذا
حكمه ايضا ثلثه لدي الدرهم او ثلثها لدي الدرهمين وفي هذا
مثل من أمثلة الرأي الذي كان يستعمل وسئل ماقولك: في الشرب
في قدح أو كأس في بعض جوانبهما قضة؟ فقال: لأبأس به، فقليل
له أليس قد ورد النهي عن الشرب في اناء اللضة والذهب؟ فقال
ابو حنيفة: ما تقول في رجل مر علي نهر، وقد اصابه عطش،
وليس معه اناء فاعترف الماء من النهر فشربه يكفه وفي اصبعه
خاتم؟ فقال مناظره: لأبأس بذلك، قال ابو حنيفة فهذا كذلك .

وجاءه جماعة من اهل المدينة ليناطره في القراءة خلف الامام
«وابو حنيفة يقول بعدم القراءة» فقال لهم لايمكنني مناظرة الجميع
فولوا الكلام اعلمكم فاشاروا الي واحد، فقال: هذا اعلمكم؟
والمناظرة معه كالمناظرة معكم؟ قالوا: نعم، قال: والحجة عليه
كالحجة عليكم؟ قالوا: نعم، قال: أن ناظرته لزمتمكم الحجة لانكم
اخرتموه فجعلتم كلامه كلامكم، وكنا نحن اخترنا الامام فقراءته
قراءتنا .

ومثل هذا مئات من المسائل استعمل فيها الرأي أو القياس أو الاستحسان ذكرت في كتب الفقه وكتب المناقب، يطول بنا القول لو كثرت منها، حتي ذكروا انه كان مولعاً بالقياس ايضاً في حياته العادية ، فقد روى انه أمر حجامه أن يلقط الشعر الأبيض من رأسه أو لحيته، قال: أن لقطتها كثرت، قال اذن القط السود حتي تكثر وتنادروا عليه في استعمال القياس بانه كان في مبدأ امره يشتغل بالنحو، ويريد ان يجري القياس فيه، فجمع كلباً علي كلوب قياس علي قلب وقلوب.

وروي الجاحظ عن حماد بن سلمة قال: كان رجل في الجاهلية معه محجن يتناول به متاع الحاج سرقة، فاذا قيل له سرقت، قال لم أسرق إنما سرق محجني، فقال حماد: لو كان هذا اليوم حياً لكان من أصحاب ابي حنيفة .

وعلي الجملة فقد مهر في القياس، وطبقه تطبيقاً واسعاً اثر في الفقه اثراً كبيراً من كثرة الفروع وتحديد وجود المشابهات وتسامح المجتهد سلاحاً قوياً في الافتاء . وقد لاندرك كبير فرق

فيما لدينا من كتب الفقه في المذاهب المختلفة، كمذهب الشافعي ومالك وأبي حنيفة، ومن أجل هذا قال بعض المستشرقين أن الفروق بين المذاهب قليلة، ولكن في رأيي أن هذه القلة إنما كانت في كتب تلاميذ الأئمة، لأن تلاميذ أبي حنيفة أخذوا ما احتاجوا إليه من الحديث، وتلاميذ مالك توسعوا في اقتباس ما هم في حاجة إليه من القياس فتقاربت المذاهب، أما في عصر أبي حنيفة ومالك أنفسهما فالفرق كان كبيراً .

كذلك عرف أبو حنيفة بالمهارة في فقه الحديث، اعني انه كان يسمع الحديث ويصح عنده، فيستطيع ان يفرع منه الفروع، ويستخرج منه الأحكام الفقهية في مهارة . سأله الأعمش [وهو من كبار المحدثين] عن مسائل فافتاه، فقال له الأعمش بكنا، فقال الأعمش، معشر القضاء انتم الأطباء ونحن الصيادلة .

ومن أجل هذا فرقوا بين المحدث والفقيه فقد يكون الرجل محدثاً لأفقيها وقد يكون قليل الحديث وهو فقيه .

ومن الأمور الظاهرة في فقه أبي حنيفة الحيل الشرعية وقد أصبحت فيما بعد باباً واسعاً من أبواب الفقه في مذهب أبي حنيفة

وغيره من المذاهب وان كانت في مذهب الحنفية اظهر والفت فيهما الكتب الخاصة، حتي لقد وضعت فيمه بعد حيل للهروب من كل التزام فحيل لاستقاط الشفعة وحيل لتخصيص بعض الورقة بالوصية، وحيل في اسقاط حد للسرقة وهكذا وقد خصص ابن القيم، جزءاً كبيراً من كتابة اعلام الموقعين في الكلام في الحيل وفي قيمتها والتشجيع علي من توسع فيها وقد قال ان تجويز الحيل يضر بالشرائع لان الشارع يسد الطريق الي المفسد بكل ممكن، والمحتال يفتح الطريق اليها بحيلة وقال: ان المتأخرين احدثوا حيلاً لم يصح القول بها عن أحد الائمة ونسبوها الي الائمة وهم مخطئون في نسبتها اليهم. ومن عرف سيرة الشافعي وفضله ومكانه من الاسلام، علم انه لم يكن معروفاً بفعل الحيلة ولا بالدلالة عليها، ولا كان يشير علي مسلم بها، واكثر الحيل التي ذكرها المتأخرون المنتسبون الي مذهبه من تصرفاتهم تعلقوها عن المشرقيين وادخلوها في مذهبه" وقد اطلال في اقسام الحيل وما يجوز منها وما لايجوز، فما كان من الحيل لاخذ اموال الناس وظلمهم في نفوسهم وسفك دمائهم، وابطال حقوقهم وافساد ذات بينهم، فهي محرمة . . ولايختلف المسلمون ان تعلم هذه الحيل حرام والافتاء بها حرام، والشهادة علي مضمونها حرام، والحكم بها مع العلم بحالها حرام وهناك حيل للتوصل الي الحق او لدفع الظلم بطريق مباحة

وهذا جائز الي اخر ما قال . وقد ضرب امثلة كثيرة لذلك .

وقد رويت عن أبي هريرة مسائل في هذا الباب، أكثرها من باب الايمان والطلاق، منها ما يظهر أن سكان العراق تفننوا في الايمان والطلاق تفننا عجيباً، وكانوا يستفتون الائمة في هذه الايمان العجيبة التي يوقعونها فيحلف «الاعمش» بطلاق امرأته أن أخبرته بفناء الدقيق أو كتبت به، أو أرسلته، أو ذكرت لأحد ليذكره له، أو أومات في ذلك، فتسأل امرأته أبا حنيفة فيحتال لمخرج لهذا، فيقول لها: إذا انتهى الدقيق فشدني جراب الدقيق علي أزاره أو خوبه وهو نائم، فإذا أصبح أو قام من الليل علم خلاء الجراب وفناء الدقيق. ويحلف آخر ليقربن امرأته نهارة في رمضان، فيفتيه أبو حنيفة أن يسافر بها فيقربها نهارة في رمضان، ويحلف رجل وقد رأى امرأته علي السلم فيقول: انت طالق ثلاثاً أن معدت وطالق ثلاثاً أن نزلت، فيفتيه أبو حنيفة أن تنف المرأة علي السلم ولا تصعد ولا تنزل، ويحتال جماعة يحملون السلم بالمرأة فيضعونها علي الأرض. ويسأله رجل فيقول: لي ولد وليس لي غيره فإن زوجته طلق، وإن سريرته اعتق وقد عجزت عن هذا فهل من حيلة؟ فقال له أبو حنيفة: اشترى الجارية - التي يرضاها هو - لنفسك، ثم زوجها منه فإن طلق رجعت مملوكتك

اليه وان اعتق عتق مالا يملك، الي امثال أخرى ذلك من مجموع هذا ان الحيل التي افتي بها ابو حنيفة ليست من نوع التحايل علي ابطال الحق أو أكل الاموال بالباطل ونحو ذلك، انها هو استخراج فقهي للخروج من مأزق، مع عدم التعدي علي أحد في ماله ونفسه.

ويظهر ان هذا الباب استغل بعد من ناحيتين:

١- فبعد ان وقعت حوادث قليلة من هذا القبيل توسع فيها من طريق الفرض وسبح الخيال يستخرج فروضاً عديدة، خصوصاً في الايمان والطلاق ولم تحدث ولن تحدث، ولكن الخيال يتوهمها، والفقيه الفرضي يتمرن علي حلها.

الأمر الثاني ما اشار اليه ابن القيم من أن المتأخرين ارتكوا علي هذه المسائل القليلة والواردة عن الأئمة . وتوسعوا فيها حتي جعلوها في كل باب من أبواب الفقه، ولم يقفوا عند الحدود التي وقف فيها الأئمة، بل جعلوا منها مايحتال به علي اضاءة الحقوق وفساد الالتزامات.

مما لاشك فيه أن ابا حنيفة خرج علي الناس بمذهب جديد، فيه

حرية للعقل بكثرة استعمال الرأي والقياس، وبما استتبع ذلك من كثرة الفروع ورجوعها الي اصول، وبمقدرة فائقة في الاستنباط، وبشجاعة في مواجهة المسائل في الحدود التي ذكرناها، وبتقريب الفقه الي الالذهان، وحتى قال الجاحظ: وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن، يجالس الفقهاء خمسين عاماً، وهو لا يعد فقيهاً ويجعل قاضياً، فما هو مقدار سنة أو سنتين، حتي تمر ببابة فتظن انه من بعض العمال وبالحري لا يمر عليه من الأيام الا اليسير حتي يصير حاكماً علي مصر من الامصار او بلد من البلدان".

وطبيعي ان تحدث هذه المبادئ ثورة فكرية عنيفة، وتنقسم الناس الي قسمين: مؤيد لها وناصر، وهاج لها وقادح، وكذلك كان. فقد وقف العراق في امر ابي حنيفة معسكرين يتنازعان، ووقف المؤيدين لمذهب ابي حنيفة من العراقيين امام المدنيين كذلك يتنازعون ويترامون بالاقوال، هؤلاء يلصرون ابا حنيفة وينبئون فضله ومزاياه، ووجوه تفضيل مذهبه علي غيره، وهؤلاء يضعون من شأنه ويروون انه خطر علي الدين، وان طريقته تخالف طريقة المتقدمين وخلف لنا كل معسكر تراثاً من آرائه واقواله، وقد عقد الخطيب البغدادي فصلاً طويلاً نقل فيه اكثر ما قاله الفريقان، وكذلك-

فعل ابن عبد البر في كتابه الانتقاء .

وكان اكثر الذين عادوا من أصحاب الحديث، وطبيعي أن يكون ذلك لأن منهجه غير منهجهم، فهم يرون الحديث ويكتفون في تصحيحه بان الراوي غير مجرح، وهو يتشدد في روايته علي النحو الذي ذكرناه، فاذا رد آثارا ولم يعمل بها هاجوا عليه وقدحوا فيه، كذلك عاداه الفقهاء، من مدرسة الحديث لأنه كان يستعمل القياس مع وجود الحديث في نظرهم، مع أن الحديث لم يصح عنده فتركه الي القياس، فاذا رد الحديث ونطق بما يفيد أنه لم يثبت عنده شنعوا عليه بأن أكذب الحديث: فقد سأله رجل عن شيء، فأجاب فيه، فقال له الرجل: أنه يروي فيه عن النبي علي الله عليه وسلم وكنا فقال أبو حنيفة: دعنا من هذا، وحدثه ابو اسحاق القزاري حديثاً، فقال ابو حنيفة: هذا حديث خرافة، وحدثه احدهم حديث: البيعان بالخير ما لم يتفرقا "فقال ابو حنيفة: أرايت ان كان في سفينة؟ أرايت ان كانا في سجن؟ أرايت ان كان في سفر؟ .

وروي له ان يهوديا وضع راس جارية بين حجرين، فوضع النبي «ص» رأسه بين حجرين، فقال ابوحنيفة: هذا هليان- روى هذا وأمثاله الظاهر منها ان ابا حنيفة كان ينكر هذه الاحاديث لأنها لم

تصح عنده، فتشنع المحدثون عليه، وقالوا: أنه ينكر قول الرسول
ويقدم عليه رأيه. ويقولون مارأينا أجرا علي الله من أبي حنيفة،
كان يضرب الأمثال لحديث رسول الله واحصوا عليه أنه اغتني بنحو
مائتي مسألة فخالف فيها الحديث، قال رسول الله "للفرس سهمان
والرجل سهم" فقال أبو حنيفة: أنا لا اجعل سهم بهيمة أكثر من
سهم المؤمن. وقال صلي الله عليه وسلم: "البيعان بالخيل ما لم
يتفرقا" قال أبو حنيفة: إذا وجب البيع فلا خيار. وكان النبي
«ص» يقرع بين نسائه إذا أراد أن يخرج في سفر، فقال أبو حنيفة
القرعة قمار. الخ ووضح في هذا كله أن الشروط الدقيقة التي
اشتراطها في الأخذ بالحديث خالفت بين انظاره وأنظارهم، وجعلت
الحديث يصح عندهم ولا يصح عنده فإذا استعمل القياس لأن الحديث
لم يصح عنده اتهموه بأنه يقدم رأيه علي الحديث وقالوا: أنه
استقبل الآثار واستدبرها برأيه، والي كثير من امثال هذا التشنيع
وما من احد من الائمة الا كان له مثل هذا الموقف حين لا يصح
عنده حديث صح عند غيره فلا يأخذ به، وان كان أبو حنيفة في
ذلك أكثر، للأسباب التي ابناها.

نقم عليه المحدثون والفقهاء المحدثون كثرة استعماله للرأي
والقياس وشنعوا عليه بأن ذلك من قبيل اتباع الهوى. ولفرق كبير

بين اتباع الهوي واستعمال الراي بعد بذل الجهد . فاتباع الهوي دليل الي الراي لتحصيل مصلحة خاصة من مال أو جاه . اما الراي بمعني بذل الجهد ثم الوصول بعد ذلك الي مايعتقده من الحق فليس من الهوي في شئ . وقدروي عن كثير من هؤلاء اقوال في تحريج ابي حنيفة، كمالك بن انس والاوزاعي وسفيان الثوري ومن الغريبان ينقل اليها عن بعضهم كسفيان الثوري وسفيان بن عيينه وعبد الله بن المبارك اقوال متناقضة بعضها في مدحه والاعتراف بفتقه وفضله، وبعضها في نقده من هذه النواحي ايضا . فاما ان يكون لهم راي به قد عدلوا عنه الي غيره، واما ان يكون الاقوال في احدي الناحيتين موضوعة مختلفة، والوقوف علي اصحابها عسير . ويقول ابن عبد البر: ان ممن جرح ابا حنيفة ابا عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري وعده في الضعفاء والمتروكين . ولم يرو عنه ولاحديث واحد في صحيح البخاري ومسلم، ولكن روي له النسائي والترمذي، كما تعصب له آخرون من العلماء مثل شعبة بن الحجاج وابن جريح ويحيى بن معين وغيرهم .

كذلك نقده بعضهم في مسألة الحيل التي الممنا بها قبل، وعقد لذلك البخاري باباً في كتابه الجامع الصحيح وعناه بقوله: "وقال بعض الناس ان احكام الله شرعت لجلب ماصالح اليها او دفع

مضار، ومن امحل المحال ان يشرع من الحيل مايسقط شيئاً اوجبه او يحل شيئاً حرمه الخ". وقد رأيت ان ابا حنيفة نفسه لم يتوسع في الحيل توسع من بعده، ولم يستجز الا ضرورياً محدودة منها ونقدوه كذلك لقوله بالارجاء وسنعرض لذلك بعد .

نري من كل هذا كيف كان أبو حنيفة وفقهه مبعثاً لحركة فكرية عنيفة اقامها حوله رجال الحديث حيناً، واقامها من ليسوا علي مذهبه في منهج التشريع واقامها اعداء له وخصوم، كابن ابي ليلى، وكان قاضي الكوفيين الأمويين والعباسين وكان معاصراً لابي حنيفة وكان ابو حنيفة يفتي أحياناً بغير رأيه ويجهله في بعض قضاياهم ويبين خطاه، فاستعدي عليه الولاة . وغير ما قيل في هذا الباب مقاله ابن عبد البر: "ان كثيراً من أهل الحديث استجازوا الطعن علي ابي حنيفة لرده كثيراً من اخبار الاحاد العدول . لأنه كان يذهب في ذلك الي عرضها علي ما اجتمع عليه من الاحاديث ومعاني القرآن، فما شد عن ذلك رد وسماه شاذاً، وكان مع ذلك ايضا بقول: الطاعات من الصلاة وغيرها لاتسمى ايماناً داي لأن الايمان اعتقاد بالقلب» وكل من قال من أهل السنة الايمان قول وعمل ينكرون قوله، ويبعدونه بذلك وكان مع ذلك محسوداً اللهم وفطنته" . وتدخل الشعراء في النزاع، روي ابن قتيبة عن شفيق

البلخي انه أطري ابا حنيفة بمرور فقال له علي بن اسحاق لا تطره
بمرور فانهم لا يهتمون ذلك فقال شفيق: قدمه مساور الشاعر
فقال:

انا ما لناس يوما قايسونا بأبده من الفتيا طريفه
أتيناهم بمقياس طبع تلاء من طراز أبي حنيفة
إذا سمع الفقيه بها دعاها وأثبتها بعير في حنيفة

فقال له قد أجابه بعض اصحابنا

انا نو الرأي خاتم في قياس وجا، بسعة هنة سخيفة
أتيناهم بقول الله فيها وأثار مبرزة شريفة
فكم من فرج محض عفيف احل حرامه بأبي حنيفة

وفضل شاعر أهل الكوفة ^{١٠} لابي أهل المدينة في الفقه فقال:

وليس يعرف هذا الدين تعلمه الا حنينية كوفية السـدور
لاتسألن مدينا فتحرجه الا عن اليم والمثناة والزيـر

فاجابه رجل من أهل المدينة:

لقد عجبت لعلو ساقه قدر وكل امرا انا ما هم مقبور
قال المدينة ارض لا يكون بها الا الغناء والا اليم والزيـر
لقد كذبت لعمر الله ان بها قبر الرسول وخير الناس مقبور

ومهما قيل فان هذه الحركة القوية وهذا النزاع الشديد بين اصحاب
الرأي والحديث، رقىا الفقه في هذا العصر رقىاً عظيماً وفتحا
الاذهان واستخرجوا منها احكاما ونظريات هي خير نتاج العصور
الاسلامية .

لم يصل اليها اي كتاب في الفقه لابي حنيفة، ويظهر انه لم
يؤلف في ذلك وكل ما رواه ابن السديم عن كتبه هي كتاب الفقه
الاكبر، رسالته الي البستي، وكتاب العالم والمتعلم وكتاب الرد

علي القسرية ، فيظهر انه لم يدون في الفقه ولكن تلاميذه كانوا يحفظون اقواله ويكتبونها عنه، فنقلوا اليها اقواله في كل باب من ابواب الفقه .

اما كتابه في الفقه الاكبر الذي ذكره ابن السديم فمختلفون فيه، ذلك انه وصل اليها كتاب صغير في العقائد اسمه الفقه الاكبر في ورقات، روي بروايات مختلفة، وطبع في الهند مع شروحه، وبعض هذه الروايات غير صحيح، لانه يحتج علي الاشعرية ولهم، والاشعري كان بعد أبي حنيفة بنحو قرنين، وبعضهم يروي ان الفقه الاكبر ليس ما بين ايدينا، وانما هو كتاب في الفقه كبير حوي نحو ستين الف مسألة . والارجح عندي انه لم يدون في الفقه . لأن حركة التدوين في العصر العباسي ادركته وهو متقدم في السن، وان الفقه الاكبر كان في العقيدة، ولا يعد هذا تدويناً لانه رسالة كالرسائل التي يرسلها العلماء بعضهم الي بعض، ولان الفقه الاكبر الذي كان بين ايدينا اساسه صحيح النسبة لأبي حنيفة وان زيد عليه بعد، كما سنبحث ذلك عند الكلام في العقائد ومنها الارزاء ان شاء الله .

اتي بعد أبي حنيفة تلاميذه فجدوا في المحافظة علي مذهبه

بتدوينهم ولاستدلال له، وترتيب مسائله وتوسيعها، كما ايتح لبعضهم فرصة رئاسة القضاء فتقوي مذهبه وبثه وايدوه، وكان من أشهر هؤلاء التلاميذ ابو يوسف ومحمد وزفر، ويطول بنا القول لو استقصينا اخبارهم وآراهم فنكتفي في ذلك بلمحة يسيرة

ابو يوسف - عربي الأصل، جده سعد بن حبة أحد الصحابة من الانصار واخذ الفقه فيمن اخذ علي ابي حنيفة وكان من اقرب تلاميذه اليه، ولد سنة ١١٣ وتوفي سنة ١٨٢ . ونشأ فقيراً وكان ابو حنيفة يمهده بالمال ثم تولي القضاء لثلاثة من الخلفاء . المهدي ثم الهادي، ثم هارون الرشيد، وكان في ايام الرشيد قاضي القضاة . وكان عند الرشيد حظياً وكان موقفه هنا دقيقاً محرجاً، فحول الخلفاء اذا ذاك قادة ورؤساء يحتاجون الي مداراة وهم الذين قال فيهم ابو حنيفة للمنصور: "فلك حاشية يحتاجون الي من يكرمهم لك" فبقاء ابي يوسف في هذا المنصب هذا العهد الطويل يدل علي لباقة ومرونة فانفتحتين خصوصاً اذا اراد ان يجمع بين الدين والمنصب والجاه . ولعل مايمثل ابا يوسف خير تمثيل قوله: "رؤوس النعم ثلاثة: أولهما نعمة الاسلام التي لا تتم النعمة الا بها، ونعمة العافية التي لاتطيب الحياة الا بها، ونعمة الغني التي يتم العيش بها" . فقد اراد ان يجمع بين الاسلام والعافية والغني،

وما ادق ذلك واشفه، لذلك نراه في خطبه كتاب الخراج يقف موقفاً من أحسن المواقف واشرقها، يعطى الخليفة هارون الرشيد في قوة وحزم وبجانب ذلك تروي عنه الأخبار الكثيرة في ابتداء الحيل للخروج من المأزق يقع فيها الخلفاء والقواد ان بولغ في بعضها الأساس صحيح، والجمع بين ذلك كله لا يستطيع الا امثال ابي يوسف ان استطاعوا .

أفاد ابو يوسف لله ابي حنيفة من وجوده:

١- انه تولى القضاء عهداً طويلاً، وفي هذا فائدة للفقه كبيرة، ففي القضاء امتحان للنظريات العلمية ومهر لها في بوتقة العلم، ومواجهة لمشاكل عملية لا يدركها من اقتصر على النظر، وملائمة الصواب في طرق المرافعات ممن له البينة، ومن عليه اليمين ونحو ذلك، لا يفكر فيها كثيراً من يستفتي او يؤلف الكتب .
لهذا كان ابو يوسف منظماً لمذهب ابو حنيفة ومغنياً له بالطرق العلمية، ومن أجل هذا قال الحنفية: أنه يعمل بقول ابي يوسف في باب القضاء، اصف الي هذا ان ابا يوسف في مثل مركزه يستطيع ان يعرف من شئون الدولة ومناحيها في التفكير والعمل، وما يعرض لها من مشاكل وكيف تحل ما لا يعرفه غيره، وكل هذا

يكسبه نظراً جديداً ورأياً في مسائل لايراهها من يقيس أو يستحسن
بين جدران اربعة أو في حلقة المسجد .

٢- تولي قضاء بغداد وكان من يتولاه يكون قاضي القضاة،
فله نوع اشراف علي سائر القضاة وفي هذا تمكين لمذهب ابي
حنيفة ونشر له ولمبادئه .

٣- كان ابو يوسف اوسع اتصالاً بالمحدثين، أكثر رواية
للحديث عنهم، قال ابن جرير الطبري: "كان ابو يوسف يعقوب بن
ابراهيم القاضي فقيهاً عالماً حافظاً، ذكر انه كان يعرف يحفظ
الحديث، وانه كان يحضر المحدث فيحفظ خمسين او ستين حديثاً،
ثم يقوم ويمليها علي الناس، وكان كثير الحديث، وكان قد جالس
محمد بن عبد الرحمن بن ابي ليل، ثم جالس ابا حنيفة، وكان
الغالب عليه مذهب ابي حنيفة، وكان ربما خالفه احيانا في المسألة
بعد المسألة" . وقد رحل الي المدينة ولقي مالكا وناظره واخذ
علمه وجع عن بعض آرائه الي قول مالك واقوال الحجازيين، ومع
هذا فقد رضي عنه بعض المحدثين كابن معين وابن حنبل، ولم
يرضي عنه كثرة فلم يروعه شيئاً واحداً من أصحاب كتب الحديث
الستة، قال ابن عبد البر: "كان ابن معين يثني عليه ويوثقه، أما

سائر اهل الحديث فهم أعداء لأبي حنيفة وامحابه" . علي كل حال
يسهل اتصاله بالمحدثين سبيل تقوية مذهب أبي حنيفة بالحديث
ايضا وتطعيم المذهب ببعض آراء الحجازيين وبمخالفة أبي حنيفة
الي ماصح عنده من حديث احياناً .

٤- بما الف في الفقه، فقد روي ابن النديم انه الف كتاب
الصلاة كتاب الزكاة - كتاب الصيام - كتاب الفرائض - كتاب
البيوع - كتاب الحدود - كتاب الوكالة - كتاب الوصايا - كتاب
الميد والدبائح - كتاب الغصب والاستبراء - كتاب اختلاف
الامصار - كتاب الرد علي مالك بن أنس - كتاب رسالة في الخراج
الي الرشيد - كتاب الجوامع، الله ليحيي بن خالد «البرمكي»
يحتوي علي اربعين كتاباً، ذكر فيه اختلاف الناس والرأي المأخوذ
به ، امال املاها، رواها بشر بن الوليد القاضي، يحتوي علي ستة
وثلاثين كتاباً مما نفعه ابو يوسف .

والذي بقي لنا من ذلك كله كتاب الخراج، واقول نقلها عنه
الفقهاء من بعده وابواب نقلها عنه الشافعي في الأم .

كتاب الخراج - اسمه الخراج ولكنه يبحث في الواقع في اهم

ابواب مالية الدولة ويقول في أوله "أن أمير المؤمنين أيده الله تعالى سألتني أن أضع كتاباً جامعاً يعمل به في جباية الخراج العشور والصدقات والجوالي . وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به" . ويعني بالخراج ضريبة الأرض، فقد تركت الأرض المفتوحة علي ملك أصحابها، وفرض عليهم دفع ضريبة هي الخراج ويعني بالعشور ما يحصل من الأراضي التي أسلم أهلها كأرض المدينة واليمن ويعني بالصدقات الزكاة المفروضة علي المسلمين في مالهم، وبالجوالي الجزية علي رؤوس اليميين وامثالهم، لذلك هو يتعرض لضرائب الأرض وضرائب الرؤوس، ويفطره ذلك الي البحث في الأراضي الاسلامية ايها فتح عنوة وايها فتح صلحاً، ويتوسع في هذا الباب في قصة الغنالم التي يحرزها جيش المسلمين، وفي الأرض الموات، وفيما يخرج من البحر، وفي شلون الري ومايعرض له وفي معاملته اهل اللمة من حيث الضرائب، وبناء الكنائس والبيع والملبان . الخ .

ونجد في كتاب الخراج مصداق كل ماذكرناه عن ابي يوسف، هو يتعرض لأمور من أهم شلون الدولة المالية، لا يستطيع الامام بها والوقوف علي دقائقها يبيع الخز ويجلس في السوق، ويسمونه النعمان بن ثابت الخزاز، قال الاعمش وقد سئل عن مسألة : "انما

يحسن الجواب في هذا ومثله النعمان بن ثابت الغزاز، أراه يورك له في علمه، وقد اكسبه هذا أيضا فائدة كبرى إذ جعله يتصل بالحياة المالية العملية، فتعرف حقيقة مايجري في الاسواق ومعاملات الناس في البيع والشراء، والنقود والصرف والسلم والدين وما الي ذلك فاذا تكلم عن علم وخبرة ونظر وممارسة ومران.

الا من كان في مثل منصبه واتصاله بالخلفاء ومهام النولة وهو واسع الاطلاع في الحديث، كثير الاخذ في الشيوخ في مختلف الامصار ومختلف الاتجاهات فهو يروي عن «بعض اشياخنا الكوفيين» و «عن بعض اشياخنا من أهل المدينة» وعن ابي حنيفة وعن مالك بن أنس، وعن الليث بن سعد، وعن عشرات غيرهم، وهو واسع الاطلاع علي اقوال الصحابة واعمالهم، ويتجلي في كتاب الخراج وقوله الدقيق علي تصرفات عمر بن الخطاب لأنه كان العمدة في هذا الباب إذ ان عمر واجه هذه المشاكل المالية عند فتحه لبلاد الفرس والروم، وسنن لمن بعده ما يحتلونونه وقد ورد اسمه في كتاب الخراج نحو ١٢٣ مرة.

ويظهر في الكتاب اثر النقل والعقل معاً فهو كثير النقل عن النبي «ص» والصحابة والتابعين وغيرهم، وهو مع هذا يخالف عمر

بن الخطاب فيما قدر علي الاراضي ويرد علي اعتراض علي ذلك فيقول "لم لم ترد الناس الي ما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه وضعه علي ارضهم وتخلهم وشجرهم، وقد كانوا بذلك راضين، وله محتملين، قال ابو يوسف: أن عمر رأي الارض في ذلك الوقت محتملة لها وضع عليها، ولم يقل حين وضع عليها ماوضع من الخراج ان هذا الخراج لازم لاهل الخراج، وحتم عليهم ولايجوز لي ولمن بعدي من الخلفاء ان ينقص منه ولايزيد فيه، بل كان فيما قال لحليفه وعثمان حين اتياه بخبر ماكان استعمالهما عليه من أرض العراق: "لعلكما حملتما الأرض مالا تطبيق دليل علي انهما لو اخبراه انهما لاتطبيق ذلك الذي حملته من أهلها لنقص مما كان جعله عليهم من الخراج فلما رأينا ماكان جعله «عمر» علي ارضهم من الخراج يصعب عليهم، ورأينا اخذهم بذلك داعياً الي جلالتهم عن ارضهم وتركهم لها، لم نحملهم ما يطيقون ولم نأخذهم من الخراج الا بما تحتمله ارضهم".

ونراه يفاضل بين الاحاديث ويختار اشهرها واعمها، فيقول: "وابتعننا الاحاديث التي جاءت عن رسول الله «ص» في مساقاة خبير لانها اوثق عندنا واكثره واعم ماجاء في خلافها". يخالف ابا حنيفة في بعض أقواله، ويرجع الي الاثر فيقول: "وسألت يا أمير

المؤمنين عما يخرج من البحر من حلية وعنبر . . . وقد كان ابو حنيفة وابن ابي ليل رحمها الله يقولان : ليس في شيء من ذلك شيء لأنه بمنزلة السمك، واما أنا فاني أرى في ذلك الخمس، وأربعة أخماسه لمن أخرجه لأقد رويناه فيه حديثاً عن عمر رضي الله عنه، ووافقه عليه عبد الله بن عباس فاتبعنا الأثر ولم نرخلاله .
الخ .

محمد بن الحسن الشيباني - قال بعضهم ان أصلة من قرية في ضاحية دمشق تسمى "حريستا" وقال بعضهم ان صلة من الجزيرة "شمال العراق" وان أباه كان في جند الشام، وانفقوا علي انه من الموالي ونسبته الي شبيان بلولاء وأنه ولد بواسط ونشأ بالكوفة ولد سنة ١٣٢ وأخذ العلم عن ابي حنيفة ولكن الظاهر انه لم يصاحبه طويلاً فقد مات ابو حنيفة وعمر محمد نحو ثمان عشر سنة وتعلم ايضاً لأبي يوسف، ورحل الي المدينة، وسمع من مالك وسمع من الأوزاعي وغيرهما، فهو كأبي يوسف تفقه بفقه اهل الرأي في الكوفة، وبفقه اهل الحديث في المدينة وغيرها، وقد جمع في دراسته أيضاً - كأبي يوسف - بين دراسة أدبية من نحو ولغة وشعر ودراسة دينية من قرآن وحديث وفقه . وقد أقام بالمدينة ثلاث سنين وبعض سنة يأخذ من مالك وشيوخ المدينة،

ومن اجل هذا كان جيد اللغة، واسع الاطلاع في نواحي التشريع المختلفة، ويظهر انه نشأ في سعة من العيش لا كأبي يوسف، فقد روي انه اتفق علي تعلمه التتو والشعر والحديث والفقه ثلاثين الف درهم، وكما روي انه اعلن الشافعي بماله وقد كان جميل المنظر حسن الملبس، فصيح القول جيد الفقه، قال فيه الشافعي "كان محمد بن الحسن يملأ العين والقلب". وقد ولي القضاء، ولاء قضاء الرقة، ورويت عنه اخبار تدل علي أنه لم يكن يداري ويجمال كما كان ابو يوسف روي الخطيب البغدادي ان الرشيد اقبل يوماً، فقام الناس كلهم الا محمد بن الحسن فانه لم يقم، فخرج الاذن ونادي محمد بن الحسن، فجزع اصحابه له فلما خرج سئل عما كان قال: سألتني مالك لم تقم مع الناس؟ قلت كرهت ان اخرج عن الطبقة التي جعلتني فيها، أنك اهلتي للعلم، فكرهت ان اخرج الي طبقة الغلبة الخ كما روي الرشيد سأله في أمان واعطاه لاحد الطالبين، واراد الرشيد ان يتحلل منه فقال محمد: هذا امان صحيح ودمه حرام، وقد تقدم الخبر بذلك وقد عزله الرشيد عن قضاء الرقة ثم استدعاه وقد مات محمد مع الرشيد في خروجه الي الري سنة ١٨٩ وقد كانت بيته وبين شيخه ابي يوسف وحشة استمرت بينهما الي الوفاة ولعل السبب اختلاف النزعتين.

وقد افاد محمد فقه ابي حنيفة من ناحيتين: ناحية اشترك فيها مع ابي يوسف من سماع المحدثين وسماع فقه المدينة وتطعيم فقه ابي حنيفة بذلك وناحية أخرى هامة جداً وهي تفريغ المسائل من الأصول وقد عرف محمد بذلك وبمهارته في الحساب بما تحتاج اليه الموارد ونحوها، ثم تدوين الفقه في كتب كثيرة وهي عماد من أتي بعد في فقه ابي حنيفة، فمن أشهر كتبه الكتب الستة: المبسوط والزيادات والجامع الصغير، والسير الصغير، والجامع الكبير، والسير الكبير ويسمى الحنفية هذه الكتب كتب طاهر الرواية لأنها رويت عن محمد برواية الثقات وقد جمع الحاكم الشهيد هذه الكتب الستة في كتاب سماه الكافي، وشرحه جماعة منهم السرخسي في كتابه المشهور «المبسوط» وقد وصل إلينا وطبع في ثلاثين مجلداً، كما وصل إلينا كتاب الجامع الصغير لمحمد، يذكر في صدر كل باب "تمحمد عن يعقوب «ابي يوسف» عن ابي حنيفة" علي الجملة فقد كان محمد حلقة اتصال بين فقهاء الحديث وفقهاء الرأي، كما كان حلقة اتصال بين مذهب ابي حنيفة والشافعي، وكما كان له اكبر الفضل في تدوين مذهب ابي حنيفة وحفظه في الكتب، واغراف الناس منه بعد، وتأثر المؤلفين به ويكتبه.

زفر - وأما زفر العربي من تعميم كان من أشهر أصحاب أبي حنيفة وكان أمهرهم في القياس وأكثرهم لمسلكه التزاما في الرأي، كان أبوه هذيل واليا علي البصرة، وكانت أمه أمه فارسية، فورث وجهة من وجهة أمه ولسانه من أبيه وكان قوي الحجة مقدما عند أصحاب أبي حنيفة قياساً، ولد سنة ١١٠ توفي ١٥٨ .

ويعجبني في المقارنة بين الثلاثة ما روي عن المزني صاحب الشافعي انه جاءه رجل فسأل عن اهل العراق، قال: ماتقول في أبي حنيفة؟ قال: سيدهم قال "أبي يوسف؟ قال: ابتغهم للحديث، قال: فمحمد بن الحسن؟ قال أكثرهم طريفاً قال: فزفر؟ قال: احدهم قياساً .

وعلي الجملة فقد انتشر فقه أبي حنيفة في العراق، وكان طبيعياً ان يسود في العراق، فقيه نشأ ومذهب البلد أدري بما يعرض من المسائل واقدر علي حلها، وهو باعتماده علي الرأي والقياس - حيث لائن يصح - أكثر اسعالا للفتوي فيما يجد من أحداث فتطلب سرعة في البت، ثم قدر لأبي يوسف ان يكون في منصب رئيس يستطيع ان يعدم فيه هلا الفقه بسلطانه، كما حظي بمحمد يذونه ويسجله، ويذكر ابن النديم انه رزق كذلك بمحمد بن

شجاع الثلجي المتوفي سنة ٢٥٦ - وكان معتزليا ففتى فقه ابي حنيفة واحتج له وأظهر علله وفواه بالحديث وحلله في الصدور".
كما يصح ان نستنتج ان فقه ابي حنيفة تغير بعض الشيء علي يد ابي يوسف ومحمد والثلجي واضرابهم عما كان عليه في زمن ابي حنيفة نفسه، فرجعوا عي آراء له إلي الحديث الذي صح عندهم وضيّقوا حدود الرأي والقياس عما كانت عليه زمن الامام، باتصالهم بأهل الحديث وفقهاء الحديث، وبالحملات الشديدة التي شنع بها هؤلاء علي اهل العراق، وتلاقت هذه النزعة بنزعة اخري تشبهها، وهي نزعة بعض فقهاء الحديث الي الاستفادة من اصحاب الرأي، وتجلت هذه النزعة في الشافعي كما سيأتي - وبذلك قلت مسافة الخلف التي كان يراها الرأي بين ابي حنيفة ومالك.

ب - مالك ومدرسته

هو مالك بن أنس الأصبحي المدني، والأصبحي نسبة إلى ذي أصبح نسب عربي صحيح، وبذلك قال الواقدي، ولكن محمد بن إسحاق خالفه في ذلك، وزعم أن مالكا جده وأعمامه موالى لبني تميم بن مرة، وهذا هو السبب في تكذيب مالك لمحمد بن إسحاق والطعن عليه. ولد سنة ٩٣ أو ٩٧. وتوفي سنة ١٧٩، وعاش حياته بالمدينة، ولم أعرف أنه رحل عنها إلا إلى مكة حاجا.

وقد تزيد بعضهم في أخباره، كما فعل الحنابلة وغيرهم، فزعموا أن أمه حملت به ثلاث سنين «ولا أدري قيمة هذا في فضل الرجل»، ورووا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يخرج الناس من المشرق والمغرب فلا يجدون عالماً أعلم من أهل المدينة" الخ.

ولسنا نعرف كثيراً عن نشأته الأولى، ودراسته العلمية في صباه، وقد ذكروا أنه أخذ عن نافع ابن نعيم، وسمع الحديث من كثير من شيوخ المدينة أشهرهم ابن شهاب الزهري، وناقع مولي ابن عمر، فابن شهاب الزهري أحد الفقهاء والمحدثين وكان من أعلم الناس في زمانه بالسنة، وقد روي عنه مالك في الموطأ [في بعض

نسخ الموطأ] مائة واثنين وثلاثين حديثاً، ونافع مولي عبد الله بن عمر أصله من الديلم، أصابه عبد الله بن عمر في غزوة غزاها فأسلم وأخذ عن ابن عمر حديثه، وكان من أشهر علماء المدينة، وقد روي عنه مالك في الموطأ ثمانين حديثاً كما أخذ عن هشام بن عروة بن الزبير، وقد روي عنه في الموطأ ستة وخمسين حديثاً، وهكذا لقي شيوخاً كثيرين وخاصة شيوخ المدينة، وأخذ عنهم.

ومن أشهر ما حدث له محنته أيام المنصور حين خرج محمد بن عبد الله بن الحسن وأخوه إبراهيم علي المنصور، وقد رويت في هذه الحادثة روايتان: أحدهما أن مالكا كان يفتي الناس بأنه لا يقع مطلق المكره، ويحدث الناس بحديث "ليس علي مستكره مطلق" ولم تكن هذه الفتوى تعجب العباسيين، لأن هذا يستتبع أن من بايع العباسيين مكرهاً فله أن يتحلل من بيعته، وله أن يبايع محمد بن عبد الله بن الحسن بالمدينة، فرووا أن المنصور نهى مالكا عن التحديث بهذا الحديث، ثم دس إليه من يسأله، فحدث به علي رؤوس الناس فضربه بالسياط، والرواية الأخرى أن مالكا لما علا شأنه بالمدينة سعي حساده، ألي والي المدينة جعفر بن سليمان، وقالوا أنه لا يري إيمان بيعتكم هذه بشئ، وهو بحديث ثابت بن الأحنف في مطلق المكره أنه لا يجوز، فغضب جعفر ثم جرد ومد

فضربه بالسياط، ومدت يده حتي اخلعت كتفه، قالوا: فما زال مالك بعد هذا الضرب في رفعه من الناس وعلوا من أمره حتي كانما كانت تلك السياط حليا حلي بها.

كما روي عنه أنه سئل عن البغاه «يعني العصاة الخارجيين علي الغلقاء» أيجوز قتالهم؟ فقال: ان خرجوا علي مثل عمر بن عبد العزيز، فليل، فان لم يكن مثله؟ فقال: دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم، ثم ينتقم من كليهما، فكانت هذه الكلمة من أسباب محنته.

علي كل حال تتفق الروايتان في ضربه، وفي اصل السبب، وتختلف في التفاصيل. وقد روينا قبل عن أبي حنيفة مثل هذا الموقف، وزيد عليه طلبه القضاء وإبلاؤه فلعل رأي أبي حنيفة ومالك كان متفقاً، وسياسة المنصور في الحالتين واحدة.

تركزت مدرسة المدينة في مالك كما تركزت مدرسة الكوفة في أبي حنيفة، فان أردنا تصوير مدرسة المدينة كما فعلنا بمدرسة الكوفة فليكن هكذا:

على ابن أبي طالب (في الكوفة)

عبد الله بن مسعود (في الكوفة)

الاسود بن يزيد النخعي

مسروق بن الاعدع الهمداني

علقمة بن قيس النخعي

شرح بن الحارث السكندري

(مات سنة ٩٥)

(مات سنة ٩٣)

(مات سنة ٩٣)

(مات سنة ٧٨)

عامر بن شراحيل الشعبي

ابراهيم النخعي

(مات سنة ١٠٤)

(مات سنة ٩٥)

مات سنة ١٢٠

حماد بن ابي سليمان

مات سنة ١٥٠

ابو حنيفة

زفسر

محمد بن الحسن

ابو يوسف

واكثر رجال هذه المدرسة عرفوا بالحديث والفقہ فيه فبعد عصر الصحابة كان رأس المدرسة من التابعين سعيد بن المسيب، وقد كان يعد وارث عمر في علمه في المدينة، وتصدر سعيد بن المسيب، وقد كان يعد وارث عمر في علمه في المدينة، وتصدر سعيد للفتوي، وكان لا يهابها، فأثر عنه كثير من الفتاوي والآراء، وكان يقول "ما قضي رسول الله (ص) ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي قضاء الا وقد علمته". وجاء في الطبقة التي بعد، الزهري ونافع فكانا أعلم أهل المدينة حديثاً وفقهاً. كل هؤلاء كانوا يحفظون الحديث عن رسول الله، وطبيعي أن تكون المدينة أغني من أي عصر آخر في هذا، فالنبي كان فيها أكثر أيام التشريع، كما كان بها من الخلفاء الراشدين أبو بكر وعمر وعثمان، وكانت حاضرة الخلافة في أيامهم، ومنها تصدر الآراء في المسائل الدينية والسياسية، كما كان المدنيون أقدر علي مشاهدة التشريع العملي، فهم أعرف بما كان النبي يفعل في وضوئه وصلاته وزكاته، وما كان يفعله كبار الصحابة فكما كان كل جيل من العلماء يتلقي الأحاديث المروية عن قبله كذلك كان يتلقي الأعمال وهيئاتها من الجيل الذي قبله، فكان طبيعياً أن تكون المدينة مقر مدرسة الحديث ولكن الذي قد يلفت النظر أن يكون بين كبار رجال المدينة ربيعه الرأي، وهو كما يدل عليه اسمه من أهل الرأي، ومن شيوخ مالك، وقد روي عنه في الموطأ اثني عشر حديثاً وهو فارسي

الأصل، وقد روي عنه انه جادل سعيد بن المسيب في دية الأصابع، وسعيد يتمسك بالسنة، وربيعه يعترضه بالرأي، فقال له سعيد: أعراقي أنت؟ قال: لا بل عالم متثبت أو جاهل متعلم، قال سعيد: هي السنة، وقد روي في ترجمته أنه كان في العراق أيام السفاح وأنه قربه واستعمله، فهل أخذ الرأي عن العراقيين أيام كان بينهم؟ ظن بعضهم ذلك، ولكن يظهر أنه غير صحيح، فقد رأينا هذه النزعة عنده قبل أن يكون في العراق، لأنه بهذه النزعة جادل سعيد بن المسيب المتوفي سنة ٩٣ قبل ولاية السفاح بزمان طويل، ولأنه قد روي الرواه ان ربيعه كان يكره العراق وأهله، واستعفي ابا العباس من أجل ذلك وعاد الي المدينة، فقليل له كيف رأيت العراق وأهلها؟: "رأيت قوماً حاللت حرامهم، وحرامنا حلالهم، وتركت بها أكثر من أربعين الفا يكيدون هنا الدين" فالظاهر ان نزعة الرأي عنده وليدة المدينة نفسها، فالمحابة للدين كانوا بالمدينة منهم من كان يعمل العقل حيث لائن كما تقدم في سيره عمر بن الخطاب، ومنهم من لايميل الي ذلك كابنه عبد الله بن عمر، ولاشك ان النزعتين يقيتا، وتأثر بهذه ، قوم ، وهذه آخرون، ولكن كان لون الحديث ابيض واوضح، وكان وجود ربيعه الرأي بينهم علما علي اللون الآخر، وسنري اثر ذلك حتي في فقه مالك.

وكان طبيعياً كذلك ان تكون المسائل التي تعرض لفقهاء المدينة أقل عدداً لتحرج المدنيين من الفتوى اذا قيسوا بالعراقيين، ولأن المشاكل القانونية والمسائل الفقهية تدور مع المدينة، ولأن المدينة كانت أقرب الي بساطة العيش وأبعد عن تعقيدات الحضارة، وكان مآثر عندهم من حديث كثير كافياً في أغلب الاحيان كل مايعرض من اشكال.

منحي مالك في الاجتهاد - كان مالك لايشترط في الحديث ما اشترطه ابو حنيفة من الشهرة وغيرها، بل يعمل بخبر الواحد اذا صح أو حسن، وهذا المبدأ يجعل الاحاديث التي يتبني عليها مذهبه اكثر عدداً، فلا يتطلب في الحديث شهرة، وانما يتطلب صحة السند ونحوها، ولا يفهم من هذا تساهله في قبول الحديث من غير تحر أو تدقيق، بل هو شديد التحري ولكن لايشترط شهرة الحديث وعمومه، روي عنه أنه قال: "لقد أدركت سبعين ممن يقول قال رسول الله ﷺ عند هذه الأساطين، وأشار الي مسجد رسول الله ﷺ فما أخذت عنهم شيئاً، وان أحدهم لو أئتمن علي بيت مال لكان أميناً، الا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن" وكان يقول: لا يؤخذ العلم من أربعة، ويؤخذ ممن سواهم، لا يؤخذ من سفيه، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو الي بدعته، ولا من كذاب يكذب في

أحاديث الناس وان كان لايهتم علي حديث رسول الله «ص» ولأمن شيخ له فضل وملاح وعبادة اذا كان لايعرف مايحمل ومايحدث" .

وقد جمع الموطأ وظل سنين يحرره، ويحذف منه الحديث الذي يتبين له عدم صحته، ولكن مع هذا كله كانت دائرة الصحة عنده اوسع من دائره ابي حنيفة .

ومسألة أخرى هي عنده أساس للتشريع، وهي عمل أهل المدينة . كان مالك يدل بعمل أهل المدينة، ويرى أنهم أدري بالسنة وبالناسخ والمنسوخ ويقول في كتابه لليث بن سعد: " ان الناس تبع لأهل المدينة اذا اتفقوا علي عمل مسألة واتفق مع العمل علمائها فهذا العمل حجة يقدم علي القياس، بل ويقدم علي الحديث الصحيح، أما اذا لمي كن عملا اجماعياً، بل عمله أكثرهم، فهذا العمل ايضاً حجة يقدم علي خبر الواحد لأن العمل بمنزلة الراوية، فعمل الأكثر بمنزلة رواية الأكثر، فإذا جاء خبر واحد يخالفهم كان الراجح أنه منسوخ، علي أن ينبغي التفرقة بين اجماعهم علي العمل النقلي والاجتهادي فالنقلي كنقلهم تعيين محل منبر النبي «ص» وقبره ومحل وقوفه للصلاة، وكتعيينهم مقدار المد والصاع والأوقية في عهد رسول الله «ص»، ونقلهم كيفية الأذان

والاقامة هل كانت مثني أو فرادي، والاجتهادي كأجتهاد المدنيين
في بطلان خيار المجلس ونحوه، فالأول لأخلاف في حجته عند
مفسري مذهب مالك، والثاني مختلف فيه عندهم، وهذه التفرقة
معقولة، فالأعمال التي يجمع عليها أهل المدينة كتحديد المكاييل
والموازين، وأشكال الأعمال التي عملها الرسول [ص] الأرجح فيها
أن الجيل التالي من سكان المدينة نقلها عن الجيل الأول كما هي
فإن ضاقت دائرة الحديث واتسعت دائرة الرأي عند الأولين كان
الأمر علي العكس عند الآخرين، أما عدد الدوائر نفسها فتكاد تكون
واحدة .

أكبر آثار مالك التي نقلت إلينا "الموطأ" و"المدونة"

الموطأ - فأما الموطأ فكتاب الله مالك، فيه مظهر للحديث ومظهر
للفقه، فمظهر الحديث أن أغلب ما فيه حديث عن رسول الله [ص]
أو الصحابة أو التابعين، أخذ هذه الأحاديث عن رجال عديدين بلغوا
نحو خمسة وتسعين رجلاً، كلهم مدنيون إلا ستة: اثنان بصريان .
ومكي واحد، وخرساني وجزري وشامي . والأحاديث التي يرويها عن

هؤلاء الستة قليلة جداً، فمنهم من يروي له الحديث ومنهم من يروي له الحديثين، وقد لقيهم مالك أما في المدينة أو في مكة . أما من عدا هؤلاء الستة فمديون يروي عنهم مالك، بعضهم يروي له كثيراً كابن شهاب الزهري، ونافع، ويحيى بن سعيد، وبعضهم يروي له الحديث الواحد أو الاثنين أو الثلاثة، وحتى الصحابة التي يروي لهم أكثرهم ممن أقام بالمدينة طويلاً - حتي روي أن الرشيد قال لمالك لم نر في كتابك ذكراً لعلي وابن عباس، فقال: لم يكونا ببليدي، ولم ألق رجالهما وهما العبر مشكوك فيه، ولكن مما لا شك فيه أن روايته عنهما في الموطأ مسندة وبعضها مرسل، ومتصلة ومنقطعة، وبعضها مما يسمى بالافتات، وهو ما يقول فيها مالك بلغسي أو نحوه من غير أن يعين من روي عنه فيقول: بلغني عن سعيد بن يسار عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة أن رسول الله خصوصاً إذا قرب العهد كما رجحوا عند الخلاف أعمال المكيين في مناسك الحج لأنهم بها ادري، أما المسائل الاجتهادية فالأمر فيها سواء بين مجتهدي الصحابة والتابعين من المدنيين والكوفيين والشاميين والمصريين - وقد نقل مالك أجمع أهل المدينة في موطئه علي ذيف وأربعين مسألة، وقد خالف مالكا في حجته عمل أهل المدينة الليث بن سعد في رسالته الي مالك والشافعي في الأم وناقشاه مناقشة قيمة ممتعة .

ومن مسلك مالك في التشريع، العمل بقول الصحابي أن صح نسبته اليه وكان من اعلام الصحابة - كالخلفاء الراشدين، ومعاذ بن جبل، وابن عمر وكان لم يرد في المسألة عينها حديث عن النبي صحيح. وقد رد عليه في ذلك بأن الصحابة ليسوا محل العصمة، ويجوز عليهم الغلط، وبأن قول الصحابة لو كان حجة لزم التناقض، لأن كثيراً ماصح في المسألة الواحدة آراء مختلفة للصحابة وقد رأينا قبل مسلك أبي حنيفة في أقوال الصحابة الخ.

ومن هنا نرى أن هذين الاصلين، اعني عمل أهل المدينة وقول الصحابي قد غنيا فقه مالك بأثار كثيرة كان من شأنها تضيق دائرة الرأي، ومع هذا فلم ينكر مالك الرأي بتاتا، فمن أصول مذهبه القول بالمصالح المرسلة او الاستصلاح، وقد تقدم الكلام فيه، ومن هذا القبيل ماقاله من الضرب عند التهمة للاعتراف بالسرقه، ورويت عنه اقوال دليلها الاستحسان، كتضمنين الصناع وثبوت الشفعة في بيع الثمار فمن هذا نرى ان مسالك الائمة من أصحاب الرأي وأصحاب الحديث تكاد تكون واحدة في العدد، ولكن الاختلاف انها هو سعة الدوائر وضيقتها صلي الله عليه وسلم قال: الخ.

أو يقول عن الله. عندي عن عمر بن شعيب الخ. وقد جمع مالك احاديث كثيرة، ثم كان يختار منها عليهما السنين، فقد روى ان مالكا "جمع في الموطأ اربعة آلاف حديث أو اكثر، ومات وهي ألف ونيف يخلصها عاما عاما بقدر مايري انه أصح للمسلمين وأمثل في الدين". وقد روى أنه شغل به نحو أربعين عاماً وأما ناحية الفقه فيه فإنه رتبته ترتيب الفقه، فكتاب الطهارة، ثم كتاب الصلاة ثم كتاب الزكاة، ثم الصيام وهكذا، وفي كل كتاب من هذه فصول، كل فصل يجمع المسائل المتشابهة كمصلاة الجماعة، وصلاة المسافرين الخ.

وأيضاً يزيد علي الحديث أحياناً استنتاجه الفقهي منه. وطريقته في التأليف أن يذكر الأحاديث المتعلقة بالموضوع الواحد، وقد يعقب الحديث بتفسير كلمة لغوية فيه، وأحياناً يعقبه بأنه سئل في كذا فاجاب بكذا استناداً الي آية أو حديث أو قياس، سئل مالك عن الحائض تطهر فلا تجد ماء هل تتييم؟ قال: نعم، لتتييم فإن مثلها الجنب اذا لم يجد ماء تيمم". وأحياناً يعقبه بتفريع مسائل وذكر حكمها، كأن يقول بعد أحاديث السرقة " وليس علي الاجير ولا علي الرجل يكونان مع القوم [السارقين] قطع. لان حالهما ليست بحال السارق، وانما حالهما حال الغائب، وليس علي

العائن قطع "والامر عندنا في السارق يوجد في البيت قد جمع المتاع ولم يخرج به انه ليس عليه قطع وانما مثل ذلك كمثل رجل وضع بين يديه خمرأ ليشربها فلم يفعل فليس عليه حد" . الخ واحيانا لا يبدأ بالحديث، بل يذكر المسألة ويذكر حكمها ودليله علي هذا الحكم، واحياناً يذكر في المسألة حكم علماء المدينة، فيقول "الامر الذي لاختلاف فيه عندنا كلها"، الخ، الخ.

فهو لهذا كله كتاب حديث وفقه معاً . وقد روي الموطأ روايات مختلفة تختلف في ترتيب الأبواب، وتختلف في عدد الأحاديث حتي عدها بعضهم عشرين نسخة وبعضهم ثلاثين، واختلافها رواياتها عن مالك، وسبب الاختلاف علي ما يظهر - ان مالكا لم ينته من نسخة يؤلفها ويقف عندها، بل قد كان دائم التغيير فيها لما رويها قبل من أنه كان دائم المراجعة للأحاديث وحذف ما لم تثبت صحته، منها، فالذين سمعوا الموطأ سمعوه من مالك في أزمان مختلفة فكان من ذلك الاختلاف في النسخ . وقد بقي من هذه النسخ بين أيدينا رواية يحيى بن يحيى الليثي، وهي التي شرحها الزرقاني، ورواية محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة، وفيها أشياء كثيرة ليست في رواية يحيى، وهو يمزج ما روي عن مالك بأرائه، فكثيراً ما يقول: "قال محمد" .

وقد روي أن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون سبق مالكا فعمل كتابا ذكر فيه ما اجتمع عليه أهل المدينة، [ويعني آراءهم وفقههم] عمل ذلك من غير حديث، وراه مالكا فقال: "ما أحسن ما عمل، ولو كنت أنا الذي عملت ابتدأت بالأثر، ثم سددت ذلك بالكلام". ويظهر أنه أنقذ فكرته بعد فالف الموطأ علي هذا المنهج رسمه: بدء بالحديث غالبا، ثم تثنيه بعمل أهل المدينة أو تفريع الفروع واستنتاج حكمها.

وعلي كل حال فكتاب الموطأ يعد من أوائل الكتب التي ألفت في الحديث والفقه وقد نشره الأخذون عن مالك في الأمصار، فمحمد بن الحسن في العراق ويحيى بن يحيى الليثي في الأندلس، وعبد الله بن وهب وعبد الرحمن بن القاسم وعبد الله بن عبد الحكم وأشهب في مصر، وأسد بن الفرات في القيروان. الخ وكان له أثر كبير في الحركة العلمية الدينية علي اختلاف العصور.

المدونة - أما المدونة فهي مجموعة رسائل تبلغ نحو ستة وثلاثين ألف مسألة، جمعها أسد بن الفرات النيسابوري الأصل التونسي الدار، وكان تلميذا لمالك سمع منه الموطأ ثم رحل الي

العراق، وفعل في العراق كما فعل محمد بن الحسن في المدينة
كلاهما مزج الفقهين، وكتب بين المدرستين، فقد لقي أسد بن
الفرات صاحب أبي حنيفة أبا يوسف ومحمدا، وسمع منهما الفروع
علي الطريقة العراقية، ثم ذهب الي مصر ولقي أصحاب مالك بها،
ولاسيما ابن القاسم، وعرض عليهم هذه الفروع ونحوها، وسمع منهم
حكمها علي مذهب مالك، اما حسب ما سمعوا من مالك، وأما اجتهاد
علي أصوله ومنحاه، وجمع أسد بن الفران ذلك كله في كتاب سمي
المدونة، ثم رحل بها أسد الي القيروان فأخذها عنه سحنون الفقيه
المغربي، وعاد بها الي مصر سنة ١٨٨ فعرضها علي ابن القاسم
واملح فيها مسائل، وكانت لما جمعها أسد بن الفران غير مرتبة
ولا مبوبة فرتبها سحنون وبوبها، واحتج لبعض مسائلها بالآثار،
وعاد بها القيروان وانتشرت منها الي الأندلس، وكان لها الفضل في
نشر مذهب مالك في قطري المغرب والأندلس.

فالمدونة كما تري متأثرة بالعراقيين في تفريغ المسائل
وتوليدها، وبالحجازيين في تطبيق مذهب مالك عليها، ومن هذا تري
كيف كان الزمن والرجال والرحلات تعمل علي استفادة كل مذهب بما
للآخر، فالمدونة ليست اذن من تأليف مالك، وانما هي جمع لفتاوي
مالك في مسائل، واجتهاد من تلاميذه وتلاميذ تلاميذه في وضع

احكام لمسائل علي قواعد ومبادئه.

وقد كان لمالك اصحاب اكثر عظمائهم مصريون كعبد الله بن وهب وابن القاسم واشهب وعبد الله بن عبد الحكم، ومن عظمائهم اندلسي كبير، وهو يحيى بن يحيى الليثي.

فالأربعة الأولون كانوا عماد المدرسة الدينية في مصر لعهدهم، وكانوا مع أخذهم عن مالك يجتهدون ويخالفون أحياناً، كما خالف أبو يوسف ومحمد أبا حنيفة، وكما خالف المزني والبطي الشافعي. وأما يحيى بن يحيى الليثي فأصله من قبيلة بريرة يقال لها مصمودة، ونسب إلى بني ليث بالولاء، رحل إلى المدينة وسمع من مالك، ورحل إلى مكة وسمع بمصر من الليث بن سعد وابن القاسم، ورجع إلى الأندلس بعد ماكمل علمه، فكان عالم الأندلس وعظيمها ووجيهها، وإلى الفضل في نشر مذهب مالك في الأندلس، فقد كان - كما قال ابن حزم - : "مكيناً عند السلطان مقبول القول في القضاء، فكان لايلي قاض في أقطار بلاد الأندلس إلا بمشورته واختياره". ولايشير إلا بأصحابه ومن كان علي مذهبه، والناس سراع إلى الدنيا، فأقبلوا علي مايرجون بلوغ أغراضهم به، علي ان يحيى ابن يحيى لم يل قضاء قط ولا أجاب إليه، وكان ذلك

زائدا في جلالتة عندهم، وداعيا الي قبول رأيه لديهم"، وهو صاحب الفتوي المشهورة لأمير الأندلس عبد الرحمن بن الحكم، فقد وقع علي جارية له في رمضان، فأفتي ان يكفر بصوم شهرين متتابعين. وسئل لم لم تفتة بمذهب مالك، فعنده أنه مخير بين عتق رقبة وأطعام ستين مسكينا وصوم شهرين؟ فقال: لوفتحنا له هذا الباب لسهل عليه هذا العمل، ويعتق فيه رقبة، ولكن حملته علي اصعب الأمور لئلا يعود - وتعد روايته للموطأ أصح رواية، وهي التي بين أيدينا وقد خالف مالك في مسائل ذهب فيها الي مذهب الليث بن سعد، فلم ير القضاء بالشاهد مع اليمين كما رأي مالك، وقال لابد من شاهدين رجلين أو رجل وأمرأتين أتباعا لليث، وكان يري جواز كراء الأرض بجزء مما يخرج منها كما يري الليث".

وعلي الجملة فان كانت مدرسة ابي حنيفة قد وسعت الفقه بكثرة الفروع، وبما يستلزمه ذلك من رأي وقياس واستحسان، ومواجهة المشاكل المعقدة التي قدمتها لها المدينة الضخمة، والتي قدمت لها بقايا الأمم الممدة في العراق من آشوريين وكلدانيين

وفرس وغيرهم، فان مدرسة مالك قد اثرت في الفقه بما نقلت من
أحاديث كانت وافرة فيها بحكم قيام الرسالة فيها . وكثرة الصحابة
بها . وبما قدمت من أشكال وأوضاع تناولها سكان المدينة جيلاً عن
جيل، وأهل المدينة في ذلك أوثق، فقد شهد الاولون منهم النبي
يتوضأ علي نحو خاص ويصلي علي نحو خاص، وعرفوا مقدار
المكاييل والموازين التي كانت تستعمل لعهد . فنقلوا ذلك كله الي
من بعدهم من طريق الأخبار أحياناً، ومن طريق التورث أحياناً
أخري، وتسلسل ذلك الي مالك ومدرسته، ثم كان من أصحاب
المذهبيين من ينتفع بهزاي كل، فيرحل محمد بن الحسن الحنفي الي
المدينة يمكث فيها ثلاث سنين ويروي الموطأ، ويعود الي العراق
مزوداً بالأثار، ويذهب اسد بن الفرات ويمكث في العراق طويلاً،
ويعود الي مصر والقيروان مزوداً بكثرة الفروع، وبذلك وأمثاله
تأثرت المدرستان، وتقارب المذهبان .

ج - الشافعي ومدرسته

الشافعي هو محمد بن ادريس، قرشي من جهة الأب، يلتقي مع النبي «ص» في عبد مناف، وقد روي الجرجاني «وهو من الحنفية» عن أصحاب مالك أن شافعاً جد الشافعي والذي ينسب إليه لم يكن قرشي الأصل، وإنما كان مولي لأبي لهب وعلي ذلك يكون الشافعي مولي، ولكن قوله هذا لم يقره عليه علماء الأنساب، والظاهر أنه حملة علي ذلك العصبية المذهبية فالصحيح أنه قرشي، والراجح أن أمه ازدية، والأزد من اليمن، وكان أبوه خرج في حاجة إلي الشام فولدت له الشافعي بغزة أو عسقلان سنة ١٥٠ ، ثم مات أبوه فحملته أمه إلي مكة وهو ابن لسنتين، وقد نشأ فقيراً كما حدث هو عن نفسه. وروي عنه أنه قال كنت يتيماً في حجر أمي ولم يكن لها مال، وكان المعلم يرضي من أمي أن أخذه إذا أم، فلما جمعت القرآن دخلت المسجد، فكنت أجالس العلماء فأحفظ الحديث أو المسألة، وكانت دارنا في شعب الخيف، فكنت أكتب في العظم فإذا كثر طرحته في جرة عظيمة "وفي رواية" لم يكن لي مال فكنت أطلب العلم في الحدائق، فأذهب إلي الديوان فاستوهب منهم الظهور فأكتب فيها".

قال " وخرجت من مكة فلزمت هذيلًا بالبادية اتعلم كلامها
واخذ اللغة وكانت الصبح العرب " وقد افادته الإقامة في البادية
مع قرشيته معرفة واسعة باللغة والشعر، واعانته علي تفهم معاني
القرآن والسنة، فراه يستشهد علي أن السعي معناه العمل في قوله
تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾
بقول زهير: سعي بعدهم قوم- لكي يدركوهم- فلم يفعلوا ولم
يلعبوا ولم يألوا وبأن السر معناه الجماع في قوله: " ولكن لاتواعد
هوهم سرا " بآيات لامرئ القيس وجريز الخ. كما افادته قوة
التعبير وعربية رصينة في الاسلوب وذوقا دقيقا، حتي لقد قرأ
عليه رجل فالحن، فقال له الشافعي : " اضرستني " وقد روي ان
الاصمعي اخذ عنه شعر الهذليين وشعر الشنقريين- ثم اتجه الي
الحديث والفتنة، فأخذ في مكة عن سفيان بن عيينة ومسلم بن خالد
الزنجي، وحفظ الموطأ ثم رحل الي مالك في المدينة وسمع منه
الموطأ، وأخذ عنه فقه، ولأزمه الي ان مات مالك سنة ١٧٩ ثم
وخرج الي اليمن، وقد كر في رحلته اليها اسباب كثيرة أقر بها
أن والي اليمن جاء مكة فكلمه بعض القرشيين أن يأخذ الشافعي
ويولية بعض الأعمال، ففعل وولاه بعض الأعمال، ثم اتهم بالتشيع
وامتحن، والروايات كذلك مختلفة: هل اتهم هذه التهمة وهو
باليمن أو بعد أن عاد الي الحجاز فان ابن عبد البر يروي انه اتهم

بالتشيع والميل الي مبايعة علوي وهو بالحجاز وابن حجر يروي روايات مختلفة كلها متفقة علي أنه اتهم بذلك وهو في اليمن، والكل متفقون علي النتيجة وهي انه حمل في هذه التهمة الي هارون الرشيد، فنفي الشافعي التهمة وعفا عنه الرشيد وكان ذلك نحو سنة ١٨٤، وسن الشافعي نحو اربع وثلاثين سنة ثم قدم بغداد سنة ١٩٥ واقام بها سنتين ثم رجع الي مكة ثم قدم بغداد سنة ١٩٨ فأقام فيها اشهرًا، ثم خرج منها الي مصر سنة ١٩٩ وظل بها الي أن مات سنة ٢٠٤ وفي اثناء اقامته بالعراق اتصل بمحمد بن الحسن صاحب ابي حنيفة وأخذ عنه فقه العراقيين، وقال ابن حجر: "انتهت رئاسة الفقه بالمدينة الي مالك بن انس حل اليه «الشافعي» ولأزمه وأخذ عنه، وانتهت رئاسة الفقه بالعراق الي ابي حنيفة فأخذ «الشافعي» عن صاحبه محمد بن الحسن جملا ليس فيها شيء الا وقد سمعه عليه فاجتمع له علم اهل الرأي وعلم اهل الحديث فتصرف في ذلك حتي اصل الأصول، وقعد القواعد وأذعن له الموافق والمخالف واشتهر امره وعلا ذكره وارتفع قدره حتي صار منه ما صار".

وقد خلف لنا الشافعي في كتاب الام وصيته التي أوصي بها قبل ان يموت فتاريخها صفر سنة ٢٠٣ يقول فيها: "هنا كتاب

كتبه محمد بن ادريس ابن العباسي الشافعي في محبة منه وجواز من أمره، ان الله رزق ابا الحسن [ابن الشافعي] مالا فلخذ منه بن ادريس من مال ابنه أربعمئة دينار جيادا محاحا مثاقيل وضمناها. محمد بن ادريس لابنه " وفي هذه الوصية تصدق علي ابنه بثلاثة أعبد كان يملكها الشافعي وصيف اشقر خصي يقال له صالح ، ووصيف نوبي خباز يقال له بلال وعبد فراني، وتصدق عليه بأمه شقراء كانت له - وفي هذه الوصية ايضا تصدق بحلية وقد عددها في الوصية - وتصدق بمنزلين له في مكة وقفهما علي ابنه، ثم من بعده لأولاد ابنه الذكور والاناث الخ.

وله وصية أخرى في شعبان من هذه السنة، أوصي فيها بماله وقسمه أسهما وبين مايفعل بعبيده وجواريه، ومايعطون من ماله، ومايعطي لفقراء آل شافع.

وهذه الوصايا تدل عل ان حالته المالية في مصر كانت لا بأس بهاوان لم تبلغ درجة الغنى.

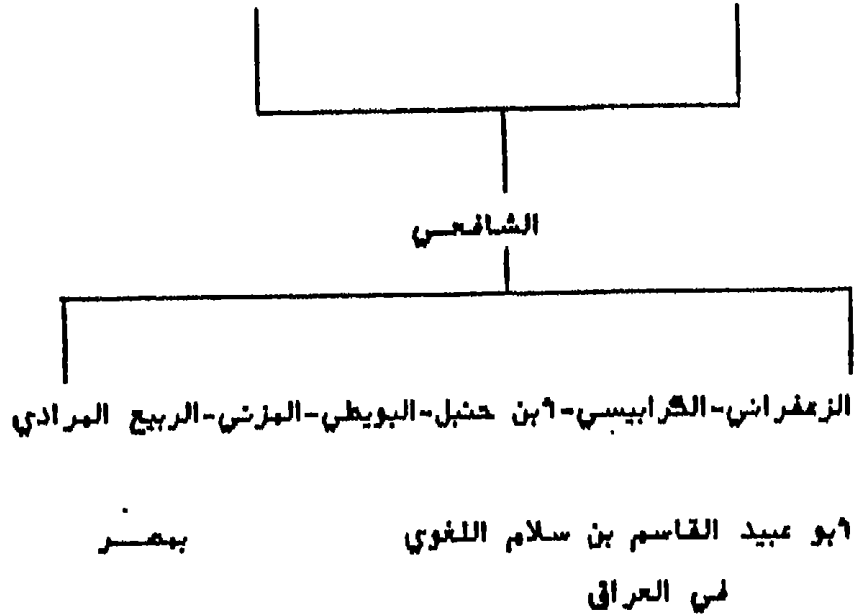
واما صفاته العقلية واللسانية فيكاد المؤرخون يجمعون علي علوبة منطقته وحسن بيانه وذكائه وقدرته الفائقة علي الجدل وقوته

في التفكير ومهارته في الاستنباط.

اذن ثقافته ثقافة في اللغة والأدب واسعة، وثقافة في الحديث وحل في طلبه الي بلاد كثيرة، وثقافة في الفقه علي نمط مدرسة الحجاز وثقافة في الرأي علي نمط مدرسة العراق، وثقافة اجتماعية في مشاهدته لحياة البدو في البادية والحضارة الاولى في الحجاز واليمن، والحضارة المعقدة المركبة في العراق ومصر وحياة الفقراء من البدو والزهاد من المحدثين، ومن أخذوا بحظهم من الدنيا كمحمد بن الحسن الشيباني في العراق، وابن عبد الحكم في مصر، ورؤية لأنماط من الحياة الاجتماعية والاقتصادية مختلفة، تتطلب أنواعاً من التشريع مختلفة فالمصريون يتعاملون أنواعاً من المعاملات لايتعاملها اهل العراق والمصريون والعراقيون يشتركون احيانا فيما لايشترك معهم فيه الحجازيون ونظام الري لليل في مصر غير نظام دجلة والفرات في العراق، وذلك سيتتبع اختلافنا في العراق وما اليه كلاهما يختلف في ذلك عن بلاد لاتعرف أنهارا كالحجاز، كل هذا وأمثاله كان له اثر كبير في تكوين المذهب الشافعي، فان نحن أردنا ان نخطط رسماً بيانياً لمدرسته كما فعلنا من قبل كان هذا يسيراً سهلاً.

مدرسة مالك (السابقة) مدرسة أبي حنيفة (السابقة)

مدرسة مالك (السابقة) مدرسة أبي حنيفة (السابقة)



وكان الشافعي في أول أمره يعد تلميذا لمالك، ومتبعاً لمذهبه
وتعاليمه وأحد رجال مدرسته، وما زال كذلك إلى سنة ١٩٥ حيث
قدم بغداد قدمته الثانية فهناك بلغ مبلغ مؤسس مذهب يدعو إليه
والظاهر أن أقوى ما أثر فيه اتصاله في قدمته الأولى بأصحاب أبي
حنيفة واستفادته من كتب محمد وعلمه بطريقة أهل العراق فقد

رأي من غير شك ان طريقتهم لا يحسن اخذها كلها، ولا تركها كلها فعندهم القياس وهو منهج صحيح، لكنه في نظره ليس علي اطلاقه بل لابد أن يتأخر عن الأحاديث الصحيحة، حتي ماكان منها غير آحاد، وعندهم طريقة التفريع وتوليد المسائل الكثيرة من أصولها وهي طريقة جيدة وعندهم الجدل والاستدلال بالعدالة والمصلحة، والحاق الشبيه بالشبيه وما بين الأشياء من فروق وموافقات والمناظرة في ذلك وتأليف الحجج وقد رأي ذلك حسنا، ورأي نفسه في استعداد جيد للدخول في هذا الباب والتفوق فيه، فاقتبس من ذلك أحسنه، واطافه الي ثروته الحجازية من اللغة والأدب أولا، والحديث واجماع اهل المدينة وطريقة الحجازيين في الاستنباط ثانيا.

هاتان الناحيتان قد استفاد منهما الشافعي، والى بينهما بشخصيته فاخرج مذهباً جيداً دعا اليه في العراق سنة ١٩٥ وتبعه عليه بعض اصحابه البغداديين مثل ابي علي الحسين بن علي الكرابيسي. وكان من مشاهير علماء العراق وله مصنفات كثيرة مات سنة ٢٥٦ ومثل ابي ثور الكلبي وقد صحب الشافعي في بغداد وأخذ عنه، والى في مسائل الاختلاف بين مالك والشافعي، وكان أميل الي الشافعي في كتبه، وكأني علي الزعفراني كان يقرأ كتب

الشافعي التي ألفها قبل قدومه مصر- ولكن يظهر ان الشافعي لم يجد لمذهبه في العراق نجاحاً كبيراً لمزاحمة الحنفية له ولما له من جاه وسلطان وقوة، فتحول الي مصر، قال الزعفراني: لما أراد الشافعي الخروج الي مصر أنشد لنفسه:

أخي أري نفسي تتوق إلي مصر ومن دونها أرض المهامة والقفر
فو الله ما أري اللغوز والغني أساق اليها أم أساق إلي قبري

قال الزعفراني: فو الله لقد سبق اليهما جميعا وسأل الشافعي الربيع عن اهل مصر قبل ان يرحل اليهم فقال له الربيع: هم فرقتان: فرقة مالت الي قول مالك وناضلت عنه وفرقة مالت الي قول ابي حنيفة وناضلت عنه، فقال الشافعي ارجو أن أقدم مصر ان شاء الله فاتيهم بشئ اشغلهم به عن القولين جميعاً فقال الربيع: نفعل ذلك والله حين دخل مصر وقد اقام بمصر نحو أربع سنوات أملي فيها كثيراً من كتبه.

منحاه في الاجتهاد - لعل خيراً ما يلخص مسلكه ما ذكره هو
اد قال: "الأصل قرآن وسنة فان لم يكن فقياس عليهما، وإذا
اتصل الحديث عن رسول الله «ص» وصح الاسناد منه فهو سنة،

والاجماع اكبر من الخبر المفرد والحديث علي ظاهرة، واذا احتمل معاني فما أشبه منهما ظاهرة اولها به واذا تكالفت الاحاديث فاصحها اسنادا اولها وليس المنتطح بشئ ماعدا منقطع ابن المسيب ولا يقاس اصل علي اصل ولا يقال للأصل لم وكيف وانما يقال للفرع لم فاذا صح قياسه علي الأصل وقامت به الحجة .

أظهر مزايا الشافعي انه علي اثر مارأي من صور مختلفة للتشريع، وتباين بين نمط الحجازيين والعراقيين، وماكان له من جدل ومناظرات بين هؤلاء وهؤلاء، عمد الي ان يحدد موقفه تحديدا دقيقا امام هؤلاء وهؤلاء، رأي موقف الحجازيين ازاء الحديث غير موقف العراقيين، فسأل نفسه، وماموقفه؟ ورأي موقف الحجازيين ازاء القياس والاستحسان غير موقف العراقيين، فاراد ان يتعرف موقفه من ذلك، ورأي مثل هذا في اجماع اهل المدينة واجماع العلماء عامة فحاول ان يضبط ذلك كل هذا نقله من الفروع الي الأصول، وهذه من غير شك خطوة جديدة في التفكير فاذا فرغ من وضع خطة في اصل هاجم مخالفيها ولافرق عنده بين ان يكون مخالفه حجازياً أو عراقياً . ولافرق بين ان يكون استاذة الذي أخذ عنه العلم، أو انساناً لايعرفه .

ولنسق لذلك بعض الأمثلة، فقد فكر في الحديث وراي نفسه امام جماعة ينكرون الأخذ بالحديث بتاتا وجماعة يميلون به بشروط طويلة وجماعة يعملون به في سهوله فوضع لهم خطة خلاصتها: انه اذا حدث ثقة عن ثقة عن رسول الله ولم يكن هناك حديث يخالفه عمل به فاذا كانت هناك احاديث مختلفة نظرا: هل فيها ناسخ ومنسوخ كان يتأخر احدها في الزمن، ويثبت بدليل ان الحديث الاخير نسخ ما قبله فيعمل بالناسخ، فان لم يكن ناسخ ولا منسوخ نظر في اوثق الروايات وامعنها في الصحة فعمل بها فان تكافأت عرضها علي أصول القرآن والسنة الثابتة وعمل بما كان من الحديث اقرب الي ذلك، واذا ثبت الحديث عن رسول الله لا يترك هذا الحديث لاي قياس ولا لاي اي ولا لاي اثر يروي عن صحابي كانا من كان وتابعي كانا من كان.

فلما وصل الي هذا الاصل استعرض موقف الحجازيين والعراقيين لرأي في كليهما مخالفة له فهاجمها . هاجم مالكا وانتقده لانه ترك احيانا حديثاً صحيحاً لقول واحد من الصحابة او التابعين او لرأي نفسه . وكان اشد نقد موجه له لمالك انه ترك قول ابن العباس في مسألة الي قول عكرمة مع ان مالكا يسنّ القول في عكرمة ولايري لاحد ان يقبل حديثه . قال الشافعي: "والعجب ان يقول في عكرمة

مايقول ثم يحتاج الي شئ من علمه يوافق قوله فيسميه مرة ويسكت عنه أخرى.

وهاجم بهذا المبدأ ايضا العراقيين، لانهم يشترطون في الحديث أن يكون مشهوراً، ويقدمون القياس علي خبر الآحاد وان صح سنده، وأنكر عليهم تركهم لبعض السنن لأنها غير مشهورة، وعملهم بأحاديث لم تصح عند علماء الحديث بدعوي أنها مشهورة، ومن أمثلة ذلك ايضا انه وقف في القياس موقفاً وسيطاً لم يتشدد فيه تشدد مالك ولم يتوسع فيه توسع أبي حنيفة فهو يقول: "ان جهة العلم الكتاب والسنة والاجماع والآثار، ثم القياس عليها... ولا يقيس الا من جمع الآلة التي له القياس بها- وهي العلم بأحكام كتاب الله عز وجل فرضه وأديه وناسخه ومنسوخه وعامة وخاصة... ولا يجوز لأحد أن يقيس حتي يكون عالماً بما مضى قبله من السنن وأقاويل السلف واجماع الناس واختلافهم، ولسان العرب، ولا يكون له ان يقيس حتي يكون صحيح العقل، وحتى يفرق بين المشتبه ولا يعجل بالقول به دون التثبت ولا يمتنع من الاستماع ممن خالفه، لأنه قد ينتبه بالاستماع بترك الغفلة، ويزداد به تثبتاً فيما اعتقد من الصواب، وعليه في ذلك بلوغ غاية جهده والانصاف من نفسه حتي يعرف من أين قال مايقول وترك مايترك".

وهو علي هذا الاساس قد أنكر الاستحسان وهاجم القائلين به ويظهر من مجموع قوله انه يعني بالاستحسان مجرد الرأي من غير أن يكون مستنداً الي أصل شرعي، وشبه المستحسن في اثناء كلامه بالتاجر يقدر للشيء ثمناً من غير ان يدخل السوق ويعرف أسعار اليوم. فتقديره لا يبيّن علي اساس كذلك الفقيه يستحسن من غير أن يرجع في استحسانه الي اصول الشريعة ولذلك هاجم مالكا في قوله بالمصالح المرسلة، وهاجم الحنفية في قولهم بالاستحسان.

وهكذا سار الشافعي علي هذا المنوال، حدد موقفه بقواعد، وهو عمل فيما نعلم لم يسبق اليه، وقد كان لرحلته الي المدينة ومكة واليمن والعراق مرارا ومصر أثر في ثروته اتساع ثروته في الحديث، فلم يقتصر علي الحديث الشائع في الحجاز كما فعل مالك، بل ضم اليه كثيرا من الحديث الشائع في هذه البلدان الأخرى، وهذه الرحلات كذلك جعلته لا يتعصب لأهل المدينة، ولا يعترف بالحجة التي جعلها مالك أصلا من اصول مذهبه، وهي اجماع أهل المدينة علي حين انه نفسه يروي أحاديث ضد الاجماع، فيقول مالك: "ان الناس أجمعوا علي أن لا سجده في سورة الحج الا مرة واحدة، مع انه يروي عن عمر وأبن عمر انهما سجدا في سورة الحج مرتين

الخ.

ولم يسلم الشافعي من تهجم بعض العلماء عليه في حديثه كابن معين فقد أكثر فيه القول وقال فيه ابن عبد الحكم: انه كان يروي عن الكنايين والبدعيين فروي عن ابراهيم بن يحيى مع انه كان قصرياً، وروي عن اسماعيل بن عليه مع انه طعن فيه، وقالوا: ان البخاري ومسلما لم يرويا عنه شيئاً في صحيحهما، ولولا انه كان ضعيفاً في الرواية لرويا عنه، وان مذهبه ان المراسيل ليست بحجة وقد ملا كتبه من قوله اخبرنا الثقة، أخبرني من لا اتهمه الخ. وقد دافع أصحاب الشافعي عن هذه الأقوال دفاعاً شديداً، ومع هذا كله فقد كان الشافعي اقرب الي المحدثين وهم اليه اميل. ولئن فاقه بعضهم في معرفة الحديث وأسانيده ورجاله فقد فاقهم بفقته في الحديث حتي روي عنه انه قال لأحمد بن حنبل: انتم أعلم بالاخبار الصحاح منها، فاذا كان غير صحيح فأعلمني حتي أذهب اليه. كان المحدثون أميل الي الشافعي لانه توسع في استعمال الحديث والاستدلال به أكثر مما فعل مالك وأبو حنيفة وحد من الرأي والقياس وضيق سلطتها ولذلك كان من أنصاره أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهوية وغيرهما من كبار المحدثين، كما انه كان اقرب الي نفوس الحنفية من المحدثين وفقهائهم، لانه لم ينكر القياس

جملة بل قال به وقعد القواعد حتي لقد عدل بعض فقهاء العراق عن مذهب ابي حنيفة الي مذهبه، ولعل هذا الموقف - وهو تقريبه وجه النظر بين المدرستين: مدرسة الحجاز ومدرسة العراق، وانتخابه مارأي الحق في كليتهما هو اوضح ظاهرة في مدرسة الشافعي:

قال الرازي: ^{١٧} ان الناس قبل الشافعي كانوا فريقين: أصحاب الحديث وأصحاب الرأي، اما أصحاب الحديث فكانوا عاجزين عن المناظرة والمجادلة، عاجزين عن تزيف طريق أصحاب الرأي، فما كان يحصل بسببهم قوة في الدين ونصرة في الكتاب والسنة، واما أصحاب الرأي فكان سعيهم وجهدهم مصروفين الي تقرير ما استنبطوه برأيهم ورتبوه بفكرهم... [فجاء الشافعي] وكان عارفا بالنصوص من القرآن والاحبار، وكان عارفا بأصول الفقه وشروط الاستدلال... وكان قويا في المناظرة والجدل... فرجع عن قول أصحاب الرأي اكثر انصارهم واتباعهم.

اشار الشافعي - من أهم ماوصل اليه من عمل الشافعي رسالته في اصول الفقه، رواها عنه تلميذه المصري الربيع بن سليمان المرادي، وقد تكلم فيها فيما يحتاج اليه المجتهد وازاء القرآن من

العام والخاص، والناسخ والمنسوخ وتكلم في موقف المجتهد، وناسخه ومنسوخه، وما كان فيه من اختلاف وما يقبل منه ولا يقبل، ثم تكلم في الاجماع. وان "من قائل بما تقول به جماعة المسلمين فقد لزم جماعتهم، ومن خالف ما تقول به جماعة المسلمين فقد خالف جماعتهم" ثم تكلم في اثبات القياس والاجتهاد، وحيث يجب القياس وحيث لا يجب، ومن له أن يقيس، ومن ليس له ونقد الاستحسان ورد علي القائلين به، وهو بهذا اول من وضع خطة في البحث في اصول الفقه جري عليه كل من اتى بعده من علماء المذاهب الاخرى، قال الرازي "واعلم ان نسبة الشافعي الي علم الاصول كنسبة ارسططاليس الي علم المنطق وكنسبة الخليل بن أحمد الي علم العروض

وذلك لان الناس كانوا قبل ارسططاليس يستدلون ويعترضون بمجرد طباعهم السليمة لكن [ما] كان عندهم قانون مخلص في كيفية ترتيب الحدود والبراهين، فلما جرم كانت كلياتهم مشوشة ومضطربة فان مجرد الطبع اذا لم يستعن بالقانون الكلي قلما الفح، فلما رأي ارسططاليس ذلك اعتزل عن الناس مدة مديدة واستخرج -علم المنطق، وضع للخلق بسببه قانونا كلياً يرجع اليه في معرفة ترتيب الحدود والبراهين، وكذلك الشعراء كانوا قبل الخليل بن أحمد ينظمون اشعاراً، وكان اعتمادهم علي مجرد الطبع لاستخرج الخليل علم العروض فكان ذلك قانوناً كلياً في معرفة مصالح الشعر ومفاسده

وكذلك هاهنا - الناس كانوا قبل الامام الشافعي يتكلمون في مسائل اصول الفقه ويستدلون ويعترضون ولكن ماكان لهم قانون كلي مرجوع اليه في معرفة دلائل الشريعة ووضع للعلق قانونا كليا يرجع اليه في معرفة مراتب أدلة الشرع، فثبت ان نسبة الشافعي الي علم الشرع كنسبة ارسططاليس الي علم العقل... واعلم ان الشافعي صنف كتاب الرسالة ببغداد، ولما رجع الي مصر اعاد تصنيف كتاب الرسالة وفي كل واحد منهما علم الكثير، والناس وان اطنبوا ذلك في علم اصول الفقه الا ان كلهم عيال الشافعي فيه، لانه هو الذي فتح هذا الباب، والسبق لمن سبق-

نعم دوي ابن النديم ان محمد بن الحسن الف كتابا في اصول الفقه ولكن لم يصل الينا هذا الكتاب حتي نستطيع ان نقارن بينه وبين رسالة الشافعي ونعلم ماذا استفاد الشافعي من اصول محمد وماذا اخترع من نفسه، وقد كان هناك طريقتان امام مخترع اصول الفقه: الاول ان يضع القواعد التي تعين المجتهد علي استنباط الأحكام من مصادر التريع، وهي الكتاب والسنة والاجماع والقياس والثاني استخراج القواعد العامة الفقيه لكل باب من أبواب الفقه ومناقشتها وتطبيق الفروع عليها، فيستنتج - مثلا - قواعد البيع العامة او قواعد الأيجار ويحددها ويبين مسلك التطبيق عليها،

وكلا الطريقتين يصح ان يسمى أصول الفقه، وقد سلك الثاني الفرنج علي النحو الذي تراه في اصول الشرائع لبيتام ومن حدا حدوه، وقد اختار الشافعي الطريق الأول، وألهمه ذلك ماكان من الجدل القوي بين المحدثين والفقهاء من جانب، وفقهاء العراق وفقهاء الحجاز من جانب آخر. فاضطره هذا الخلاف ان يضع القواعد التي رأي انها تحسمه، اصف الي ذلك ان الطريق الثاني اكثر مايدمو في التشريع الوضعي الذي يعتمد علي النظريات العقلية الطليقة وتعديلها وفق مايجد من نظريات فلسفية وارااء مدنية. علي ان هذا الضرب قد اتجه الي بعض المسلمين. بعد كما تري في الاستباه والنظائر لابن نجيم وان لم يسر طويلا.

وليس تعرضه لاصول الفقه ملتصرا علي رسالته في الامول، بل تعرض له ايضا في مواقع كثيرة من كتاب الام، فتعرض - مثالا - لمناقشة الفرقة التي تنكر العمل بالاحاديث بتاتا، وكتب فصلا في ابطال الاستحسان فيظهر ان كثيرا من المسائل الفرعية كانت تعرض له فتثير في ذهنه اصولا متفرقة يفكر فيها ويطيل التفكير، ثم يضع لها القواعد، ثم جرد هذه القواعد واكملها ورتبها واخرجها في كتابه الرسائل وله الفضل خاصة في تنظيم الاجماع والعمل به ومايصلح منه ومالايصلح، وتنظيم القياس الذي

جري عليه الحنفية، ووضع قواعد له وتقسيمه اقساماً وتوضيح علله
وبيان مايجوز منه وما لايجوز.

وقد خطا بكتابه خطوات في الفقه من حيث وضع القواعد
للمجتهد والزامه الاخذ بها أو بنظائرها، وحتى لاياتي اجتهاده
منتاقماً، يوماً يستدل بالعام ويوما يقول ان دلالة طنية، ويوما
يستدل بالخاص ويوما يحتمل انه خصوصية الخ ولايغني مايترب علي
وضع هذه المبادئ من انتظام سير الفقه وتوحيد مجاريه وعدم
الاضطراب في التفريع.

الأم - وهو أكبر أثر للشافعي بين ايدينا وقد ثار الخلاف
حديثاً في مصر هل الام كتاب الله الشافعي أو الله البويطي؟
وأظن انه لوحدد موضع النزاع في دقة لكان الأمر سهلاً حلاً، فليس
يستطيع احد أن يقول ان ما بين دفتي الكتاب الذي بين ايدينا هو
من تأليف الشافعي، وانه عكف عليه كتابه وتأليفه في هذا الوضع
النهائي: وأهم دليل علي ذلك ان مطلع كثير من الفصول العبارة
الآتية " اخبرنا الربيع قال قال الشافعي " وهي عبارة لايمكن ان
يكتبها الشافعي وهو يؤلف الكتاب، وفي ثنايا الكتاب نجد اخباراً
يعدول الشافعي عن هذا الرأي كان يجئ في سير الكلام: قال الربيع

قد رجع الشافعي عن خيار الرؤية وقال لا يجوز خيار الرؤية "ومحال ان تصدر من الشافعي هذه العبارة وأمثالها، كما لا يستطيع احد ان ينكر ان في الأم مذهب الشافعي بقوله وعبارته فالظاهر انها أملاها الشافعي في حلقته كتبها عنه تلاميذه وادخلوا عليها تعليقات من عندهم واختلفت روايتهم بعض الاختلاف، والذي بين أيدينا منها رواية الربيع المرادي عن الشافعي.

علي كل حال بين أيدينا مجموعة في سبعة اجزاء أغلبها من كلام الشافعي رواها عنه تلميذه وأدخل فيها بعض تعليقات أفرادها وبيدها حتي لا تلتبس بكلام الشافعي ومجموع ذلك هو الذي اطلق عليه "كتاب الأم" وقد بوب علي أبواب الفقه كما فعل مالك في الموطأ، ولكن فيه فصول في أصول الفقه اشرنا الي ذلك من قبل.

وقد امليت هذه الأبواب في مصر، والعلماء يقسمون فقه الشافعي الي مذهبين: قديم وجديد. فاما القديم فهو ما كتبه وقال به في العراق، واما الجديد فهو كتبه وقال به في مصر، وذلك انه لما جاء مصر عدل عن بعض أقوال له كان قالها من قبل وسببه انه خالط علماء مصر وسمع ماصح عندهم من حديث وسمع تلاميذ الليث بن سعد ينقلون عنه آراءه وفقهاء، وراي بعض حالات اجتماعية

تخالف تلك التي رآها في الحجاز والعراق، فغير ذلك من فقه الشافعي في بعض اقواله، واطلق عليه المذهب الجديد.

وفي "الأم" مصداق لجميع ما ذكرنا عن الشافعي، فهو فيه فصيح العبارة قوي الأداء، تشوب عبارته بلاغة الابدية وفصاحتها، وقوة القرشية وايجازها أخذ عليه بعض المتعقبين له اشياء عدوها غلطا كقوله: ماء عذب وماء مالح بدل ملح، وقوله: الطهور هو المطهر، ومع ان الطهور هو الطاهر علي سبيل المبالغة، وقوله: وليست الاذن من الوجه فيعسلان بدلا فيغسلان، الي امثال ذلك، وهي في الحقيقة ليست اخطاء بل اجازها اللغويون والنحويون وعلي كل حال فليس يستطيع ان ينكر أحد مافي عبارة الشافعي من دقة وقوة وبلاغه.

وفي الكتاب تظهر قوة الشافعي في الجدل، فاسلوب الكتابة كله تقريبا اسلوب جدلي، حتي لنفترض مجادلا يجادله فيرد عليه، ثم يعترض فيجب فان قال قائل كنا رددنا عليه بكنا " قال المتبايعان بالخيار ما لم يتفرقا في الكلام قلت : فالذي ذهبت اليه محال، ولايجوز في اللسان. قال وما احالته وكيف يحتمله اللسان؟ قلت الخ " وهكذا يسير في كثير من المواضع علي هذا الحوار

السقراطي مماكن متأثرا فيه بنمط العراقين وحججهم واكثرهم من "أرايت ثم هو في الكتاب محدث يكثر من الاستدلالات بالحديث، وهو قياس كثير من استعمالات القياس . فيقول : "وبهذا نأخذ هو قول الأكثر من أهل الحجاز والأكثر من أهل الآثار بالبلدان "ويقول " وقلنا في الكلب ما أمر به رسول الله [ص] وكان الخنزير ان لم يكن في شر من حالة لم يكن في خير منها فقلنا به قياسا عليه " الي كثير من أمثال ذلك .

ثم هو متأثر بالمصرية احيانا فاذا أراد أن يمثل بصيغة لوقفية مثل لذلك بوقف بيت في الفسطاط من مصر ويتكلم في الطين الذي يعرف بالطين الارمني والطين الذي يقال له طين البحيرة وهما مما يدخلن في الادوية ويقان بين الطين الارمني وطين راه في الحجاز ويتكلم في القراطيس [وهي مصرية] ويبين متي يجوز ان تسلفا ومتي لايجوز ويتكلم في شهادة الشعراء في مصر الي امثال ذلك .

وعلي الجملة فالكتاب ثروة كبيرة من حيث دلالة علي مناحي الشافعي في الاجتهاد، وعلي فقهه وعلي مآكان من اثر مصر في القول بالملذهب الجديد الخ .

وكان للشافعي اصحاب اخذوا عنه وتتلهموا له، وحفظوا مذهبه ونشروه بعضهم في العراق وبعضهم في مصر، ومن اشهرهم في مصر البويطي والمزني والربيع المرادي فالبويطي هو يوسف بن يحيى، والبويطي نسبة الي بويط قرية من قري صعيد مصر، وكان اكبر اصحاب الشافعي واعلمهم وقد خلف الشافعي في رئاسة حلقاته، وكان في حياته يفتي علي مذهبه، وتتلهم له كثيرون نشروا مذهب الشافعي، والف كتابه المختصر اختصر فيه كلام الشافعي. قال ابن عبد البر: " وكان ابن ابي الليث الحنفي قاضي مصر يحسده ويعاديه فأخرجه في وقت المحنة في القرآن فيمن اخرج من اهل مصر الي بغداد، ولم يخرج من اصحاب الشافعي غيره، وحمل الي بغداد وحبس فلم يجب الي مادعي اليه في القرآن، وقال هو كلام الله غير مخلوق، وحبس ومات في السجن يوم الجمعة قبل الصلاة سنة ٠٢٣١

واما المزني فهو اسماعيل بن يحيى، كان اقدر اصحاب الشافعي علي المناظرة والجدل والغوص علي المعاني الدقيقة، وقد كان يخالف

الشافعي في بعض اقواله فيقول بعد أن يحكي كلام الشافعي في مسألة: "ليس هذا عندي بشئ" ويظهر أنه امتحن في مسألة خلق القرآن فقال كلاماً نجاهه من الاضطهاد فشنع عليه أعداؤه من المصريين حتى قل الناس في حلقته، ثم مازال في نفوسهم منه وعظمت حلقته حتى اخلت أكثر الجامع، وهو أكثر من دون لغة الشافعي والى فيه الكتب الكثيرة، منها المختصر المطبوع على هامش الأم وانتشرت كتبه ومختصراته في الأقطار فخدمت مذهب الشافعي ومات سنة ٢٦٤هـ .

وأما الربيع المرادي مولى قبيلة مراد، فكان مؤدناً بمسجد عمرو بالفسطاط وربما كان أبطاً تلميذ الشافعي فهما، وقيل كانت فيه سلامة صدر وغفلة ولكنه ثقة صادق فيما يرويه، وعتي لو تعارضت روايته مع رواية المزني، فاصحاب الشافعي يقدمون روايته . وقد حمل عن الشافعي الكثير من علمه، والنسخة المطبوعة من الأم وروايته، مات سنة ٢٧٠هـ .

وعلي الجملة فقد كان البويطي أفقه والمزني أفصح وأمهز وأذكى والمرادي أنزوي، ولكل فضل.

وما يلاحظ ان اصحاب الشافعي لم يكونوا يخالفونه كثيراً، ولما كان اصحاب ابي حنيفة يخالفونه فالمسائل التي خالفت فيها اصحاب الشافعي امامهم تكاد تكون معدومة وكثير منها تخريج علي اصول ، وهذا بخلاف اصحاب ابي حنيفة فقد خالفه ابو يوسف ومحمد وزفر، في الاصول والفروع . وهذا يرجع - فيما أرى - الي سببين : الاول ان مذهب ابي حنيفة لم يقيده ابو حنيفة، وانما قيده ورتبه اصحابه، وله العذر في ذلك فقد ازهر ابو حنيفة قبيل عصر التدوين، وكان السابق والمبكر في صبغ الفقه صبغته الجديدة، وترك لتلاميذه تدوينه، وهذا يجعل اصحابه في حل من المخالفة عند مقارنة المسائل بعضها ببعض، وتطبيقها علي الاصول والسبب الثاني ان مذهب ابي حنيفة - كما علمنا - أميل الي الرأي من مذهب الشافعي، والرأي يمنح اصحابه حرية لاتكون لاصحاب الحديث ومن نحا منحاهم ومن قرب منهم .

ويطول بنا القول علي هذا النمط في ترجمة اصحاب المذاهب الثلاثة عشر الذين عددناهم قبل ، ويحتاج ذلك الي كتاب مستقل، فنكتفي بهؤلاء الذين ذكرنا اذ كانوا يمثلون المناحي المختلفة في التشريع، ولكن لا بأس من ان نلم المأ خفيفا ببعض من كان لهم

اثر كبير او لون في مختلف في الفقه فمنهم

أحمد بن حنبل - وهو أحمد بن محمد بن حنبل، عربي الاصل من شيبان واصله من مرو، ولد ونشأ ببغدا سنة ١٦٤ ورحل الي الكوفة والبصرة ومكة والمدينة والشام واليمن والجزيرة في جمع الحديث وقد صحب الشافعي واخذ عنه، والشافعية يعدونه شافعيًا، ولكنه في الواقع يستقل عنه. وقد امتحن في مسألة خلق القرآن فضرب وحبس، وظل علي قوله بان القرآن غير مخلوق ومبر علي مالحقه من اذي، فكان ذلك مما زاد رلعه في نظر الناس، وكان ضربه وحبسه سنة ٢٢٠ في خلافة الواثق فلما جاء المتوكل اخرج عنه ولما انفي القول بخلق القرآن كما سيجي الكلام في هذه المسألة بمصيلا ان شاء الله، وتوفي ببغداد سنة ٢٤١هـ .

ولا خلاف في عدة من كبار المحدثين، ولكن الخلاف في عدة من الفقهاء فابن جرير الطبري لم يعد مذهبه في الخلاف بين الفقهاء، وكان يقول انها هو رجل حديث لأرجل فقه، وثار عليه الحنابلة من اجل ذلك، ولم يذكره ابن قتيبة في كتابه المعارف بين الفقهاء، وذكره المقدسي في المحدثين لا في الفقهاء واقتصر ابن عبد البر في كتابه الانتقاء علي الائمة الثلاثة، ابي حنيفة ومالك

والشافعي وخالفهم في ذلك غيرهم وخاصة المتأخرين.

والواقع ان فقهه اكثر مايبني علي الحديث، فاذا وجد حديثا صحيحا لم يلتفت الي غيره، واذا وجد فتوي من الصحابة عمل بها، واذا وجد فتاوي لهم تخير أقر بها الي الكتاب والسنة، واحيانا يختلف الصحابة في المسألة علي قولين فيروي علي ابن حنبل في المسألة روايتان، واذا وجد حديثا مرسلا او ضعيفا رجحه علي القياس ولا يستعمل القياس الا عند الضرورة القصوي، ويكره الفتوي في مسألة ليس فيها اثر ولم يضع ابن حنبل كتبها في الفقه علي نمط خاص به وكل ماروي له في الفقه مسائل سئل عنها فأفتي فيها، وانما رتب المذهب وبوبه ودونه واتباعه.

فان نحن نظرنا من ناحية النظريات القانونية ونظمها ورقبها وجدنا ابن حنبل اكبر اثرا في الحديث منه في الفقه.

وممن له لون خاص في التشريع داود بن علي الاصبهاني، المعروف بـداود الظاهري، ولد بالكوفة نحو سنة ٢٠٠، ونشأ ببغداد وتوفي بها سنة ٢٧٠ درس مذهب الشافعي وتعصب له والى في مناقبه، ثم استقل مذهب يعرف بمذهب الظاهرية يتبعه

كثير من الناس خصوصاً في فارس والاندلس.

وموقفه في الفقه موقف النقيض من الحلية، ينكر القياس، ويرى ان في القرآن والحديث، وعموماتها مايكفي لبيان الأحكام، فهو يتمسك بظاهر الكتاب والسنة، ومن هذا اشتق اسم الظاهرية، ويرى ان القول بالقياس تشريع عقلي والدين الهي، ولو كان الدين بالعقل لجرت احكام علي خلاف ماأتي به الكتاب والسنة، فوجب ان نتقيد بهما بل بظاهرها ولانبيع القياس الا اذا ورد نص بتحريم او بتعليل وبين في علته، فحينئذ يجوز لنا ان نشرك في الحكم الاشياء التي لم ينص عليها ولكن لم تتحد في العلة، اما اذا لم ينص علي العلة فليس المجتهد ان يقول بها من عنده ثم يقيس عليها، فالله تعالى يقول: " وماختلفتم فيه من شيء فحكمه الي الله " ولم يقل الي الرأي والقياس. وقد هاجم القياسيين وبين ما ألجأهم اليه القياس من خطأ في الأحكام، واداه هذا المنعني الي مخالفة المذاهب الاخرى في كثير من المسائل.

وعلي الجملة فقد كان مجال التشريع عندهم اضيق من غيرهم، لأن اكبر منحي للاجتهاد هو القياس وقد انكروه

كذلك مما لايسعنا اغفاله ما للشیعة والخوارج من فقه وسنتكلم
في فقههما عند الكلام في عقائدهما ان شاء الله .

وبعد، فنستطيع بعد هذا الاستعراض للتشريع ومناحيه المختلفة
ان نسجل النتائج الآتية :

١- كان هذا العصر الذي نؤرخه اكثر عصور الاسلام نشاطا في
التشريع واكثر عدداً من الفقهاء المجتهدين، كل ماكان فيه من ولاء
وغصام سبب مهر المسائل الفقهية، والجد في تحريرها وتصفياتها،
وكان العلماء احرارا في مناحيهم ونزعاتهم واجتهادهم، لايتدخل
سلطة فيما بينهم من خصام ونزاع، ولاتحجر علي حريتهم في
الاجتهاد والتفكير ماداموا بعيدين عن مسائل الخلافة وما اليها،
لهم ان يجتهدوا في غيرها ماشاءوا، ولهم ان يستنتجوا الاحكام من
الكتاب والسنة أو القياس ماشاءوا لايتعرض لمن وسع علي نفسه
فاستعمل الرأي الي غاية مده كما لايتعارض لمن ضيق علي نفسه
فاللتزم الاحكام من الكتاب والسنة وحدهما ولم تلتزم الحكومة قانونا
بعينه تفرضه علي الدولة كلها، ولاملها معينا تفرضه علي الامصار

فرضاً، بل اختارت القضاة من مناح مختلفة في الاجتهاد وتركزت لهم الحرية في الأحكام علي حسب اجتهادهم، فربما حكم في المسألة بحكمين مختلفين في مصريين مختلفين، بل ربما حكم بحكمين مختلفين في بلد واحد اذا كان لهما قاضيان، كما ذكر ابن المقفع، ولم تتدخل الحكومة في حسم الخلاف وتوحيد القضاء ولا في عامتها نفسها. أمان عدا القضاة من الفقهاء المجتهدين لحريتهم في التشريع اظهر.

وكما كثر الفقهاء المشرعون وكثر اجتهادهم كثرت المسائل القانونية واحكام الجزليات كثرة لايقاس بها ماكانت عليه قبل هذا العصر ففرعت الفروع وفرضت الفروض ووضع لها الاحكام، وعرضت كل العادات والتقاليد والعرف في الامصار المختلفة من عراق وحجاز وشام ومصر علي الفقه وواجهها الفقهاء وشرعوا لها الاحكام، او اقروها علي ما هو عليه اذا لم تصطدم بنص، وتوسعوا في بابي الاجماع والقياس، حتي دخلت فيها العادات العرفية والشامية والمصرية واقرت علي ما هي عليه احيانا وعدلت اذا خالفت اصول الاسلام واصبحت جزءاً من الفقه الاسلامي.

ذلك بأنهم جعلوا العرف اساساً من اساس التشريع، واستندوا

في ذلك علي حديث " ماراه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن " وجاء في المبسوط " الثابت بالعرف كالثابت بالنص " وقسموا العرف الي قسمين: عرف عملي كتعارف قوم علي صرف الفضة بالفضة، وعرف قولي كتعارفهم علي اطلاق لفظ علي معني بحيث لايتبادر عند سماعه غيره، وكلا المعنيين اخذ به الفقهاء، فاجازوا كثيرا من المعاملات لجريان العرف بها وحملوا في كثير من الاحيان الفاظ الوقف والطلاق والايمان علي ما يجري العرف في تفسيرها فدخل الفقه في هذا الباب كثير من العادات المستعملة من الامصار مثل ذلك الاستصناع وهو ان يقول شخص لرجل من اهل الصنائع اصنع له الشئ الفلاني، ويصفه بثمن قدره كذا فقد اجازه الحنفية لجريان لاعرف مع ورود النص في النهي عن بيع ما ليس عند الانسان فخصصوا النص بالعرف، واجاز مشايخ بلخ ان يدفع الرجل للحاكم غزلا وعلي ان ينسجه بالثلث، وقال ان هذه اجازة صحيحة لتعامل اهل بلدهم بها " والتعامل حجة يترك به القياس ويخص به الاثر " الي كثير من امثال ذلك. وقد اشترطوا في المجتهد معرفة عادات الناس " لان كثيرا من الاحكام تخلف باختلاف الزمان " لتغيير العرف " ومن ذلك ما روي الكردي في المناقب ان محمد بن الحسن " كان يذهب الي الصباغين ويسأل عن معاملتهم وما يديرونها فيما بينهم " وكتب الفقه مملوءة بمسائل الخلاف بين الائمة مما كان سبب

اختلاف العرف في امصار الائمة او زمانهم وكل الذي اريد هنا ان من هذا الطريق - طريق العرف والعادات - دخل كثير من عادات الامم ودون في الفقه، وكان ائمة كل مصر يستعرضون ماعندهم من عادات فيعرضونها علي قواعد الاسلام فمالم يخالف منها نصا صريحا اجازوه بل احيانا يجيزونه. ويخصمون النص كما رأيت ومن امثلة ذلك ايضا اجازة بعضهم بيع ثمار البستان اذا كان بعضها قد خرج وبعضها لم يخرج، لان العرف جري بذلك. وقال شمس الائمة "استحسن ذلك لتعامل الناس فانهم تعاملوا بيع ثمار الكرم بهذه الصفة ولهم في ذلك عادة ظاهرة وفي نزاع الناس من عاداتهم خرج " مع ان هنا ايضا ينطبق علي انه بيع الانسان مالمس عنده وهو منهي عنه لان الثمار التي تتلحق ليست موجودة كلها، فخصموا النص ايضا بالعرف واقتوا فيما يدخل في المبيع تبعا ومالا يدخل بعرف كل بلد، فقالوا ان السلم المنفصل يدخل في بيع البيت في القاهرة لان بيوتهم طبقات لا ينتفع بها الا به، ولا يدخل في البلاد التي بيوتها طبقة واحدة الخ.

وقد كان لكل امة عرف وعادات في بيعها وشرائها وفي لغتها، ودلالة الفاظها علي معانيها، وفي الزواج وما يكون جهازا وما لا يكون، وفي الاراضي هل يدفع العشر المؤجر أو المستأجر الخ وكل هذه

العادات عرضت علي الأئمة فادخلوها في الفقه وكانت من اكبر مصادره، لأن كثيرا من عادات الامم لم تعرف في عهد النبي [ص] فلم يرد فيها نص من كتاب ولا سنة، ورجوع الناس عن عاداتهم التي جروا عليها اجيالا ليس بالامر الهين، لذلك اجاز الفقهاء الكثير منها واقروها وعدوها اسلامية، وكان هذا سببا من أسباب تضخم الفقه.

٢- كان المسلمون قبل هذا العصر، وفي اول هذا العصر لا يبحسون الي مذاهب بل المسلم احد رجلين، اما عالم مجتهد فهو يدرس ويجتهد لنفسه في تعرف الاحكام، ويعلم ذلك لتلاميذه، واما عامي اوشبه عامي اذا عرضت له مسألة استفتي فيها من صادق من المجتهدين كانا من كان فيعمل بما يفتيه والمجتهدون كثيرون مختلفون فلما تقدم الزمن في العصر العباسي رأينا المذاهب تتبلور ولكنها مع تبلورها كثيرة، واشتهر منها ثلاثة عشر مذهباً اويزيد

ورأينا الكتب توضع في كل مذهب ورأينا الناس يبحسون الي هذه المذاهب ثم رأينا بعض المذاهب يقدر لها الانقراض فيفني اصحابها، أو يقل اتباعها وبعضها يقدر له البقاء والنماء، حتي يصبح بعد

عصرنا هذا . والمذاهب أربعة فقط حنفي ومالكي وشافعي وحنبلي، هذا عدا الشيعة والخوارج، وإذا بالناس ينحازون الي هذه المذاهب لا الي غيرها، وتنقسم البلاد هذه المذاهب فيسود كل قطر مذهب قطرا وتقل بجانبه المذاهب الاخرى [كما سيأتي بيانه في حينه] وإذا عرض لعامي امر استفتي فيه علماء مذهبه غالبا، وتعبد عليه في الصلاة والزكاة والصيام والحج، وسار الزواج والطلاق علي مذهب امامه .

٣- اذا تتبعنا ماكان بين مدرسة الرأي ومدرسة القياس، ونظرنا الي الفقهاء من حيث مقدار حريتهم في الرأي، وأردنا ان نضع لهم قائمة تبين درجاتهم في ذلك، وجدنا أن اول القائمة طائفة رأت عدم العمل بالحديث، والاكتفاء بالقرآن، قالوا: لأنكم ترون الحديث عن رجل آخر، وليس احد الا وهو عرضه للخطأ أو النسيان، فلسنا نقبل منهم شيئا اذا كانت عرضة للوهم، ولانقبل الاكتاب الله الذي لايسع احد الشك في حرف منه وقد حكي الشافعي في الام عنهم انهم انقسموا قسمين، قسم قالوا: ما لم يكن فيه كتاب الله فليس علي احد فيه فرض، وقسم قالوا: يقبل الحديث اذا كان فيه قرآن .

ومثل هؤلاء القوم يصح ان يوضعوا في اعلي قائمة الحرية اذا

كان مذهبهم ان نلتزم فقطما جاء في القرآن، أما ماعداه فنعمل فيه
بالرأي والعدالة وهذا هو الأقرب من قولهم. كما يصبح أن
يوضعوا في اسفل القائمة حتي بعد الظاهرية ان قالوا لانعمل الا
بما ورد في كتاب الله. ومايؤسف له أنا لم نجد نصا صريحا
يعين اتجاه مذهبهم فان كانوا قد ذهبوا الي الاتجاه الاول كانوا -
من غير شك - اكثر الفقهاء حرية لانهم لايلتزمون الا ماورد في
الكتاب من احكام اما ماعدا ذلك فهم احرار في استعمال الرأي فيه
كما^{ان} مايؤسف له انا لانعلم لذلك زعيما دعي الي هذا الرأي ووضع
له قواعده واصوله وفرع عليه، بل لم يسمي الشافعي في الام اسم
من ذهب هذا المذهب .

يلي هؤلاء - ان كان مذهبهم كما فسرنا - مذهب ابي حنيفة،
فقد قيد الحديث الذي يعمل به وضيق دائرته ووسع القياس ثم
الشافعي فقد وسع الحديث وقلل دائرة القياس ثم مالك فلم يتوسع
في القياس كما توسع الشافعي، ثم احمد بن حنبل فحد ابي
استعمال القياس الا عند الضرورة القصوى، وفضل عليه الحديث
الضعيف ثم داود الظاهري وقد انكر القياس الا مانص عليه فيه
علي العلة .

والذي يستعرض هذه الاراء يرى ان دائرة الحرية التي كان
يسبح فيها مذهب ابي حنيفة اخدت في الضيق، حتي ان تلاميذه
انفسهم كأبي يوسف ومحمد كانا من عوامل هذا التضيق، فقد أخذ

من مدرسة الحجاز حديثا كثيرا عدلا بملذهب ابي حنيفة وغالفا به شيخهما، ولئن اثر مذهب ابي حنيفة في المذاهب الاخرى من ناحية الرأي والقياس، فقد كان تاثير مدرسة الحديث في مذهب ابي حنيفة اقوي واكثر .

لو فكر مفكر في ذلك العصر ربما توقع غلبة مذهب ابي حنيفة وسيادته علي مذهب الحديث لتأييد الحكومة العباسية له بعض الشيء، ولغلبة مذهب الاعتزال نحو خمسين عاما ختمت بيده خلافة المتوكل، ومذهب الاعتزال هو القائل بالتحسين والتقيح العقليين، ولظهور الفلسفة في العراق وهي ادعي الي الحرية الفكرية . ولكن مع كل هذا كانت الغلبة في الفقه لمدرسة الحديث والسبب في هذا - علي ما يظهر - ان قوة المحدثين كانت اكبر وجهور المسلمين كان لهم انصر، وان حركة الاعتزال ومركبة الفلسفة كانتا حركتين ارسقراطيتين يعتنقها في الغالب استقراطيتين الشعب لاجمهوره، ولذلك هوجم القول بخلق القرآن الذي قال به المعتزلة هجوما عنيفا من الشعب . وبلغ جهور الناس الذين يقتنون في واجهه ويتخرجون من القول به ويتحملون العذاب في سبيله الي درجة عليا الي ان قضي عليه . وكذلك هوجمت الفلسفة من الشعب، ولم يفلح كثيرا تأييد الحكومة العباسية مذهب ابي حنيفة بعض

الشيء، لأن اكبر هذا التأييد مصدره وجود ابي يوسف علي راس
القضاة، وابو يوسف نفسه كما رأينا كان من عوامل ادخال الحديث
الكثير في فقه ابي حنيفة وتعديله. لهذا كله ضاقت دائرة الرأي
والقياس واتسعت دائرة الحديث، يضاف الي ذلك ايضا ان المحدثين
قد نشطوا نشاطا كثيرا في هذا العصر، فجمعوا الاحاديث المتفرقة
في الامصار المختلفة صحيحها وضعيفها وكثير من هذه الاحاديث
تتعلق بالاحكام فاضطر الفقهاء امام هذه الاحاديث وامام قوة
المحدثين ان يخضعوا انفسهم للحديث، ولهذا نرى كتب الفقه حتي
كتب الحنفية تستدل علي اكثر الاحكام بالحديث وان كان بعضها
ضعيفا، وتري ان الفروق بين المدارس المختلفة قلت، فلم تعد بين
تلاميذ ابي حنيفة والشافعي ومالك فروق كالتى كانت بين مالك ابي
حنيفة انفسهما، حتي ليظن الطان لاول وهلة ان منحي التشريع
عند الجميع واحد ولم يكن ذلك صحيحا عند تأسيس هذه المدارس،
وانما اظهره بهذا المظهر شيء واحد: هو "غلبة رجال
الحديث" [١]

(١) انظر، احمد امين، فحوى الاسلام من ١٥١-٢٤٢.

الملاحق

بغداد

وانما ابتدأت بالعراق لأنها وسط الدنيا وسرة الأرض.. وذكرت
بغداد لأنها وسط العراق والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في
مشارك الأرض ومغاربها سعة وكبرا وعمارة وكثرة مياه وصحة
هواء لأنه سكنها من اصناف الناس وأهل الامصار والكور وانتقل
اليها من جميع البلدان القاضية والدانية وأثرها . جميع أهل الافاق
علي اوطانهم فليس من أهل بلد الاولهم فيها محلة ومتجر
ومتصرف . فاجتمع بها مالميس في مدينة في الدنيا ثم يجري في
حافيتها النهران الأعظمان دجلة والفرات فيأتيها التجارات والميربرا
وبحرا بايسر السعي حتي تكامل بها كل متجر يشمل من المشرق
والمغرب من أرض الاسلام وغير أرض الاسلام فانه يحمل اليها من
الهند والسند والصين والتبت والترك والديلم والخرز والحبشة
وسائر البلدان حتي يكون بها من تجارات البلدان اكثر مما في
تلك البلدان التي خرجت التجارات منها ويكون مع ذلك أوجد وامكن
حتي كأنها سبقت اليها خيرات الأرض وجمعت فيها ذخائر الدنيا
وتكاملت بركات العالم مع هذا مدينة بنيد هاشم ودار ملكهم ومحل
سلطانهم لم يبدأ بها احد قبلهم ولم يسكنها ملوك سواهم ولأن
سلفي كانوا القائمين بها وأحدهم ضولي امرها ولها الاسم المشهور
والذكر الدائع ثم هي وسط الدنيا لأنها علي ما اجمع عليه قول

الحساب وتضمنته كتب الأوائل من الحكماء في الاقليم الرابع وهو الاقليم الاوسط الذي يعتد فيه الهواء في جميع الأزمان والفصول فيكون الحر بها شديدا في ايام القبط والبرد شديدا في ايام الشتاء ويعتدل الفصول الخريف والربيع في اوقاتها ويكون دخول الخريف الي الشتاء غير متباين الهواء ودخول الربيع الي الصيف غير متباين الهواء وكذلك كل فصل ينتقل من هواء الي هواء ومن زمان الي زمان فلذلك اعتدل الهواء وطاب الثري وعذب الماء وزكت الاشجار وطابت الثمار واخصبت الزروع وكثرت الخيرات وقرب مستنبط معينها وباعتدال الهواء وطيب الثري وعلوبة الماء حسنت اخلاق اهلها ونصرت وجوهم وانفتحت اذهانهم حتي فضلوا الناس في العلم والفهم والادب والنظر والتمييز والتجارات والصناعات والمكاسب والحدق بكل مناظرة واحكام كل مهنة واتقان كل صناعة فليس أعلم من عالمهم ولا أروي من راويتهم ولا أجدل من متكلمهم، ولا أعرب من لغويتهم ولا اصح من قارئهم ولا أمهر من منطبقهم ولا احذق من مغنيهم ولا لطف من صانعهم ولا اكتب من كاتبهم ولا ابين من منطبقهم ولا اعبد من عابدهم ولا اروع من زاهدهم ولا اذقه من حاكمهم ولا اخطب من خطيبهم ولا اشعر من شاعرهم ولا افتك من باجنهم ولم تكن بغداد مدينة في الايام المتقدمة اعني ايام كاسرة والاعاجم وانما كانت قرية من قري طسوج بأوربا وذلك أن مدين الاكاسرة التي أن مدينة الاكاسرة التي خاروها من مدن العراق

المداخن وشي من بغداد علي سبعة فراسخ وبها ايوان كسري
انوشروان ولم يكن ببغداد الادير علي موضع مصب الصراه الي دجلة
الذي يقال له قرن الصراة وهو الدير الذي يسمي الدير العتيق قائم
بحاله الي هذا الوقت نزل الجاثليق رئيس النصاري النسطورية ولم
تكن ايضا بغداد في ايام العرب لها جاء الاسلام لان العرب اختطت
البصرة والكوفة فاحتفظ الكوفة سعد بن ابي وقاص الزهري في
سنة سبع عشرة وهو عامل عمر بن الخطاب واختط البصرة عبثه
بن غزوان المازني مازن قيس في سنة سبع عشرة وهوى يومئذ عامل
عمر بن الخطاب فاختط العرب في هاتين المدينتين خططهما الا أن
القوم جميعا قد انتقل وجوهم وجلتهم ومياسيرتجارهم الي بغداد
ولم ينزل بنو أمية العراق لانهم كانوا نزولا بالشام وكان معاوية
بن ابي سفيان عامل الشام لعمر بن الخطاب لعثمان بن عفان عشرين
سنة وكان ينزل مدينة دمشق واهله معه قلما غلب علي الامر وصار
اليه السلطان جعل منزله وداره دمشق اذ بها كان سلطانه وانصاره
وشييعته ثم نزل بها ملوك بني أمية بعد معاوية لانهم بها نشلوا
لايعرفون غيرها ولايعمل اليهم الا اهلها فلما افضت لخلافة الي بني
عم رسول الله صلي الله عليه وسلم وآله من ولد العباس بن عبد
المطلب عرفوا بحسن تمييزهم وصحة عقولهم وكمال اراهم فضل
العراق وجلالته وسعتها ووسطها للعراق وانها ليست كالشام الويبة
الهواء، الضيقة المنازل الحزنة الارض المتصلة الطواعين الجافية

الاهل ولاكمصر المتغيرة الهواء الكثيرة الوباء التي انها بين بحر
رطب كثير البخارات الردية التي تولد الادواء وتفسد الغلاتوبين
الجبل اليابس الصلد الذي لبيسه وملوحته وفساده يثبت فيه خضر
ولايلفجر منه عين ماء ولاكافريكية البعيدة عن جزيرة الاسلام وعن
بيت الله الحرام الحامية الاهل النائية البادرة الصردة الحزنة اذ
يحيط بها الاعداء ولامثل كور الجبل الحزنة الخشنة المثلجة دار
الاکراد الغليظي الاكباد ولاكارض خراسان الطاعنة في مشرق الشمس
اذ يحيط بها من جميع اطرافها عد وكلب ومحارب حرب ولاكالهجاز
النكدة المعاش الضيقة المكسب اذ قوت أهلها من غيرها وقد أخبانا
الله عزو وجل في كتابه ابراهيم خليفة عليه السلام فقال رب اني
اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع ولاكالتبت التي بفساد هوائها
وغنائها تغيرت الواق أهلها وصغرت ابدانهم وتحققت شعورهم،
فلما علموا انها افضل البلدان نزلوها مختارين لها فنزل ابو العباس
امير المؤمنين وهو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن
العباس بن عبد المطلب الكوفة أول مرة ثم انتقل الي الانبار فبني
مدينة علي شاطئ الفرات وسماها " الهاشمية " وتولي ابو العباس
رضه قبل ان يستتم المدينة فلما ولي ابوجعفر المنصور الخلافة
وهو ايضا عبد الله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبد
المطلب بني مدينة بين الكوفة والحيرة سماها الهاشمية وأقام بها
مدة الي ان عزم علي توجيه ابنه محمدالمهدي لغزو الصقالبة في

سنة أربعين ومائة فصار الي بغداد فوقف بها وقال ما اسم هذا
الموضع قيل له بغداد قل هذه والله المدينة اذا اعلمني ابي محمد
بن علي اني ابيها وانزلها وينزلها ولدي من بعدي ولقد غفلت عنها
الملوك في الجاهلية والاسلام حتي يتم تدبير الله ولي وحكمه في
وتسبح الروايات وتبين الدلائل والعلامات والا فجزيرة بين دجلة
والفرات دجلة شرقيها والفرات غربيها مشرعة للدنيا كل ماياتي في
دجلة من واسط والبصرة والابلّة والاهواز وفارس وعمان واليمامة
والبحرين ومايتصل بذلك فاليها ترقى وبها ترسي وكذلك ماياتي من
الموصل وديار ربيعة واذريجان وارمينية مما يحمل في السفن في
دجلة وماياتي من ديار مصر والرقّة والشام والثغور ومصر
والمغرب ممايتصل في السفن في الفرات فيها يحتط وينزل ومدرجة
اهل الجبل واصبهان وكورخراسان فالحمد لله الذي ذخرها لي واغفل
عنها كل من تقدمني والله لابنيها ثم اسكنها ايام حياتي ويسكنها
والي من بعدي ثم لتكونن اعمر مدينة في الارض ثم لابنين بعدها
أرجح من لامخرب واحدة منهن ابداء فبنّاها وهي الرافقة ولم يسمها
فخري ملطية وبني المصيصه وبني المنصورة بالسند ثم وجه في
احضار المهندسين واهل المعرفة بالبناء والعلم بالدرع والمساحة
وقسمة الارضين حتي اختط مدينته المعروفة بمدينة ابي جعفر
واحضر البنائين والفعلة والصناع من التجارين والحدادين والحفارين
فاما اجتمعوا وتكلموا جري عليهم الارزاق وقام لهم الاجرة وكتب

الي كل بلد في حمل من فيه ممن يفهم شيئا اليينا فحضره مائة الف
من أصناف المهن والصناعات خبر بهذا جماعة من المشايخ ان ابا
جعفر المنصور لم يبتد البناء حتي تكامل له من الفعلة وأهل
المهن مائة الف ثم اختطها في شهر ربيع الأول سنة احدى
واربعين ومائة وجعلها مدورة ولا تعرف في جميع اقطار الدنيا مدينة
مدورة غيرها ووضع أساس المدينة في وقت اختاره فوبخت المنجم
وما شاء الله بن سارية وقبل وضع الأساس وما ضرب اللبن العظام
وكان في اللبنة التامة المربعة ذراع في ذراع وزنها مائتا رطل
واللبنة المنصفة طولها ذراع وعرضها نصف ذراع ووزنها مائة رطل
وحفرت الآبار للماء وعملت القناة التي تأخذ من نهر كرخايا وهو
النهر الأخذ من الفرات فاتقنت القناة واجريت الي داخل المدينة
للشرب ولضرب اللبن وبل الطين وجعل للمدينة اربعة أبواب باب
سماه باب الكوفة وباب سماه باب البصرة وباب سماه باب خراسان
وبابا سماه باب الشام وبين كل بابا منها الي الآخر خمسة الاف
ذراع بالذراع السوداء من خارج الخندق وعلي كل باب منها باب
حديد عظيمان جليلان ولا يخلق الباب الواحد منها ولا يفتحه الا جماعة
رجال يدخل الفارس بالعلم والرامي بالرمح الطويل من غير ان يميل
العلم ولا يثني الرمح وجعل سورها باللبن العظام اذ لم ير مثلها
قط علي ما وصفنا من مقدارها والطين وجعل عرض اساس السور
تسعين ذارعا بالسوداء ثم ينحط حتي يصير في اعلاه علي خمس

وعشرين ذراعا وارتفاعه ستون ذراعا مع الشرافات وحول السور
فصيل جليل عظيم بين حائط السور وحائط الفصيل مائة ذراع
بالسوداء والفصيل ابرجة عظام وعليه الشرافات المدورة وخارج
الفصيل كمايدور مسناه بالاجر والصاروج متقنة محكمة عالية
والخندق بعد المسناه قد أجري فيه الماء من القناة اذ تأخذ من
نهر كرخايا وخلف الخندق الشوارع العظماء وجعل لابواب المدينة
اربعة دهاليز عظاما ازاجا، كلها طول كل دهليز ثمنون ذراعا كلها
معقودا بالاجر والجص فاذا دخل من الدهليز الذي علي الفصيل وافي
رحبة مفروشة بالحصر ثم دهليز علي السور الاعظم عليه بابا حديد
جليان عظيمان لايفتح كل باب ولايفتحه الاجماعه رجال والابواب
الاربعة كلها علي ذلك فاذا دخل من دهليز السور الاعظم سار في
رحبة الي طاقات معقودة بالاجر والجص فيها كواء رومية يدخل
منها الشمس والضوء ولايدخل منها المطر وفيها منازل الغلمان
ولكل باب من الابواب الاربعة طاقات وعلي كل باب من ابواب
المدينة التي علي السور الاعظم قبة معقودة عظيمة مذهبة وحولها
مجالس ومرتفات يجلس فيها فيشرف علي كل مايعمل به يصعد الي
هذه القباب علي عقود مبنية بعضها بالجص والاجر وبعضها باللين
العظام قد عملت ازاجا بعضها اعلي من بعض فداخل الازاج للرابطة
والحرس وظهورها عليها المصعد الي القباب التي علي الابواب علي
الدواب وعلي المصعد أبواب تغلق فاذا خرج الخارج من الطاقات خرج

الي رحبة ثم الي دهليز عظيم ازج معهود بالاجر والجنس عليه بابا
حديد يخرج من الباب الي الرحبة العظامي وكذلك الطاقات الاربعة
علي مثال واحد وفي ربط الرحبة القصر الذي سمي بابه باب الذهب
والي جنب القصر المسجد الجامع وليس حول القصر بناء ولا دار
ولامسكن لاحد الا دار من ناحية باب الشام للحرس وسقيفة كبيرة
ممتدة علي عمد مبنية بالاجر والجنس يجلس في احدهما صاحب
الشرطة وفي الاخرى صاحب الحرس وهي اليوم يصلي فيها الناس
وحول الرحبة كما تدور منازل اولاد المنصور الامان ومن يقرب
من خدمته ومن عبيده وبيت المال وخزانة السلاح وديوان الرسائل
وديوان الخراج وديوان الخاتم وديوان الجند وديوان الحوائج وديوان
الاحشام ومطبخ العامة وديوان النفقات من الطاقات الي الطاقات
السكك والدروب تعرف بقواده ومواليه وبسكان كل سكة فمن باب
البصرة الي باب الكوفة سكة الشرط وسكة الهيشم وسكة المطبق
وفيها الحسين الاعظم الذي يسمي المطبق وثيق البناء محكم السور
وسكة النساء وسكة سرجس وسكة الحسنى وسكة عطية وسكة
مجاهد وسكة العباس وسكة غزوان، وسكة ابي حنيفة والسكة
الضيقة ومن باب البصرة الي باب خراسان سكة الحرس وسكة
وسكة النعيمية وسكة سليمان وسكة الربيع وسكة مهمل، وسكة
شيخ بن عميرة وسكة المرووزية وسكة واضح وسكة السقائين،
وسكة ابن بريهة بن عيسى بن المنصور وسكة ابي احمد والدرب

الضيقة ومن باب الكوفة الي باب الشام سكة العكي وسكة ابي قرة
وسكة عبدوية وسكة العلاء وسكة نافع وسكة اسلم وسكة منارة
ومن باب الشام الي باب خراسان سكة المودنين وسكة دارم وسكة
اسرايل وسكة تعرف في هذا الوقت بالقواريري قد ذهب عني
اسم صاحبها وسكة الحكم بن يوسف وسكة سماعة وسكة ماعد
مولي ابي جعفر وسكة تعرف اليوم بالزيادي وقد ذهب عني اسم
صاحبها وسكة غزوان هذه السكك بين الطاقات والطاقات داخل
المدينة وداخل السور، وفي كل سكة من هذه السكك جلة القواد
الموثوق بهم في النزول معه وجله مواليه ومن يحتاج اليه في الامر
المهم وعلي كل سكة من طرفيها الابواب الوثيقة ولا تتصل سكة
منها بسور الرحبة التي فيها دار الخلافة لان حوالي سور
الرحبة كما تدور الطريق، وكان الذين هندسوها عبد الله بن محرز
والحجاج بن يوسف وعمران بن الواح وشهاب بن كثير بحضرة
نوبخت وابراهيم بن محمد الفزاري والطبري المنجمين اصحاب الحساب
وقسم الارياض اربعة ارباع وقلد القيام بكل ربع رجلا من
المهندسين واعطي اصحاب كل ربع مبلغ ما يصير لصاحب كل قطعة
من اللرع ومبلغ ذرع ما لعمل الأسواق في ريف ريف فلقد الربع من
باب الكوفة الي باب البصرة وباب المحول والكرخ وما اتصل بذلك
كله المسيب بن زهير والربيع موله وعمران بن الواح المهندس
والربع من باب الكوفة الي باب الشام وشارع طريق الأنبار الي حد
ريض حرب بن عبد الله سليمان بن مجالد وواضا مولاة وعبد الله

بن محرز المهندس والربيع من باب الشام الي ربيع حرب وما اتصل
بربيع حرب وشارع باب الشام وما اتصل بذلك الي الجسر علي منتهي
دجلة حرب بن عبد الله وغزوان مولاة والحجاج بن يوسف
المهندس ومن باب خراسان الي الجسر الذي علي دجلة ماذا في
الشارع علي دجلة الي البغيين وباب قطربل هشام بن عمرو التغلبي
وعمار بن حمزة وشهاب بن كثير المهندس ووقع الي كل اصحاب
ربع مايصير لكل رجل من الدرع ولمن معه من اصحابه وما قدره
للحوانيت والاسواق في كل ربيع وامرهم أن يوسعوا في الحوانيت
ليكون في كل ربيع سوق جامعة تجمع التجارات وأن يجعلوا في كل
ربيع من السكك والدروب النافذة وغير النافذة ما يعتدل بها المنازل
وان يسموا كل درب باسم القائد النازل فيه او الرجل النبیه الذين
ينزله او اهل البلد الذي يسكنونه وعد لهم ان يجعلوا عرض الشوارع
خمسين ذراعا بالسوداء والدروب ست عشرة ذراعا وان يبتنوا في
جميع الارياض والاسواق والدروب من المساجد والحمامات ما يكفي
بها من في كل ناحية ومنخله وامرهم جميعا ان يجعلوا من قطائع
القواد والجند ذراعا معلوما للتجار يبنونه وينزلونه ولسوقه الناس
واهل البلدان وكان اول من أقطع خارج المدينة من اهل بيته عبد
الوهاب بن ابراهيم ابن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بازاء
باب الكوفة علي الصراة السفلي التي تأخذ من الفرات فريضة يعرف
بسويقة عيد الوهاب وقصره هناك قد خرب وبلغني ان السويقة
ايضا قد خربت واقطع العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن

العباس بن عبد المطلب الجزيرة التي بين الصراطين فجعلها العباس
بستانا ومزدردعا وهي العباسية المذكورة والمشهورة التي لاتنقطع
علائها في صيف ولاشتاء ولاني وقت من الاوقات واستقطع العباس
لنفسه لاجعل الجزيرة بستانا في الجانب الشرقي وفي اخر العباسية
تجتمع الصراتان والرجا العظمي التي يقال لها رجا البطريق وكانت
مائة حجر تغل في كل سنة مائة الف الف درهم هندسها بطريق
قدم عليه من ملك الروم فنسبت اليه واقطع الشروية وهم موالي
محمد بن علي بن عبد الله بن العباس دون سويته عبد الوهاب
ممايلي باب الكوفة وكانوا بوابية رئيسهم حسن الشروي واقطع
المهاجر بن عمرو صاحب ديوان الصدقات في الرحبة التي تجاه باب
الكوفة فهناك ديوان الصدقات وبازائه قطيعة ياسين صاحب النجائب
وخان النجائب ودون خان النجائب اصطلح الموالي واقطع المسيب بن
زهي الصبي صاحب الشرطة يمين باب الوفة الداخل الي المدينة
ممايلي باب البصرة فهناك دار المسيب ومسجد المسيب ذو المئذنة
الطويلة واقطع ازهر بن زهير اخا المسيب في ظهر قطيعة المسيب
ممايلي القبلة وهو علي الصراة وهناك دار ازهر وبستان ازهر الي
هذه الغاية ويتمل بقطيعة المسيب واهل بيته قطيعة ابي العنبر
مولي المنصور ممايلي القبلة وعلي الصراة قطيعة الصحابة وكانوا من
سائر قبائل العرب من قريش والانصار وربيعة ومضر ويمن وهناك
دار عياش المتوف وغيره ثم قطيعة يقطين بن موسي احد رجال
الدولة واصحاب الدعوة ثم عبر الصراة العظمي اجتمعت فيها

الصراخان الصراة العليا والصراة السفلى وعليها القنطرة المعقودة
بالجس والاجر المتحكمة الوثيقة التي يقال لها القنطرة العتيقة
لأنها أول شئ بناه وتقدم في احكامه فتعرج من القنطرة ذات اليمين
الي القبله الي قطيعة اسحاق بن عيسى بن علي وقصوره ودوره
شارعه علي الصراط العظيم من الجانب الشرقي والطريق الاعظم بين
الدور والصراة ومن قطيعة عيسى بن علي الي قطيعة ابي السري
الشامي مولي المنصور، ثم الملاق المعقود عليه الباب المعروف بباب
المحول فتصير منه الي ربض حميد بن قحطبة الطائي وربض حميد
شارع علي الصراة العليا وهناك دار حميد واصحابه وجماعة من آل
قحطبة بن شبيب ثم يتصل ذلك بقطيعة الفراشين وتعرف بدار
الروميين وتشرع علي نهر كرخايا ثم تعود الي الشارع الاعظم وهو
شارع باب المحول وفيه سوق عظيمة فيها اصناف التجارات ثم
يتصل ذلك بالحوض العتيق وهناك منازل الفرس اصحاب الشاه ثم
يستمر المسير الي الموضع المعروف بالكناسة فهناك مرابط دواب
العامة ومواقع نخاسي الدواب ثم المقبرة القديمة المعروفة
بالكناسة مادة الي نهر عيسى بن علي الذي يأخذ من الفرات
والدباغين وبازاء قطيعة الروميين علي نهر كرخايا الذي عليه
القنطرة المعروفة بالروميين دار كعيوية البستانيان الذي غرس
النخل ببغداد ثم بساتين متصلة غرسها كعيوبة البصري الي
الموضع المعروف ببراثا ثم رجعنا الي القنطرة العتيقة فقبل ان
تعبير القنطرة مشرقا الي ربض ابي الورد كوثر بن اليمان خازن

بيت المال وسوق فيها - سائر البياعات تعرف بسويقة ابي الورد الي
باب الكرخ وفي ظهر قطيعة ابي الورد كوثر بن اليمان قطيعة
حبيب بن رغبان الحمصي وهناك مسجد ابن رغبان ومسجد الانبار بين
كتاب ديوان الخراج، وقبل ان تعبر الي القنطرة العتيقة وانه
مقبل من باب الكوفة في الشارع الأعظم قطيعة سليم، مولي امير
المؤمنين صاحب ديوان الخراج وقطيعة ايوب عيسي الشردى ثم
قطيعة رباوة الكرمانى واصحابه وتنتهي الي باب المدينة المعروف
بباب البصرة وهو مشرف علي الصراة ودجلة وبازائه القنطرة
الجديدة لانها اخر مايلي من القناطر وعليها سوق كبيرة فيها سائر
التجارات مادة متملة ثم ريفض وضاح ومولي امير المؤمنين المعروف
بقصر وضاح صاحب خزانة السلاح واسواق وهناك واكثر من فيه في
هنا الوقت الوراققون اصحاب الكتب فإنه به اكثر من مائة حانوت
للوراققين ثم الي قطيعة عمرو بن سمعان الحراني وهناك طاق
الحراني ثم الشرقية وانما سميت الشرقية لانها قدرت مدينة
للمهدي قبل ان يعزم علي أن يكون نزول المهدي في الجانب الشرقي
من دجلة فسميت الشرقية وبها المسجد الكبير وكان يجمع فيه يوم
الجمعة وليه منبر وهو المسجد الذي يجلس فيه قاضي الشرقية ثم
اخرج المنبر منه، وتخرج من الشرقية مارا الي قطيعة جعفر بن
المنصور علي شط دجلة وبها دار عيسى بن جعفر وتقرّب منها
دار جعفر بن جعفر بن المنصور ثم تخرج من هذه الطرق الأربعة
التي ذكرنا الي شارع باب الكوخ فلولها عند باب النخلين قطيعة

سويده مولي المنصور ورعبة سويد في ظهر النخاسين ثم الاسواق
مادة في جانبي الشارع وتخرج من باب الكرخ ميتامنا الي قطيعة
الربيع مولي امير المؤمنين التي فيها التجار تجار خراسان من
البرازين واصناف ما يحصل من خراسان من الثياب لا يختلط بهاشئ
وهناك النهر الذي ياخذ من نهر كرخايا عليه منازل النجار يقال له
نهر الدجاج لانه كان يباع عليه الدجاج في ذلك الوقت وفي ظهر
قطيعة الربيع منازل التجار واغلاط الناس من كل بلد يعرف كل
درب باهله وكل سكة بمن ينزلها والكرخ للسوق العظمي مادة من
القصر وضاح الي سوق الثلاثاء طولا بمقدار فرسخين ومن قطيعة
الربيع الي دجلة عرضا مقدار فرسخ فلكل تجار وتجارة شوارع
معلومة ومغوف في تلك الشوارع وحوانيت وعراض وليس يختلط
قوم بقوم ولا تجارة بتجارة ولا يباع صنف مع غير صنفه ولا يختلط
اصحاب المهن من سائر الصناعات بغيرهم وكل سوق مفردة وكل
اهل منفردون بتجارتهم وكل اهل مهنة معتزلون عن غير طبقتهم
وبين هذه الارياض التي ذكرنا والقطائع التي وصفنا منازل الناس من
العرب والهند والدهاقين والتجار وغير ذلك من اغلاط الناس ينتسب
اليهم الدروب والسكك فهنا ربع من ارباع بغداد وهو الربع الكبير
الذي تولاه المسيب بن زهير والربيع مولي امير المؤمنين وعمران
بن الوضاح المهندسين وليس ببغداد ربع اكبر ولا اجل منه ومن باب
الكوفة الي باب الشام ربض سليمان بن مجالد لانه كان يتولي هذا
الربع فتنسب اليه وفيه قطيعة واضح، ثم قطيعة عامر بن اسماعيل

المسلي ثم ربض الحسن بن قحطبة ومنازله ومنازل اهله شارة في
الدرب المعروف بالحسن ثم ربض الخوارزمية اصحاب الحارث بن رقاد
الخوارزمي وقطيعة الحارث في الدرب ثم قطيعة مولي امير
المؤمنين وصاحب الركاب وهي الدار التي صارت لاسحاق بن عيسى
بن علي الهاشمي ثم اشتراها كاتب لمحمد بن عبد الله بن طاهر يقال
له طاهر بن الحارث ثم ربض الخليل بن هاشم البارودي ثم ربض
الخطاب بن نافع التلحاوي ثم قطيعة هاشم بن معروف وهي في درب
الاقفاص ثم قطيعة الحسن بن جعفرات وهي في درب الاقفاص ايضا
متصل بدرب القصارين ومن شارع طريق الانبار فاول القطائع قطيعة
واضح مولي امير المؤمنين وولده ودرب ايوب بن المغيرة الغزالي
بالكوفة والدرب يعرف بدرب الكوفيين ثم قطيعة سلامة بن سمعان
البخاري واصحابه ومسجد البخارية والمنارة الخضراء فيه، ثم قطيعة
الجلال المتطيب ثم قطيعة عرف بن نزار اليماني ودرب اليمامية
النالذ الي دار سليمان بن مجالد وقطيعة الفضل ابن جعونة الرازي
وهي التي صارت لداود بن سليمان الكاتب كاتب ام جعفر المعروف
بداود الببطي ثم السيب ودار هبيرة بن عمرو وعلي السيب قطيعة
صالح البلدي في درب صياح النالذ الي سويقة عبد الوهاب وقطيعة
قابوس بن السميدع وبازائه قطيعة خالد بن الوليد التي صارت لابي
صالح يحيى بن عبد الرحمن الكاتب صاحب ديوان الخراج في ايام
الرشيد فتعرف بدور ابي صالح ثم قطيعة شعبة بن يزيد الكابلي
ثم ربض القس مولي المنصور وبستان القس المعروف به ثم ربض

الهيثم بن معوية ويعرف بشار سوق الهيثم وهناك سوق كبيرة متصلة ومنازل ودروب وسكك كله ينسب الي شارسوق الهيثم ثم قطيعة الهرورودية ال أبي خلد الانباري ثم ربض أبي يزيد الشروي مولي محمد بن علي واصحابه ثم قطيعة موسي ابن كعب التميمي وقد ولي شرطة المنصور ثم قطيعة بشر بن ميمون ومنازله ثم قطيعة سعيد بن دعليج التميمي ثم قطيعة الشيخير وزكريا بن الشيخير، ثم ربض أبي ايوب سليمان المعروف بابي ايوب الخوزي المورياني وموريان قرية من كورس الاهواز يقال لها منازل ثم قطيعة رداد بن راذان المعروفة بالردادية ثم الممدادار ثم حد ربض حرب ودونه الرملية وهذا الريع الذي تولاه سليمان بن محالد وواضح موالي امير المؤمنين والمهندسين عمران بن الوضاح والريع من باب الشام فاول ذلك قطيعة الفضل بن سليمان الطوسي والي جنبه السجن المعروف بسجن باب الشام والأسواق المعروفة بسوق باب الشام وهي سوق عظيمة فيها جميع التجارات والبياعات ممتدة ذات اليمين وذات الشمال اهلة عامرة الشوارع والدروب والعراص وتمتد في شارع عظيم فيه الدروب الطوال كل درب ينسب الي اهل بلد من البلدان ينزلونه في جنبته جميعا الي ربض حرب بن عبد الله البلخي وليس ببغداد ربض اوسع ولاكبر ولاكثر دروبا وأسواقا، في الحال منه وأهله واهل بلخ واهل مرو واهل التحتل واهل بخارا واهل اسيشاب واهل اشتاخنج واهل كابل شاه واهل خوارزم ولكل أهل مرو بلد قائد ورئيس وقطيعة الحكم بن يوسف البلخي صاحب

الحراب وقد كان ولي الشرطة ومن باب الشام في الشارع الاعظم
المهاد الي الجسر الذي علي دجلة سوق ذات اليمين وذات الشمال ثم
ربض يعرف بدار الرقيق كان فيه رقيق ابي جعفر الذين يباعون من
الافاق وكانوا مضمومين الي الربيع مولاه ثم ربض الكرمانية والقائد
بوزان بن خلد الكرمانى ثم قطيعة الصغد ودار خرفاش الصغدي، ثم
قطيعة ماهان الصامغاني واصحابه ثم قطيعة مرزبان ابي اسد بن
مرزبان الفاريابي واصحابه اصحاب العمدة ثم تنتهي الي الجسر فهنا
الريع الذي تولاه حرب بن عبد الله مولي امير المؤمنين والمهندس
والحجاج بن يوسف والريع من باب خراسان الي الجسر علي دجلة
ومابعد ذلك بازاهما الخلد وكان فيه الاصطبلات وموضع العرض
وتقصر يشرع علي دجلة لم يزل ابو جعفر ينزله وكان فيه المهدي
قبل ان ينتقل الي قصره بالرفافة الذي بالجانب الشرقي من دجلة
فاذا جاوز موضع الجسر فالجسر ومجلس الشرطة ودار صناعة للجسر
فاذا جاوزت ذلك فاول القطائع قطيعة سليمان بن ابي جعفر في
الشارع الاعظم علي دجلة وفي درب يعرف بدرب سليمان والي جنب
قطيعة سليمان في الشارع الاعظم قطيعة صالح بن امير المؤمنين
المنصور وهو صالح المسكين مادة الي دار نجيع مولي المنصور
التي مارت لعبد الله بن طاهر واخر قطيعة صالح قطيعة عبد
الملك بن يزيد الجرجاني المعروف بابي عون واصحابه الجرجانية ثم
قطيعة تهيم الباذغيسي متصلة بقطيعة ابي عون ثم قطيعة عباد
الفرغاني واصحابه الفراعنة ثم قطيعة عيسى بن نجيع المعروف بابن

روضة وغللمان الحجابة ثم قطيعة الافارقة ثم قطيعة تمام الديلمي
ممايلي قنطرة التبانين وقطيعة حنبل بن مالك ثم قطيعة البغيين
اصحاب حفص بن عثمان ودار حفص هي التي صارت لاسحاق بن
ابراهيم ثم السوق علي دجلة في الفرضة ثم قطيعة لجعفر ابن
امير المومنين المنصور صارت لأم جعفر ناحية - باب قطربل وتعرف
بقطيعة ام جعفر، ومماعلي القبلة قطيعة مرار العجلي وقطيعة عبد
الجبار بن عبد الرحمن الازدي وقد كان يلي الشرطة ثم عزله وولاه
خراسان قعصي هناك فوجه اليه المهدي في الجيوش فحاربه حتي
ظفر به فحملة الي ابي جعفر فضرب عنقه وصلبه وفي هذه الارباض
والقطائع مالم نذكره لان كافة الناس بنوا القطائع وغير القطائع
وتوارثوا واحصيت السجون والمسكن فكانت ستة الاف درب وسكة
واحصيت المساجد فكانت ثلثين الف مسجد سوي مازاد بعد ذلك
واحصيت الحمامات فكانت عشرة الاف حمام سوي مازاد بعد ذلك
وجر القناة التي تاخذ من نهر كرخايا الاخذ من الفرات في عقود
وثيقة من اسفلها محكمة بالماروج والاجر من اعلاها معقودة عقدا
وثيقا فتدخل المدينة وتنفذ في اكثر شوارع الارباض تجري صيفا
وشتاء قد هندست هندسة لاينقطع لها ماء في وقت وقناة اخري
من دجلة علي هذا المثال وسماها دجيل وجر لاهل الكرخ وماتصل
به نهرا يقال له نهر الدجاج وانما سمي نهر الدجاج لان اصحاب
الدجاج كانوا يتفون عنده ونهراه يسمى نهر طابق بن - الصمية ولهم
نهر عيسى الاعظم الذي يأخذ من معظم الفرات تدخل فيه السفن

العظام التي تأتي من الرقة ويحمل فيها الدقيق والتجارات من الشام ومصر تصير الي فرضه عليها الاسواق وحوانيت التجار لا تنقطع لي وقت من الاوقات فالماء لا ينقطع ولهم الابار التي يدخلها الماء من هذه القنوات فهي عذبة شرب القوم جميعا منها وانما احتيج الي هذه القنوات لكبر البلد وسعته والافهم بين دجلة والفرات من جميع النواحي تدفق عليهم المياه حتي غرسوا النخل الذي حمل من البصرة فصار ببغداد اكثر منه بالبصرة والكوفة والسواد وغرسوا الاشجار واثمرت الثمر العجيب وكثرت البساتين والجنة في ارباض بغداد من كل ناحية لكثرة المياه وطيبها وعمل فيها كل مايعمل في بلد من البلدان لان حذاق اهل الصناعات انتقلوا اليها من كل بلد واتوها مهنكل الحق ونزعوا اليها من الاداني والاقصي لهذا الجانب الغربي من بغداد وهو جانب المدينة وجانب الكرخ وجانب الارياض في كل طرف منه مقبرة وقرى متصلة وعمارات مائة .

والجانب الشرقي من بغداد نزله المهدي بن المنصور وهو ولي عهد ابيه وابتدا ببناءه في سنة ثلث واربعين ومائة فاحتط المهدي قلصره بالرمافة الي جانب المسجد الجامع الذي في الرمافة وحفر نهرا يأخذ من النهر وان سماه نهر المهدي يجري في الجانب الشرقي واقطع المنصور اخوته وقواده بعد ما قطع من الجانب الغربي وهو جانب مدينته وسمت القطنع في هذا الجانب وهو يعرف بمعسكر المهدي كما قسمت في جانب المدينة وتنافس الناس في النزول علي

المهدي لمحبتهم له ولا تساعه عليهم بالآموال والعطايا ولأنه كان
أوسع الجانبين أرضا لأن الناس سبقوا إلى الجانب الغربي وهو
جزيرة بين دجلة والفرات فبنوا فيه ومار فيه الأسواق والتجارات
فلما ابتدئ البناء في الجانب الشرقي امتنع علي من أراد سعة
البناء فأول القطنع علي رأس الجسر لخزيمة بن غازم التميمي وكان
علي شرطة المهدي ثم قطيعة اسمعيل بن علي بن عبد الله بن
العباس بن عبد المطلب ثم قطيعة العباس بن محمد بن علي بن
عبد الله بن العباس بن عبد المطلب لأنه جعل قطيعة في الجانب
الغربي بستانا، ثم قطيعة الحري بن عبد الله بن الحرث بن العباس
بن عبد المطلب ثم قطيعة فثم بن العباس بن عبيد الله بن العباس
بن عبد المطلب عامل بن جعفر علي اليمامة، ثم قطيعة الربيع مولي
أمير المؤمنين لأنه جعل قطيعة بناحية الكرخ أسواقا ومستغلات
فاقطع مع المهدي وهو قصر الفضل بن الربيع والمبدان ثم قطيعة
جبريل، بن يحيى البجلي ثم قطيعة اسد بن عبد الله الخزاعي ثم
قطيعة ملك بن الهيثم الخزاعي ثم قطيعة سلم بن قتيبة الباهلي
ثم قطيعة سفيان بن معاوية المهلبني ثم قطيعة روح بن حاتم ثم
قطيعة ابان بن صدقة الكاتب، ثم قطيعة حموية الخادم مولي
المهدي، ثم قطيعة نصير، الوصيف مولي المهدي، ثم قطيعة سلمة
الوصيف صاحب خزانة سلاح المهدي، ثم قطيعة بدر الوصيف مع
سوق العطش وهي السوق العظمي الواسعة، ثم قطيعة العلاء
الخادم مولي المهدي ثم قطيعة يزيد بن منصور الحميري ثم قطيعة

زياد بن منصور الحارثي ثم قطيعة ابي عبيد معاوية ابن برمك
البلخي علي قنطرة بردان ثم قطيعة عمارة بن حمزة بن ميمون ثم
قطيعة ثابت بن موسي الكاتب علي خراج الكوفة وماسقي الفرات ثم
قطيعة عبد الله بن زياد بن ابي ليلى الخثعمي الكاتب علي ديوان
الحجاز والموصل والجزيرة وارمينية واذربيجان ثم قطيعة عبيد الله
بن محمد بن صفوان القاضي ثم قطيعة يعقوب ابن داود السلمي
الكاتب الذي كتب للمهدي في خلافته - ثم قطيعة منصور مولي
المهدي وهو الموضوع الذي يعرف بباب المقيبر ثم قطيعة ابي
هريرة محمد بن هروخ القائد بالموضع المعروف بالمخرم ثم قطيعة
معاذ بن مسلم الرازي جد اسحق بن يحيى بن معاذ ثم قطيعة
الغمر بن العباس الخثعمي صاحب البحر ثم قطيعة سلام مولي
المهدي بالمخرم وكان يلي المطالم ثم قطيعة عتبة بن سلم الهذلي
ثم قطيعة سعيد الحرشي في مربعة الحرشي ثم قطيعة مبارك
التركي ثم قطيعة سوار مولي امير المؤمنين ورجبة سوار ثم
قطيعة نازي مولي امير المؤمنين صاحب الدواب وامطبل نازي ثم
قطيعة محمد بن الاشعث الخزاعي ثم قطيعة عبد الكبير عبد
الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب اخي عمر بن الخطاب ثم
قطيعة ابي غسان مولي امير المؤمنين المهدي وبين القطائع منازل
الجند وسائر الناس من التناء ومن التجار ومن سائر الناس في كل
محله وعند كل ريف وسوق هذا الجانب العظمي التي تجتمع فيها
اصناف التجارات والبياعات والصناعات علي راس الجسر مارا من راس

الجسر مشرقا ذات اليمين وذات الشمال من أصناف التجارات
والمصناعات، وينقسم طرق الجانب الشرقي وهو عسكر المهدي خمسة
اقسام، فطريق مستقيم الي الرصافة الذي فيه قصر المهدي والمسجد
الجامع وطريق في السوق التي يقال لها سوق خضير وهي معدن
طرائف الصين ونخرج منها الي الميدان ودار الفضل بن الربيع
وطريق ذات اليسا رالي باب البردان وهناك منازل جلد بن برمك
وولده، وطريق الجسر من دار خزيمة الي السوق المعروفة بسوق
يحيي بن الوليد الي الموضع المعروف بالدور الي باب بغداد
المعروف بالشماسية ومنه يخرج من اراد الي سر من رأي، وطريق
عند الجسر الاول الذي يعبر عليه من اتي من الجانب الغربي ياخذ
علي دجلة الي باب المقير والمخرم وماتصل بذلك، وكان هذا اوسع
الجانبين لكثرة الاسواق والتجارات في الجانب الغربي كما وصفنا فنزله
المهدي وهو ولي عهد وفي خلافته ونزله موسي الهادي ونزله
هارون الرشيد ونزله المأمون ونزله المعتصم وفيه اربعة الاف درب
وسكة وخمسة عشر الف مسجد سوي مازاده الناس وخمسة الاف
حمام سوي مازاده الناس بعد ذلك وبلغ أجره الاسواق ببغداد في
الجانبين جميعا مع رحا البطريق وماتصل بها في كل سنة اثني
عشر الف الف درهم ونزل ببغداد سبعة خلفاء المنصور والمهدي
وموسي الهادي وهارون الرشيد ومحمد الامين وعبد الله المأمون
والمعتصم فلم يمت بها منهم واحدا الامحمد الامين بن هارون
الرشيد فانه قتل خارج باب الانبار عند بستان طاهر .

وهذه القطائع والشوارع والدروب والسكك التي ذكرتها علي
مارسمت في ايام المنصور وقت ابتدائها وقد تغيرت ومات
المتقدمون من اصحابها وملكها قوم بعد قوم وجيل وبعد جيل
وزادت عمارة بعض المواضع وملك قوم ديار قوم وانتقل
الوجوه والجلّة والقواد واهل النباهة من سائر الناس مع المعتصم
الي سر من راي في سنة ثلث وعشرين ومائتين، ثم اتصل بهم
المقام في ايام الواثق والمتوكل ولم تخرب بغداد ولا نقصت
اسواقها لانهم لم يجدوا منها عوضا ولانه اتصلت العمارة والمنازل
بين بغداد وسرمن راي في البر والبحر أعني في دجلة وفي جانبي
دجلة . [١]

رسالة في فضل علي بن أبي طالب
وآله من بني هاشم

رسالة فني سلس بن ابي طالب واله من بني هاشم

تقدمة:

هذه اولي رسالتين، تضمنهما كتاب بهاء الدين ابي الفتح، علي
ابن عيسي الاربلي كشف الغمة في معرفة الائمة، ومدرنا بهما
عده .

وعلي بن عيسي هذا هو احد شعراء القرن السابع وكتابه
المترسلين ولد في اربل الواقعة بين الزاب الكبير والزاب الصغير
في اقليم الجزيرة قريبا من اذربيجان وعمل في ديوانها كما عمل من
بعد في ديوان بغداد .

اما كتابه فهو من الكتب التي تمثل غلبة التشيع في هذا
الافق الشرقي من آفاق العالم الاسلامي بما بناه عليه من ذكر
تاريخه . والترجمة لائمة ومن ذلك كان من أوائل الكتب التي عني
بطبعتها في ايران، وانما استجزنا ان نصدر بهاتين الرسالتين عنه،
لانه وان كان مطبوعا كان في اعتبارنا في حكم المخطوط وذلك
لندرة نسخه، وصعوبة الحصول عليه، اذا كان انما طبع في سنة

اربع وتسعين ومائتين والـف، للهجرة التي توافق في التاريخ
الميلادي سنة سبع وسبعين وثمانمائة والـف. وإذا كان قد انفرد،
فيما وقفنا عليه بها اورد من الاثار المنسوبة لابي عثمان.

وعلي ان هاتين الرسالتين اللتين اوردهما منسوبتين الي الجاحظ
متفاوتتان تفاوتاً بعيداً في تحقيق هذه النسبة.

فاما الاولى التي ذكر انه اوردها مختصراً لها بعد ان وقد
عليها بخط عبد الله بن الحسين الطبري، فهي في جملتها، فيما
يغلب علي طناً صحيحة بالنسبة الي الجاحظ وان امتدت اليها يد
ابي الفتح بالاعتصار الذي يشير اليه والذي لا يبعد عندنا ان يكون
قد حلف به منها اشياء لها خطرهما في التاريخ الادبي والفكري
وبما اضافهما كما هو واضح الي علي ويديه من الالقاب التي جرت
عادة الشيعة بالحاقها باسمه واسماء سلالته وهي القاب «السلام
عليه» مما لانجد له اثراً فيما عدا هذه النسخة من الرسالة من
كتب الجاحظ وسائله اذ لا تزيد ان هي فعلت الا عبارة «رضي الله
عنه» أو «كرم الله وجهه».

أما فيما عدا ذلك فالذي نكاد نقطع به انها من اثار الجاحظ،
كما يغلب علي الظن انها تنتمي الي رسائله الهاشميات التي ذكرها
في مقدمة الحيوان بقوله.

وعبّيتني برسائلي الهاشميات، واحتجاجي فيها، واستقصائي معانيها وتصويري لهد في احسن صورة لها في اتم حلية وزعمت اني قد خرجت بذلك من حد المعتزلة الي حد الزيدية ومن حد الاعتدال في التشيع والاقتصاد فيه الي حد السرف والاغراط وزعمت ان مقالة الزيدية خطبة مقالة الرافضة، وان مقالة الرافضة خطبة مقالة الغالبة الي اخر ما قاله في هذا النمط، مشتقا الكلام علي عادته متطرقا من الجزئي الي الكلي ومن المسائل الخاصة الي القضايا العامة .

ولعل هذه الصفات التي وصف بها الجاحظ رسائله الهاشميات هذه كانت مما اغري علي بن عيسي بأن ينقلها او ينقل احداها الي كتابه بعد ان يتصرف فيها بما تحمله عليه شيعته وما قدره حجم كتابه وطبيعته وقد اتاح له ذلك ما يمتاز به اسلوب الجاحظ من بسط وما يلتزمه كثيرا من مزاجه . وقد استطاع ان يحتفظ الي حد غير قليل فيما اداه اليها من رسالته بسمات هذا الاسلوب .

وكما استطاع ان يحتفظ بمثل هذه السمات من أسلوبه استطاع ان يحتفظ بالطابع الاعتزالي في تحقيق الغاية التي يجري اليها وهي الانتصار لبني هاشم وبيان مناقبهم . وكان من اول معالم هذا الطابع واطهرها، امطناع المناظرة في الاحتجاج للمسائل التي يتناولها

المعتزلة منذ تحولت قضايا الدين اليهم، فتحول معها اسلوب
الاقناع من الخطابة التي كان يصطنعها اسلافهم ، يتجهون بها الي
وجدان الناس الي هذا النمط الذي يتجه الي العقل يصطنع له ما
يلائمه ويساير طبيعته وهو الحوار الذي لم يلبث ان غلب عليهم
يتخلونه فيما يريدون الاقناع به ويتجاوزن به في بعض الاحيان هذه
الغاية فيتخلونه نوعامن الرياضة العقلية ، يزجون بها اوقات
فراغهم .

ويبدو هذا فيما اشار اليه الجاحظ في هذه الرسالة من وجوه
الخصومة التي كانوا يتصدون لها بين البصرة والكوفة وبين العرب
والشعوبية وبين عدنان وقحطان وفيما كانوا يعالجونه من قضايا
الوعد والوعيد والقدر والتشبيه والاسماء والاحكام، وغير ذلك مما
كان المجتمع البصري يضطرب به ويدفع اليه .

وقد كان من ذلك ماكان يتورط فيه هذا المجتمع المعقد اشد
التعقيد من الكلام عن الرجال مفاضلة بينهم وتمييزا بين طبقاتهم
ومما قد يؤدي اليه هذا من الغلو في التقدير والخروج عن القصد
وذلك مما ينبغي للمعتزلة ان يتجنبوه فلا ينزلقوا اليه . فيلتزموا
النهج الأوسط الذي يري الاطراف المختلفة ولا تدفعهم الخصومة الي
مثل ما دفعت اليه اليهود والنصارى في دعاواهم والي ما حمل علي
بن ابي طالب في مثل قوله: يهلك في رجالان ، محب ملوط ومبغض

مدرط . .

وكذلك كان مذهب الجاحظ في هذه الرسالة التي بناها علي بيان درجة بني هاشم إذ يقول "والرأي كل الرأي الا يدعوك حب الصحابة الي بخس عترة رسول الله صلي الله عليه وسلم حقوقهم وحظوظهم وكان هذا المذهب الذي اخذ نفسه به الذي عرضه لها اتهمه به خصومه من أنه خرج بذلك من حد المعتزلة الي حد الزيدية .

ومهما يكن من أمر فان هذه الرسالة التي لانتقد غير المقدمة لها تعرض لنا نمطاً من الأدب الجاحظي يختلف اختلافاً كبيراً عن النمط الذي رأيناه من قبل، بقدر ما يعبر عن شخصية الجاحظ في غير ناحية من تواحيه وما تجلوه به في صورة الرجل السمع الواسع الافق البعيد من التزمت القريب من النهج الاوسط في رويته للامور وتناوله لها ووضعها في أقدارها .

اعلم - حفظك الله - أن أصول الخصومات معروفة بينه، وأبوابها مشهورة، كالخصومة بين الشعوبية والعرب والكوفي والبصري والعدناني والقحطاني، فهذه الابواب الثلاثة انقص للعقول السليمة، وأفسد للأخلاق الحسنة، من المنازعة في القدر والتشبيه، وفي الوعد والوعيد، وفي الاسماء والاحكام وفي الاثار وتصحيح

الآخبار .

وأنقص من هذه للعقول تمييز للرجال وخريب الطبقات، وذكر تقديم علي وابي بكر رضوان الله عليهما . فأولي الاشياء بك القصد وترك الهوي فان اليهود نازعت النصاري في المسيح، فلج بهما القول، حتي قالت اليهود أنه ابن يوسف النجار، وأن لغير رشده وأنه صاحب نيرنج وخدع ومخازيق، وناصب شرك وصياد شمس وشبك فما يبلغ عن عقل صياد وريبب نجار؟ وزعمت النصاري انه رب العالمين، وخالق السماوات والارضين واله الأولين والآخرين . فلو وجدت اليهود أسسوا من هذا القول مقاتته فيه . وعلي هذا قال علي "عليه السلام" يهلك رجالن، محب مفرط ومبغض مفرط . والرأي كل الرأي الايدعوك حب الصحابة الي بخس عترة الرسول صلي الله عليه وسلم وحقوتهم وحطوطهم فان عمر لما كتبوا الدواوين وقدموا ذكره فأنكر ذلك، وقال ابدءوا بطرفي رسول الله، صلي الله عليه وسلم واله، وضعوا آل الخطاب حيث وضعهم الله قالوا : فانت امير المؤمنين فابي الاتقديم بني هاشم علي نفسه . فلم ينكر عليه منكر وصوبوا رأيه وعدوا ذلك من مناقية .

وأعلم أن الله لو أراد ان يسوي بين بني هاشم وبين الناس لما ابانهم يسهم ذوي القربي ولما قال "انذر عشيرتك الاقربين" وقال تعالى - "وانه لذكر لك ولقومك" واذا كان لقومه في ذلك مالميس لغيرهم فكل من كان أقرب كان ارفع . ولوسواهم بالناس لما حرم عليهم الصدقة وماذلك التحريم الا لآكرامهم علي الله . ولذلك قال

للعباس، حيث طلب ولاية الصدقات: "لاولينك غسالات خطايا الناس
واوزارهم بل اوليك سقاية الحاج والانفاق علي زوار الله . ولهذا كان
رباه اول ربا وضع ودم وربيعه بن الحارث واول دم اهدى لانهم
القدوة في النفس والمال .

ولهذا قال علي، عليه السلام علي منبر الجماعة نحن اهل البيت
لايقاس بنا أحد وصدق صلوات الله عليه . كيف يقاس بقوم منهم
رسول الله صلي الله عليه وسلم، والأطيبان: علي وفاطمة والسبطان
الحسن والحسين، والشهيدان اسد الله حمزة وذو الجناحين جعفر
وسيد الوادي عبد المطلب وساقى الحجيج العباس، وحليم البطحاء
والنجد والخير فيهم، والانصار انصارهم والعهاجر من هاجر اليهم
ومعهم والصدیق من صدقهم والفاروق بن الحق والباطل فيهم
والحواري حواريتهم، وذو الشهادتين لانه شهد لهم ولاخير فيهم
ولهم ومنهم ومعهم .

وقال عليه السلام فيما ابان به اهل بيته . "اني تارك فيكم
الخليفتين احدهما اكبر من الاخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء
الي الارض، وعترتي، اهل البيت . نبأني الخبير انهما لن يفترقا حتي
يردا علي الحوض .

ولو كانوا كغيرهم لما قال عمر، حين طلب مصاهرة علي: اني

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة الاسببي ونسبي".

واعلم ان الرجل قد ينازع في تفضيل ماء دجلة علي ماء الفرات فان لم يتحفظ وجد في قلبه علي شارع ماء دجلة «ارقة» لم يكن يجدها ووجد في قلبه غلظة علي شارب ماء الفرات لم يكن يجدها.

فالحمد لله الذي جعلنا لانفرق بين ابناء نبينا، ورسلا. نحكم لجميع المراسلين بالتصديق ولجميع السلف بالولاية ونخص بابي هاشم بالمحبة ونعطي كل امرئ قسطة من المنزلة.

فاما علي بن ابي طالب، عليه السلام فلو المردنا لايامه الشريفة ومقاماته الكريمة ومناقبه السنية كلاما لانينا في ذلك الدلوامير الطوال. العرق صحيح، والمنشا كريم والشان عظيم والعمل جسيم والعلم كثير، والبيان عجيب، واللسان خطيب والصدر رحيب، فاخلاقه وفق أعراقه. وحديثه يشهد لتديمه، وليس التدبير في وصف مثله الا بذكر جهل قدره واستقصاء جميع حقه فاذا كان كتابنا لايعتمل تفسير جميع أمره، ففي هذه الجملة بلاغ من اراد معرفة فضله.

واما الحسن والحسين، عليهما السلام، فمثلهما مثل الشمس والقمر. فمن اعطي ماني الشمس والقمر من المنافع العامة والنعم

الشملة التامة ؤ ولو لم يكونا ابني علي من فاطمة . عليهم السلام ورفعت من وهمك كل رواية وكل سبب توجيه القرابة لكنك لاتقرن بهما احدا من جلة اولاد المهاجرين والصحابة الا اراك فيهما الانصاف من تصديق قول النبي صلي الله عليه وسلم انها سيدا شباب اهل الجنة جميع من هما سادته سادة .والجنة لاتدخل الا بالصدق والصبروا لا بالحلم والعلم والا بالطهارة والزهد والا بالعبادة والطاعة الكثيرة والاعمال الشريفة والاجتهاد والاشرة الاخلاص في النية فدل علي أن حظهما في الاعمال المرضية والملاهب الزكية فوق كل حظ .

واما محمد بن الحنفية فقد اقر الصادر والوارد والحاضر والبادي انه كان واحد دهره وعصره رجل وكان احب الناس تماما وكمالا .

واما علي بن الحسين عليه السلام فالناس علي اختلاف مذاهبهم مجمعون عليه لايتمري احد في تدبيره ولايشك احد في تقديمه وكان اهل الحجاز يقولون لم نرثالدة في دهر، يرجعون الي اب قريب كلهم يسمي عليا، وكلهم يصلح للخلافة لتكامل خصال الخير فيهم يعنون علي بن الحسين بن علي عليهم السلام وعلي بن عبد الله بن جعفر وعلي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنه .

ولو غزونا بكتابنا هذا ترتيبهم لذكرنا اولا عليا لصلبه وولد الحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن عبد الله بن جعفر ومحمد بن

علي بن عبد الله بن العباس . الا انا ذكرنا جملة من القول فاقصرنا
من الكثير علي القليل .

فاما النجدة فقد علم اصحاب الاخبار ورجال الآثار أنهم لم
يسمعوا بمثل نجده علي ابن ابي طالب عليه السلام، وحمزة رضي الله
عنه ولا بصبر جعفر الطيار، رضوان الله عليه وليس في الارض قوام
اثبت جنائيا، ولا اكثر مقتولا تحت ظلال السيوف ولا اجدر ان
يقاتلوا وقد فرت الاجناد وذهبت المنائع، وخام ذو البصيرة وحاد
اهل النجدة، من رجال بني هاشم وهم كما قيل

وخام الكمي، وطاح اللوا . ولا تأكل الحرب الاسمين

وكذلك قال دغل حين وصفهم "انجاد امجاد ذو السنة حناد"
وكذلك قال علي عليه السلام حين سئل عن بني هاشم وبني امية نحن
انجد وامجد واجود وهم انكر وامكر واعلر" وقال ايضا "نحن اطعم
للطعام، واضرب للهام" .

وقد عرفت جفاء المكيين وكيس المدنيين، واعراق بني هاشم
مكية ومناسبهم ومدينة ثم ليس في الارض احسن اخلاقا . ولا اظهر
بشرا ولا ادوم دماشه ولا ألين عريكة ولا اطيب عشرة ولا ابعد من
كب منهم والحدة لا يكاد يعدمها الحجازي والتهامي، الا ان حليمهم لا

يشق عبارة وذلك في الخاص والجمهور علي خلاف ذلك حتي تصوير الي بني هاشم فالحلم في جمهورهم وذلك يوجد في الناس كافة ولكننا نضمن انهم اتم الناس فضلا واقلهم نقصا وحسن الخلق في البخيل اسرع، وفي الدليل اوجد وفيهم مع فرض وجوهم وظهور عزهم من البشر الحسن والاحتمال وكرم التفاضل ما لا يوجد مع البخيل الموسر والدليل المكثر اللذين يجعلان البشرواقيّة دون المال.

وليس في الارض خصلة تدعو الي التلغيان والتهاون بالامور وتفسد العقول، وتورث السكر، والا وهي تعتريهم وتعرض لهم دون غيرهم، اذ قد جمعوا من الشرف العالي والمغرس الكريم، والعزة والصدقة، مع ابقاء الناس عليهم والهيبة لهم وانهم في كل اوقاتهم وجميع اعصارهم فوق من هم في مثل ميلادهم في الهيئة الحسنة والمروءة الظاهرة والاخلاق المرضية وقد عرف الحدث الغرير من فتيانهم وذو العرامة من شبابهم انه ان افتري لم يفتر عليه وان ضرب لم يضرب، ثم لانجده الاقوي الشهوة بعيد الهمة كثير المعرفة مع خفة ذات اليد وتعدر الامور ثم لانجد عند افسدهم شيئا عند المنكر الا رايت من غيره من الناس اكثر منه من مشايخ القبائل وجمهور العشائر. اذا كان فاضلهم فوق كل فاضل، وناقصهم انقص نقصانا من كل ناقص فاي دليل ادل اي برهان اوضح مما قلته.

وقد علمت ان الرجل منهم ينعت بالتعظيم «يشار اليه» بالرواية

في دخول الجنة بغير حساب، ويتأول القرآن له ويزداد في طمعه بكل حيلة وينقص من خوفه، ويحتج له بأن النار لا تمسه وأنه ليشفع في مثل ربيعه ومضر وبانت تجد لهم مع ذلك العدد الكثير من الصوام والمصلين والتالين الذين لا يجاريهم احد ولا يقاربهم.

كان ابوسفيان بن الحارث بن عبد المطلب يملي في كل ليلة الف ركعة، وكذلك علي بن الحسين بن علي وعلي بن عبد الله بن جعفر وعلي بن عبد الله العباس عليهم السلام، مع الحلم والعلم، وكظم الغيظ والصفح الجميل، والاجتهاد المبرر. فلوا ان خصلة من هذه الخصال اوداعية من هذه الدواعي عرضت لغيرهم، لهلك واهلك.

اعلم انهم لم يمتحنوا بهذه المحن، ولم يتحملوا هذه البلوي الا لما قدموا من العزائم التامة والادوات الممكنة ولم يكن الله ليزيدهم في المحنة الا وهم يزدادون علي شدة المحن خيرا وعلي التكشف تهذيبا.

وجملة اخري مما لعلني بن ابي طالب عليه السلام خاصة الاب ابو طالب والجد عبد المطلب بن هاشم والام فاطمة بنت اسد بن هاشم والزوجة فاطمة بنت رسول الله صلي الله عليه وسلم وسيد نساء اهل الجنة والولد الحسن والحسين سيدي شباب اهل الجنة والاخ جعفر الطيار في الجنة والعم العباس وحمزة سيد الشهداء في الجنة

والعمة صفية بنت عبد المطلب وابن العم رسول الله صلى الله عليه وسلم واله . واول هاشمي بين هاشميين كان في الارض ولد ابي طالب والاعمال التي يستحق بها الفخر اربعة : التقدم في الاسم والذب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن الدين والفقه في الحلال والحرام الزهد في الدنيا وهي مجتمعة في علي بن ابي طالب متفرقة في الصحابة .

ولي علي يقول اسد بن زعيم يحرض عليه قريشا وانه بلغ منهم علي حداثة سنة مالم يبلغه ذوو الاسنان .

في كل مجمع غاية اخزاكم جذاع ابر علي المذاكي القرح
للم ركم الما تنكروا قد ينكر العظيم الكريم ويستحي
هذا ابن فاطمة الذي افناكم نبعات، ويمشي امنا لم يجرح
اين الكهول؟ واين كل دعاة للمعضلات واين زين الابطاح؟
افناكم ضربا بكل مهنة طلت وحد غرارة لم يطفح

واما الجود فليس علي ظهر الارض جواد جاهلي ولا اسلامي ولا عربي ولا عجمي ولا وجوده يكاد يصير بخلا اذا ذكر وجود علي بن ابي طالب، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن العباس والمذكورون بالجود منهم كثير لكننا اقتصرنا .

ثم ليس في الارض قوم انطق خطيبا، ولاكثر بليغا، من غير

تكلف ولا تكسب من بني هاشم وقال ابو سفيان بن الحارث:

لقد علمت قريش غير فخر بأننا نحن اجروهم جنانا
واكثرهم دروعا سابغات وامظاهم اناطعنوا سنانا
وانفعهم عن الضرا فيهم وابينهم انا نطقوا بياننا

ومما يضم الي جملة القول في فضل علي بن بن طالب، عليه السلام أنه اطاع الله قبلهم ومعهم وبعدهم وامتنح بها لم يمتحن به ذو عزم وابتلي بها لم يبتل به ذو صبر .

واما جملة القول في ولد علي فان الناس لايعظمون الناس الا بعد ان يصيبوا منهم، وينالوا من فضلهم والا بعد ان تظهر قدرتهم وهم معظمون قبل الاختيار، وهم بذلك واثقون به موقنون . فلولا أن هناك سرا كريما، وخيما عجيبا وفضلا مبينا . وعرفا ناسيا لاكتفوا بذلك التعظيم ولم يعانون تلك التكاليف الشداد والمحن الغلاظ .

واما المنطق والخطب، فقد علم الناس كيف كان علي بن ابي طالب عند التفكير والتحبير وعند الارتجال وعند الاطناب والايجاز في وقتها وكيف كان كلامه قاعدا وقائما ولي الجماعات ومنفردا مع الخبرة بالاحكام والعلم بالحلال والحرام . وكيف كان عبد الله بن عباس رضوان الله عليه فالذي كان يقال له الحبر والبحر، ومثال عمر بن الخطاب يقول له "عص ياغوام" شنشنه اعرفها من اخزم، قلب عقول

ولسان قول "ولو لم يكن لجماعتهم الا لسان زيد بن علي بن الحسين وعبد الله بن معاوية بن جعفر لفرعوا بهما جميع البلغاء وعلوا بهما علي جميع الخطباء ولذلك قالوا "واجواد امجاد السنة حداد" .

وقد القيت اليك جملة من ذكر الـ الرسول يستدل بالقليل منها علي الكثير وبالبعض علي الكل والبغية في ذكرهم انك متي عرفت منازلهم ومنازل طاعاتهم ومراتب اعمالهم وأقدار افعالهم وشدة محنتهم واضفت ذلك الي حق القرابة كان أدني مايجب علينا الاحتجاج لهم وجعلت بدل التوقف في امرهم الرد علي من اضاف اليهم مالا يليق بهم وقد تقدم من قولنا فيهم، متفرقا ومجملا وما اغني عن الاستقصاء في هذا الكتاب.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

- ١- ابن أبي أميبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم الخزرجي، توفي سنة ٦٦٧هـ / ١٢٧٠م.
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، جزآن، نشر وتحقيق الدكتور نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.
- ٢- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد الجزري، توفي سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م.
- الكامل في التاريخ، طبعة القاهرة، ٤ أجزاء.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة، ٥ أجزاء، طبعة المعارف، القاهرة ١٢٨٥هـ.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة، ٥ أجزاء، طبعة المعارف، القاهرة ١٢٨٥هـ.
- ٣- ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف، توفي سنة ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ح ١، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة.
- ٤- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد حزم الظاهري، توفي سنة ٥٦٤هـ / ١٠٦٤م.
- جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى، تحقيق الدكتور احسان عباسي،

- والدكتور ناصر الدين الأسد، طبع دار المعارف، مصر [مجموعة تراث الاسلام].
- جمهرة انساب العرب، تحقيق ليفي بروفنسال، طبع دار المعارف، سنة ١٩٤٨. [مجموعة ذخائر العرب].
- الفصل في الملك والاهواء والنحل، ٤ أجزاء، القاهرة، سنة ١٣١٧هـ.
- ٥- ابن حوقل، أبو القاسم محمد، توفي سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م.
- كتاب صورة الارض، نشر Kramers ليدن ١٩٣٨، في جزئين.
- ٦- ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله عبد الله توفي ٢٧٢ هـ / ٨٨٥ م.
- كتاب المسالك والممالك، طبعة دجويه، ليدن ١٨٨٩، وبديله نبذة من كتاب "الخرج وصنعه الكتابة"، لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي.
- ٧- ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون ولي الدين التونسي الخضرى الاشبيلي المالكي، توفي في سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م.
- العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ٧ أجزاء، بولاق ١٣٨٤ هـ.
- مقدمة ابن خلدون، طبعة التجارية.
- التعريف بابن خلدون رحلته شرقاً وغرباً، نشر محمد بن تاويت الطبخي، القاهرة ١٣٧ هـ / ١٩٥٠ م.
- ٨- ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد، توفي سنة

١٢٨٢هـ / ١٢٨٢م.

- وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان، نشر محمد محيي الدين عبد الحميد، ٦ أجزاء، طبع القاهرة ١٣٦٧ - ١٣٦٩هـ / ١٩٤٨ - ١٩٥٠م.

٩ - ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهري، توفي سنة ٢٣٠هـ / ٨٤٥م.

- كتاب الطبقات الكبير، تحقيق ادوارد سكو، ٨ أجزاء، ليدن ١٩٠٤ - ١٩١٧م.

١٠ - ابن سعيد، علي بن موسى المغربي، توفي سنة ٦٧٣هـ / ١٢٧٦م.

- المغرب في حلي المغرب، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، طبع دار المعارف، القاهرة [مجموعة ذخائر العرب].

١١ - ابن الشباط، محمد بن علي بن محمد المصري التوزري، توفي سنة ٦٨١هـ / ١٢٨٢م.

- صلة السعوط وسمة المرط نشر القسم الخاص بالاندلس، أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الاسلامية، مدريد، ١٩٧١م.

١٢ - ابن عبد البر القرطبي، يوسف النعمري توفي سنة ٤٥٩هـ / ١٠٦٦م.

- الاستيعاب في معرفة الاصحاب، نشر علي هامش الاصابة لابن بن حجر، ٤ أجزاء النسخة المصورة بالوفست، المثنى بغداد.

١٨- ابن القوطية، محمد بن عمر، توفي سنة ٣٦٧هـ / ٩٧٧م.
- تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، طبع بيروت
١٩٥٧.

١٩- ابن الكردبوس، [آخر القرن السادس الهجري ١٢م]
- تاريخ الأندلس، تحقيق أحمد مختار العبادي، مجلة معهد الدراسات
الإسلامية بهدريد ١٩٧١.

٢٠- ابن النديم، محمد بن اسحاق، توفي ٣٨٣هـ / ٩٩٣م.
- الفهرست، طبعة التجارية

٢١- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري،
توفي سنة ٢١٨هـ.
- السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقاره، إبراهيم الأبياري، عبد
الحفيظ شلبي، ٤ أجزاء، طبع دار أحياء التراث العربي، بيروت،
لبنان.

٢٢- ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الخزرجي
الأفريقي، توفي سنة ٧١١هـ / ١٣١١م.
- لسان العرب، طبع بولاق ١٢٩٩ - ١٣٠٨هـ، في عشرين مجلدًا.

٢٣- أحمد أمين، ضحي الإسلام، جزءان، طبع لجنة التأليف والترجمة
والنشر، طبعة ثالثة، القاهرة ١٣٧١هـ / ١٩٥٢.
- طبع دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة العاشرة.

٢٤- الامطخري، أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي، توفي سنة ٩٥١هـ / ١٠٩٥ م.

- كتاب المسالك والممالك نشر دجويه ليدن ١٩٢٧ م.

٢٥- الأصفهاني [أبو الفرج]، توفي سنة ٣٥٦هـ / ٩٦٧ م.
- كتاب الأغاني، ٢١ جزءاً، طبع القاهرة ١٩٢٧ - ١٩٣٦ م.

٢٦- بروفنسال، تاريخ أسبانيا الاسلامية، بالفرنسية طبع الجمعية الفرنسية للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٤٨ م.

٢٧- الخطيب البغدادي، الحافظ ابو بكر احمد بن علي بن علي، توفي سنة ٤٦٣هـ / ١٠٧٠ - ١٠٧١ م.
- تاريخ بغداد أومدينة السلام، ١٤ جزءاً، طبع القاهرة ١٣٤٩هـ / ١٩٣١ م.

٢٨- البغدادي، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر، توفي سنة ٤٢٩هـ / ١٠٣٧ م.

- الفرق بين الفرق، طبع القاهرة ١٣٢٨هـ / ١٩١٠ م.

٢٩- البكري، أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز توفي سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤ م.

- المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب نشر دسلن، باريز ١٩١١ م.

٣٠- البلاذري، أبو العباس احمد بن يحيى بن جابر، توفي سنة ٢٧٩هـ / ٨٩٢ م.

- كتاب فتوح البلدان، طبع ليدن ١٨٦٦م.
- ٣١- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك، توفي سنة ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م -
- يتيمة الدهر، أربعة أجزاء، طبع القاهرة ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م.
- ٣٢- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، توفي سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٩م -
- كتاب التاج في أخلاق الملوك، تحقيق أحمد زكي باشا، القاهرة،
١٣٣٢هـ / ١٩١٤م.
- كتاب البيان والتبيين، ٤ أجزاء، القاهرة ، ١٩٢٨م.
- كتاب التبصر بالتجارة، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، الطبعة
الثانية، القاهرة، ١٣٥٤هـ / ١٩٣٥م.
- ٣٣- الجهشياري، أبو عبدالله محمد بن عبدوس، توفي
٣٣١هـ / ٩٤٣م.
- الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا، ابراهيم الابياري وعبد
الحفيظ شلبي طبع القاهرة ١٩٣٨م.
- ٣٤- حاجي خليفة، مصطفى كاتب جلبي، توفي ١٠٦٧هـ،
١٦٥٧م.
- كشف الظنون عند أسامي الكتب والفنون، طبع ليزج ولندن
١٨٣٥-١٨٥٨م.
- ٣٥- خليفة بن خياط، توفي سنة ٢٤٠هـ / ٩٥١م.
- تاريخ خليفة بن خياط [رواية بقي بن محمد] تحقيق سهيل زكار، في

قسمين، منشورات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي، دمشق
١٩٦٧-١٩٦٨.

٣٦- ديمومبيين [جودلروا]، النظم الاسلامية، ترجمة الدكتور فيصل
السامر، الدكتور صالح الشماخ، دار النشر للجامعيين، بيروت
١٩٦١.

٣٧- الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد، توفي سنة
١٣٤٨-١٣٤٧هـ/١٣٤٨-١٣٤٧.
- تذكرة الحفاظ، جزءان، الطبعة الثانية، حيدر آباد - الدكن الهند،
١٣٣٣هـ.

- تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام، وثلاثة أجزاء، نشر مكتبة
القدس، طبع القاهرة ١٣٦٧-١٣٦٨هـ.
- كتاب دول الاسلام، جزءان طبع حيدر آباد الدكن الهند - الطبعة
الثانية، سنة ١٣٦٤-١٣٦٠هـ.
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، ٤ اقسام، تحقيق محمد البجاوي،
طبع عيسى البابي الحلبي، القاهرة سنة ١٩٦٣م.

٣٨- الرقيق القيرواني، أبو القاسم ابراهيم، توفي بعد سنة ٤١٧هـ/
١٠٢٦م.

- تاريخ افريقية والمغرب، تحقيق الملجي الكعبي، تونس ١٩٦٨.

٣٩- الزبير، أبو عبد الله الزبير بن بكار بن أحمد بن مصعب، توفي

سنة ٢٥٦هـ / ٨٧٠م.

- كتاب نسب قريش، تحقيق ليفي بروغنسال، نشر دار المعارف، مصر ١٩٥٣ [مجموعة ذخائر العرب].

٤٠- سعد زغلول، التاريخ العباسي، والأندلسي، طبع دار النهضة العربية، بيروت.

- تاريخ الدولة العربية، طبع دار النهضة العربية، بيروت.

٤١- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين، توفي سنة ٩١١هـ / ١٥٠٩م.

- حسين المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة، جزءان، طبع القاهرة، سنة ١٣٢٧.

- تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة، طبع القاهرة، سنة ١٣٠١هـ.

٤٢- الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، توفي سنة ٥٤٨هـ /

- الملل والنحل، ٥ أجزاء، القاهرة ١٣١٧هـ.

٤٣- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، توفي سنة ٣١٠هـ / ٩٢٣م.

- تاريخ الأمم والملوك، طبعة دار المعارف ١٠ أجزاء [مجموعة ذخائر

العرب]٠

٤٤- طيفور، ابو الفضل أحمد بن أبي طاهر، توفي سنة ٢٨٠هـ /
٨٩٣-٨٩٤م٠
- تاريخ بغداد، الجزء السادس، طبعة هـ٠ كلر، لاينرج ١٩٠٨٠

٤٥- القاضي عياض، ابو الفضل بن موسى اليجصبي، توفي سنة
٤٧٦هـ /

- ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة اعلام مذهب مالك، تحقيق
أحمد بكير محمود، ٤ أجزاء، طبع بيروت٠

٤٦- فاروق عمر:

- طبعة الدعوة العباسية [٩٨هـ / ٧١٦م - ٣٢١هـ / ٧٤٩م]، دراسة
تحليلية لواجهات الثورة العباسية وتفسيراتها، طبع دار الارشاد
بيروت، طبعة أولي، سنة ١٩٧٠م٠
- بحوث في التاريخ العباسي، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، ١٩٧٧م٠

٤٧- القالي، أبو علي اسماعيل بن القاسم البغدادي، توفي ٣٥٦هـ /
٩٦م٠

- كتاب الأمالي، جزءان، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان٠
- كتاب ذيل الأمالي والنوادر، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان٠

٤٨- القفطي، جمال الدين علي بن يوسف بن ابراهيم بن عبد الوهاب،
توفي سنة ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م٠

- اخبار العلماء باخبار الحكماء، نسخة مصورة بالأوفست عن طبعة ليبزج ١٩٠٣م مكتبة المثنى، بغداد .

٤٩- القلقشندي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي المصري، توفي سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م .
- صبح الأعشي في صناعة الانشاء، في ٤ أجزاء، طبع دار الكتب المصرية، ١٩١٣-١٩١٩ نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٦٥ .
- نهاية الأرب في معرفة انساب العرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة ١٩٥٩ .

٥٠- الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف ، توفي سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م .
- كتاب الولاة والقضاة، نشر فن جست، طبعة بيروت ١٩٠٨ .

٥١- المارودي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، توفي سنة ٤٥٠هـ/١٠٥١م .
- الاحكام السلطانية، طبع القاهرة ١٢٩٧هـ .
.. ادب الوزير ، طبع بيروت
- ادب الوزير، طبع بيروت .
- ادب الدنيا والدين، طبع القاهرة .

مجهول:

٥٢- العيون والحقائق في اخبار الحقائق، النسخة المصورة بالأوفست، المثنى بغداد، عن طبعة بريل ١٨٦٩ .

٥٣- مجهول،

- اخبار الدولة العباسية وفيه اخبار العباس وولده، تحقيق الدكتور عبد العزيز الدوري والدكتور عبد الجبار المطلبي، طبع بيروت سنة ١٩٧١.

مجهول:

٥٤- اخبار مجموعة في فتح الاندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم، مدريد ١٨٦٧م.

٥٥- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، توفي سنة ٩٥٦هـ/٩٥٦م

مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ٤ أجزاء، طبع التجارية ١٩٥٨ وطبعة بربه دي مينار روباليه دي كرتاي، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، بيروت ١٩٧٣.

٥٦- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، توفي سنة ٢٦١هـ/٨٧٥م.

- الجامع الصحيح، ٨ أجزاء، طبع القاهرة ١٣٢٩-١٣٣٢.

٥٧- محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، طبع القاهرة سنة ١٩٥٦.

- ٥٨ - المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد، توفي
٣٨٨هـ / ٩٩٧م.
- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبع دجويه ليدن ١٩٠٦م.
- ٥٩ - المقرئ تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقرئ، توفي
سنة ٨٤٥هـ / ١٤٤١م.
- كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جزءان، النسخة
المصورة بالوفست مكتبة المثنى، بغداد [عن طبعة بولاق].
- ٦٠ - النوبختي، أبو محمد الحسن بن موسى، توفي سنة
٢٣٢هـ / ٨١٧م.
- كتاب فرق الشيعة، طبع المطبعة الحيدرية، النجف، سنة ١٣٥٥هـ /
١٩٣٦م.
- ٦١ - النويري، أبو العباس أحمد بن عبد الوهاب بن محمد شهاب الدين،
توفي سنة ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م.
نهاية الأرب في فنون الأدب، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة.
- ٦٢ - الهمداني، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن
داود، توفي سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٦م.
- صفة جزيرة العرب، جزءان، طبعة دافيد ميلر، ليدن ١٨٩١م.
- ٦٣ - الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر، توفي سنة
٢٠٧هـ / ٨٢٣م.

- كتاب المغازي، ٣ أجزاء، تحقيق الدكتور مارسدن جونس، منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان.

٦٤- ياقوت، شهاب الدين ياقوت من عبد الله الرومي، توفي سنة
١٢٢٧هـ/١٢٢٩م.

- معجم البلدان، في ٦ أجزاء، نشر وستنفلد، ليبزج ١٨٦٦-١٨٧٣.
- ونشره محمد الخانجي، القاهرة ١٩٠٦-١٩٠٧، ١٠ أجزاء.

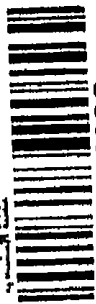
٦٥- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب، توفي سنة
٢٧٨هـ/٨٩١م.

- كتاب البلدان نشر دجويه ليدن ١٨٩٢.

- تاريخ اليعقوبي، في جزئين، طبع بيروت ١٩٦٠.

الفهرست

 Bibliotheca Alexandrina



0204092